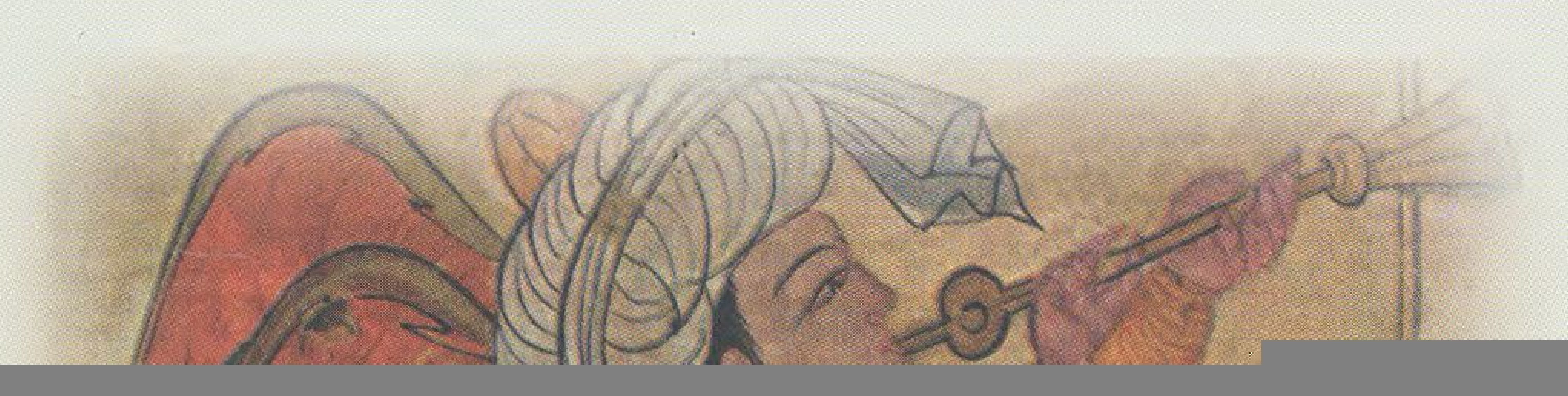
خيري الذهبي





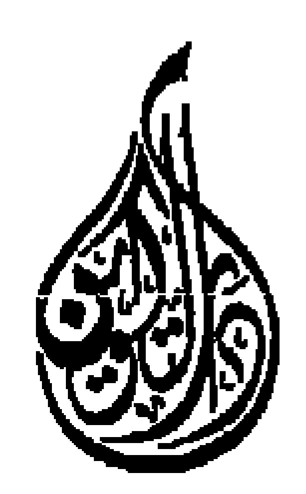
ليالٍ عربية

روايات عربية	

-الكتاب: **ليالٍ عربية**

-الكاتب: **خيري الذهبي**

-الطبعة الثانية: **2008**



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية

تلفاكس **2236468** جوال **0944 330989**

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo. com

ص . ب : 11418

خيري الذهبي

ليالٍ عربية

ليالي الحب

والحرب

والخيبة



ليلةُ الحب

من مكانه وراء الطاولة الصغيرة كان يراقب الناس، يعرف أن هذه ساعة الزحام، فالساعة الخامسة والنصف، وأولئك الذين قرروا حضور السينما لا بد لهم من مكان يقضون فيه ما تبقى من الوقت حتى بداية العرض، وأقرب مكان يستطيعون أن يقضوا فيه وقتاً مجانياً يحاولون أو يتظاهرون فيه بفهم ما يعرض أمامهم هو قاعة الشعب، فهي القريبة، وهي المفتوحة، وهي الداعية أبداً.

منذ أمد ليس بالقصير أصبحت عادة مراقبة المتفرجين عادة ثابتة لديه وتمرس بها حتى غدا قادراً على تمييز ذلك الذي جاء ويفهم ما يتفرج عليه من ذلك المتفرج المتنطع الذي يتظاهر بأنه يفهم ما يرى.

فهو يقترب من اللوحة محدقاً هنيهة، ثم يتراجع إلى الوراء قليلاً مضيِّقاً عينيه هارشاً مؤخرة رأسه، ثم عائداً إلى مكانه من اللوحة دون أن تغفل عيناه عن استراق النظر إلى العيون التي تراقبه، وكلما تأكد أن هناك من يراقبه أمعن في عرضه، ثم هناك المتفرج الذي يمر أمام اللوحات بسرعة مسروراً من دفء المكان ملاحظاً في نفس الوقت الفتيات اللواتي دخلن إلى المعرض.

كان يمسك بدفتر صغير ستره بجريدة وبقلم فحم يخط فيه بعض الاسكتشات كلما تمكن من خلوة قليلة، أو التقط حركة معبرة بين المتفرجين، نظر إلى ساعته... السادسة إلا عشر دقائق، لقد تأخر سليمان، ليست هذه عادته، عاد إلى الجمهور يلاحقهم بنظراته، بينما أخذ عددهم يتناقص واحداً إثر واحد، فقد اقترب موعد العرض المسائي، وهو يدرك هذا ببساطة ودون اغترار، إنه يعرف أن هؤلاء ليسوا الجمهور الذي يبحث عنه، إن جمهوره الحقيقي محدود، بعض المثقفين والنقاد

الفنيين، وبعض المشترين القلائل جداً، وقد يتسرب بين الحين والآخر أحد التجار اشترى بيتاً جديداً ويريد أن يزين جدرانه بلوحة تشبه لوحة الديكور التي رآها في مجلة البيوت السعيدة، ويدور هذا بين اللوحات متأملاً متفحصاً باحثاً عن لوحة لتفاحتين وموزة وأرنب ذبيح، أو عن منظر رعوي، فهذه هي اللوحات التي ترى في مجلات الديكور، وحين لا يجد بغيته في المعرض يخرج متمتماً متشكياً من هؤلاء الفنانين الذين يعرضون قبل أن يتعلموا الرسم، الرسم الأصيل.

ـ صديقي، صديقي العزيز، كان هذا سليمان المفتي.

ـ أهلاً، أهلاً سليمان.

ـ صديقي، أنا آسف جداً أن تأخرت.

ـ لا. لا بأس.

ـ هل تسمح لي بأن أقبل هذه اللحية الطاهرة؟!

كانت هذه عادته، وهي واحدة من الحركات المشهورة عنه، فبعد أن يصافح صديقه يقوم بتقبيله في حركة استعراضية تهريجية، وجاراه خليل.

ـ بل أقبلك أنا يا شيخ الصحفيين — وضحكا معاً من هذه التمثيلية التي لا تنتهي.

ـ كيف يسير المعرض؟.

ـ لا بأس.

ـ والجمهور؟

ـ كالعادة، جمهور السينما، بعض طلبة الفنون، وقليل من الراغبين، وأقل منهم من يشتري لوحة.

ـ أبعت شيئاً؟.

ـ لوحتان فقط.

ـ عظيم، أقرأت المقال الذي نشرته عن معرضك؟.

ـ قرأته، لا بأس به.

ـ لا بأس به؟، جعلت منك غوغان الشرق.

ـ غوغان؟ ومن قال لك إني أريد أن أكون غوغان؟

ـ وماذا تريد أن تكون إذاً؟

ـ أريد أن أكون خليل عطوان فقط.

ـ أتريد الحقيقة يا خليل؟

ـ نعم.

ـ كان معرضك جيداً.

ـ يا سيدي.

وهز كتفه باستخفاف.

ـ اسمع، أنت مدعو الليلة إلى سهرة.

ـ أين؟.

ـ عندي.

ـ ومن سيكون هناك؟

ـ بدأنا وضع الشروط؟

ـ لا، ولكني أريد أن أعرف فقط.

ـ أنا.

ـ تشرفنا، ومن أيضاً؟

ـ سعيد الهندي.

ـ جيد. سيكون هناك إذاً.

ـ دعوته خصيصاً من أجلك.

ـ يا سيدي، شكراً، لقد اشتقت إليه، متى أتى من فرنسا؟

ـ منذ ثلاثة أيام، وكان يريد أن يأتي إلى المعرض ليراك، ولكن يبدو أنه انشغل قليلاً.

ـ لا بأس، ومن أيضاً؟

ـ ألا يكفي من ذكرت؟ هناك نبيل أيضاً.

ـ همم، سيخفف دم السهرة.

ـ أما نجم السهرة، فسأعرفك إليها الآن.

ـ الآن؟ من هي؟

ـ نوال.

ـ نوال؟

ـ لا تعرفها بعد، ولكنها آتية إلى هنا بعد قليل.

ـ أهي صديقة جديدة؟

ـ قديمة جديدة.

ـ كيف؟

ـ تعمل معي في الشركة.

ـ لم تحدثني عنها.

ـ لم أجد الفرصة المناسبة.

ـ الفرصة المناسبة؟ يا لك من لئيم، وهند؟

ـ مقيمة لدى أهلها منذ أسبوعين.

ـ غير معقول.

ـ حصل.

ـ ولكن لمَ؟

ـ يبدو أن طريقينا بدآ يختلفان.

ـ إذاً ستكون مع نوال فقط؟

ـ تقريباً!

ـ أهي متزوجة؟

ـ كانت.

ـ همم – قالها خليل مستغرباً – وقد اكتسى وجهه تعبيراً خاصاً عن الأسف، ولكنه كان يفكر في كنه هذه العلاقة، أما سليمان فبدا وكأنه قد اعتاد هذا الأمر، ولكن عينيه المغطاتين بالنظارة غامتا قليلاً.

أخذت القاعة تخلو من الرواد إلا من شاب وفتاة وقفا أمام لوحة العربية العطشى يتحادثان، وكان ظهرهما لخليل الذي لم يكن مخدوعاً في اهتمامهما باللوحة، فقد أدرك أن الحديث لم يكن متعلقاً باللوحة، التفت خليل إلى صوت الباب يفتح، ولم يصدق عينيه حين دخلت فتاة حنطية اللون ذات ملامح متوسطة الجمال، ولكن أوضح ما كان متميزاً فيها شعرها الغلامي القصة، التفت سليمان مع التفاتة خليل.

ـ وأخيراً حضرت.

ـ من؟ همس خليل.

ـ نوال، نوال التي كنت أحدثك عنها

تابع هامساً وحاول خليل الكثير حتى سيطر على نفسه.

ـ جئت في أوانك، كنت أحدث خليل عنك، نوال محمود.

ـ أهلاً وسهلاً – قالتها في هدوء تام.

ـ تشرفنا يا ستي، قالها وهو يضبط نفسه في جهد.

ـ كانت حريصة على مشاهدة معرضك.

ـ هذا شرف كبير.

- لا، إن أردت إظهار تشرفك فعلاً، فتفضل بمرافقتها لمشاهدة المعرض – قال سليمان، وفوجئ خليل بملاحظة سليمان، ولكنه تابع اللعبة.

- ستكون هذه سعادة خاصة.

مشت نوال أمامه، ولاحظ بسرعة أن خطواتها لم يكن لها وقع فحدس أن حذاءها مطاطي ولا شك، تقدمها قليلاً، ووقف أمام لوحة تمثل أشجاراً ذات أذرع ثعبانية تتطاول لتعتصر شخصاً خائفاً ابتعد عنها في ذعر، كانت متأخرة عنه قليلاً، وتأمل ملابسها – جاكيت من الجلد، بنطلون من البلوجينز، فبدت بشعرها الغلامي وجسمها الرشيق وملابسها هذه أقرب إلى فتى في العشرين منها إلى امرأة في أواخر الثلاثينات، كانت حركتها لينة وخطواتها واثقة، وهي تتبعه من لوحة إلى أخرى يسمي اللوحة لها ويقف جانباً تاركاً إياها تتأملها، شارحاً ما تسأل عنه، كان أطول منها بفارق واضح – ألقى نظرة إلى حيث سليمان، كان يرقبهما من موقفه ويتظاهر بالنظر إلى خارج المعرض، يعرف أنه سوف يسأله عن رأيه فيها بعد قليل.

دار حول الحاجز، وأراها آخر اللوحات، ثم عادا إلى حيث سليمان الذي بادرها.

- هه، ما رأيك؟

- شيء غريب لم أستطع فهمه، لَم هذا الإصرار على التشاؤم؟ امرأة تموت عطشاً، أشجار بأذرع ثعبانية تحاصر حتى الموت، شمس حمراء تحرق ولا تنير، تحاصر وتفزع، أستاذ خليل لم كل هذا التشاؤم؟ أليس هنالك من أمل؟

- الأمل؟

- نعم، الأمل ذلك الفارس القادم من بعيد حاملاً سيفه مطهراً الأرض من الغزاة زارعاً الحَبَّ والحُبَّ حيث مشى.

- هل قلت فارساً؟

ـ نعم، وعلى فرس بيضاء.

واكتسى وجهها حينذاك تعبيراً حلواً من العذوبة وهي تتصوره.

ـ سيدتي، إن فارسك هذا لو جاء الآن ومعه ستة من أمثاله لتصدى لهم وغد صغير مختبئ وراء صخرة ممسكاً برشاش صغير ليجندلهم جميعاً قاتلاً الضحكة على أفواههم.

ـ أهكذا ترى الأمور؟ أليس من شيء رمزي فيما قلت؟

ـ وهذا ما يخيفني يا سيدتي، لأن الرمز تعبير عن الصورة التي نحفظها في أذهاننا عن المرموز إليه، سيدتي يؤلمني هذا كثيراً.

ـ ماذا؟

ـ إن الزير وعنترة لا يزالان البطلين في وجداننا الشعبي، لقد انتهى عهد الفارس على حصانه، يجب أن نبتكر لأنفسنا أبطالاً جدداً.

ـ هم، إنك تطرح أفكاراً جديدة جداً علي، وأعتقد أني سأحتاج إلى فترة طويلة حتى أهضمها... أرى الوقت قد تأخر والمسؤول عن القاعة يتحرك في قلق، ما رأيك لو أتممنا الحديث في وقت آخر؟

ـ أنا تحت أمرك دائماً.

ـ أستأتي إلى السهرة؟

ـ آه، طبعاً – مستغرباً في الوقت نفسه أن تقولها، وكأنها الداعية إلى السهرة.

انتهز سليمان فرصة موافقة خليل ليقول:

ـ آه، نسيت أن أقول لك، عبد الغني سيكون هناك أيضاً.

ـ عبود؟

أخذ سليمان ذراع نوال وهو يهز رأسه موافقاً قبل أن يترك لخليل فرصة الاعتذار أو التراجع.

كانت غرفة الصالون قد فتحت على غرفة الضيوف بزلق الباب ذي الطيات في الجدار فأصبحتا غرفة واحدة، ومدت المائدة طاولة كبيرة مما يطوى عند عدم الاستعمال، ولم يكن على الطاولة إلا عدد من الصحون الفارغة وزجاجة وسكي وزجاجتا عرق حين وصل خليل – نظر حوله.

ـ يبدو أني بكرت في القدوم.

ـ لا، أبداً، لقد جئت في الوقت المناسب، فلقد بدأت أضيق لوحدي.

ـ لست وحدك.

قال خليل مشيراً إلى كأس سليمان نصف الفارغة.

ـ آه، لقد أحببت أن أتسلى قليلاً، أتجرب كأساً؟

ـ سأشرب كأساً، ولو لتسليتك على الأقل.

اتجه سليمان إلى المطبخ فجاء بكيس افرغ بعضه في الصحون بذراً وفستقاً ونقولات، ثم صب لخليل كأساً.

ـ كم؟

ـ قطعتان.

حرك خليل الثلج في كأسه قليلاً قبل أن يرشف منها رشفة، نظر إلى ساعته.

ـ لقد تأخر ضيوفك.

ـ سيأتون، قد يتأخرون قليلاً، ولكنهم آتون، لم تقل لي، ما رأيك في مقالي عن المعرض؟

ـ معقول.

ـ أهذا كل ما لديك لتقوله؟ معقول.

ـ وماذا تريدني أن أصنع؟ وصفتني بغوغان، فكأنك افترضت أني أقل من غوغان.

نظر سليمان حوله ثم قال:

ـ لا يتحدثنَّ أحد عن التواضع.

ـ التواضع؟ هه.

قرع الباب، وكانت نوال في ثوب أخضر جعلت مقدمته على شكل مثلث تدلت زاويته القائمة فمست الأرض، وكانت خلفيته مثلثاً آخر مس الأرض بزاويته تاركاً الساقين مكشوفتين إلى ما فوق الركبة بقليل من الجانبين، أما الكمان فكانا فتحة عريضة التصق جانباهما بالثوب، فكانت إذا تحركت ومدت ذراعيها تحولت إلى فراشة خضراء جميلة.

ـ مساء الخير، بكرتما في الشراب.

ـ أردنا أن نتسلى قليلاً قبل قدوم الضيوف – قال سليمان.

جلسوا جميعاً، وأمسك خليل كأسه هارباً إليها يرشف رشفات صغيرة جداً.

ـ أتشربين؟ قال سليمان.

ـ كأساً صغيرة – قالت نوال.

صب سليمان كأساً لها، وأدارته نوال بين كفيها بسرعة تبرده ثم رشفت منه قليلاً.

ـ معرضك جيد.

ـ شكراً.

ـ ولكني لا أزال على رأيي.

ـ فيمَ؟

ـ في أنك قد أكثرت من التشاؤم، ربما رفضك الناس.

- أتظنين ذلك؟

- أظن؟ ألا ترى كم وضعت من القتامة في لوحاتك؟

- وهم، وهم كبير يا سيدة نوال أن نعتقد أن لنا فعلاً تأثيراً على الناس.

- ماذا؟ وهم؟ فلمَ العمل إذاً؟

- العمل؟ إنه لإرضاء النفس أكثر منه لإرضاء الناس، إننا شعب بلا عيون.

- أوه، لقد أصبحت.. أعني أنك غريب الأفكار يا خليل.

لاحظ سليمان أنها رفعت الكلفة مع خليل حين نادته باسمه المجرد ولكنه تجاهل الأمر.

طرق الباب فقام سليمان ليفتحه.

- هه — اكمل، قالتها تبتسم في خبث، ودخل سعيد الهندي الذي فوجئ لمرآهما قليلاً، ولكنه تمالك نفسه بسرعة.

- خليل، أنت هنا؟ أية روعة!

- سعيد، الحمد لله على السلامة.

أخذ كل منهما يقبل الآخر في شوق حقيقي.

- يكفي، يكفي، أبقِ قليلاً من عواطفك للآخرين.

- مساء الخير — قال سعيد يصافح نوال.

- مساء الخير، سلمت عليه من مجلسها دون أن تقوم، ولاحظ خليل الحركة وفكر أنها تتصرف على طريقة الغربيات — كان في طريقة مد يدها لتحيته ليونة حلوة استغربها خليل بعد سلوكها وثيابها في المعرض اللذين أوحيا له بمحاولتها التشبه بالرجل، وجلس سعيد إلى جانب خليل.

ـ كيف تركت فرنسا؟

ـ كأحسن ما يكون.

ـ كم أتمنى لو أعيد زيارتها!

ـ ألم تحدثني عن معرض كنت تعد له في باريس؟

ـ صحيح، ولكن ظروفاً منعتني.

ـ نفس الظروف. أليس كذلك؟

ـ النقود، النقود يا مخلَص – قال سليمان المفتي – الدراهم كالمراهم.

ـ لم تكمل لنا حديثك عن الشعب بلا عيون – قالت نوال، ونظروا إليها يستغربون إلحاحها.

ـ آه سأقولها لك الآن إن سمح صديقي سعيد.

ـ منذ متى هذا التهذيب، تفضل يا سيدي، تفضل، حدثنا عن شعبك الذي بلا عيون.

ـ حسن – واتجه إلى نوال – شعبنا شعب ذو ذاكرة وإدراك سمعيين فأشد الفنون التي عبَّر فيها شعبنا عن نفسه هو الشعر والغنائي منه خاصة وهو فن سمعي، ثم الملاحم الشعبية، ولكن لم يستطع، أو لم يرد أن يعبر عن نفسه بالفنون البصرية، رسم، نحت، مسرح، إلى آخر تلك الفنون التي تعتمد على إمتاع العين.

ـ ولكن العمارة فن بصري – قال سعيد معلقاً.

ـ صحيح، ولكنه فن عملي، إنه وليد الحاجة، وجد حين احتجنا إليه فقط، انتظر قليلاً، ولما لم يعلق سعيد بشيء تابع – لذلك فإن الفنون البصرية عندنا لم تجد تشجيعاً حقيقياً حتى الآن.

ـ معارض الرسم لا تنقطع من البلد.

ـ وروادها هم نفس الرواد، أما عن المقتنين فأنت أدرى بهم.

- هيه، هل اصطادكم خليل هذه المرة؟

كان هذا نبيل وفوجئوا جميعاً بدخوله، ولكنه علّل دخوله.

- كان الباب مفتوحاً، وسمعت محاضرة خليل فأسرعت لإنقاذكم.

- أهلاً نبيل، قام سليمان يرحب به، وقام الجميع يرحبون به أيضاً.

- نوال، أنت هنا؟

- أهلاً أستاذ نبيل.

- كلما رأيتك اكتشفت أنك تزدادين بهاء — والتفت إلى سليمان — بعد الاستئذان من سليمان.

دخلت إلهام ونظر إليها خليل في تمعن، كانت دائماً تلفت نظره، إنها ليست باهرة الجمال، ولكن فيها ملاحة جليلة تلفت نظرك للمرة الأولى بعينيها الواسعتين الحزينتين، حزن عميق، عميق حتى أدغال الروح، ولكن ما يلفت النظر هو أن تكون على هذا الحزن الجليل وهي زوجة نبيل المرح والمرح جداً حتى الهذر.

قام خليل يسلم كما قام الجميع.

- سيدتي، قال خليل وهو يشد على يدها منحنياً قليلاً.

- مررت على المعرض اليوم قبل الظهر فلم أجدك.

- سوء حظي جعلني أترك المعرض لفترة قصيرة — كان آسفاً فعلاً — أرجو أن يكون قد أعجبك.

- تعرف أني معجبة منذ أمد طويل — قالتها بصوتها الهامس — جلست إلى جانب نوال، وبدا الفارق واضحاً بينهما — بين الإقبال والإدبار، نوال الثلاثينية والتي تحسبها عشرينية بصباها المهاجم وعينيها المتسائلتين أبداً وثوبها الزاهي هذا، وإلهام الأربعينية الطويلة ذات العينين الحزينتين حتى لا يلفت نظرك شيء آخر فيها إلا الحزن العميق في العينين.

- أسمعتم آخر نكتة؟ كان هذا نبيل.

استعدُّوا جميعاً عند جملته هذه، فقد كان مفتاح المرح في مجالسهم، استند بذراعيه على ركبتيه، واتخذ هيئة جادة وقال:

- الزمان يوم القيامة، وضحك البعض — المكان السراط المستقيم.

الجمهور الناس جميعاً يريدون أن يجربوا أنفسهم، فها هنا الامتحان الأكبر ومن نجح في اجتيازه فاز بالخلود، أما من فشل فسيسقط عن السراط إلى جهنم وبئس المصير، تسلَّح الكثيرون بما كسبت أيمانهم، ونظروا إلى أكتافهم اليمنى يستشيرونها، بسملوا طويلاً، وقرأوا كثيراً، ثم هجموا على السراط الرفيع كالشعرة والحاد كشفرة السيف بينما اندلعت ألسنة النيران تتراقص تحت أقدامهم، تمايلوا قليلاً على السراط، ولكن أولهم سقط، ركض الثاني عدة خطوات إلى الأمام، ولكنه سرعان ما هوى إلى الجحيم.

توتر الجميع، ذعروا، خافوا، توسلوا، ركعوا، تمنوا أن يعفوا من هذا الامتحان، ولكن لا فائدة، اعبروا تنجوا، كان هذا هو الصوت، ولكنهم خافوا جميعاً فالعقاب قاس وأبدي.

فجأة انشقَّت الصفوف، نظروا إلى هذا المقدام، ولكنه كان فتى صغيراً، نظروا إلى أكتافه، لا شيء، وأحسوا بالشفقة عليه، حاولوا أن يحذروه، ولكنه لم يبالِ، أمسك قصبة بيده وأسرع يتبختر على السراط، انتظروا وقوعه ولكنه لم يقع، ومن الطرف الآخر أشار لهم بأصبعه الوسطى أتعرفون لماذا؟

- لماذا؟ سأل سليمان.

- كان بهلواناً اعتاد المشي على الحبال — أطلقها نبيل بسرعة وانطلقت الضحكات مجنونة — مجنونة من الأعماق — ضحكوا طويلاً ضحك من وجد المنفرج أخيراً.

- اللعين — قال سليمان بين دموعه الضاحكة — لم يكن يحتاج إلا إلى قصبة.

ـ قصبة، وإتقان المشي على الحبال.

انفجروا في الضحك ثانية دون هوادة، وقرع الجرس وأخذ البعض يمسح الدموع عن عينيه، ودخل دياب وسليمة يتلوهما سليمان.

ـ اكتملت الشلة — قال خليل لنفسه.

ـ مساء الخير، شد على يد سليمة ولاحظ قصة شعرها الغلامية، لم تكن تناسبها — قال في نفسه — فشعرها لم يكن أشقر، ولم يكن بنياً، كان شيئاً هجيناً بينهما أشبه بخيطان الذرة، فلما قصته اختلط مع سمرتها التي كانت في الأصل شقراء.

قرع الباب، ونظر سليمان إلى خليل نظرة سريعة معتذرة، ومضى إلى الباب، ولم يفهم خليل معنى النظرة حتى عاد ومعه عبود، نظر الجميع باتجاه الباب، وخرجت التحيات تترى بأشكال مختلفة منهم.

ـ أهلاً عبود، أهلين عبيدو، أهلاً أبو العبد، يا مرحبا أبو العبابيد، كان خليل يراقبهم جميعاً بهدوء وازدراء خفيف في أعماقه، كان قد سمع رنين زجاجات وطقطقة أكياس تنقل إلى المطبخ، نظر خليل إلى إلهام، الحزن والدهشة في العين وإن كانت ترشف من كأسها بهدوء أما نوال فكانت تبتسم بتحفظ وتعطيه يدها فيقبلها وتنطلق الضحكات من الجميع.

ـ ألم أقل لكم؟ عبود صار مودرن.

ـ أهلاً سيدي، قالها خليل ماداً يده يصافحه في تحفظ، كان عبد الغني ذا منظر طريف، كهل سمين مربوع القامة جعلته سمنته مستديراً واحتال على الصلعة فأطال شعره وجعل الفرق مما فوق الأذن اليسرى حتى غطى مجمل الرأس به إلى ما فوق الأذن اليمنى.

صب سليمان كأساً ناوله لعبود.

ـ في صحة الأنس — قال عبود.

ـ في صحة عبود، في صحة عبود، قال الجميع ضاحكين.

لم يكن تأثير النكتة الأولى قد زال عن أذهانهم حينما تابع نبيل ضاحكاً.

- ما يغيظني هو أن هذا البهلوان اللعين سينال أربعين حورية مكافأة له.

- صحيح، ولكن كيف سيقوم بأودهم؟ سأل خليل.

- سيرقص على الحبال، قال سليمان، وانطلقوا يضحكون ثانية.

- ما يحيرني، لماذا وعد الرجل الصالح بأربعين حورية، ولم توعد المرأة الصالحة بأربعين؟ صاحت سليمة، وانطلقوا يضحكون ثانية.

- لا — قال عبود — المرأة الصالحة تعاد إلى زوجها ولكن شابة.

انتفضت إلهام، وأحس خليل بانتفاضتها فنظر إليها، ولكنها غضت بصرها، بينما انطلق الجميع يضحكون.

- العمى، هذا ظلم، قالت نوال.

وانفجروا يكركرون ثانية.

- يعني قبر بالدنيا والآخرة — قالت سليمة.

- اسمع، اسمع، صولد — قال سليمان وهو يكركر في الضحك ويشير إلى دياب، ضحك دياب قليلاً ناظراً إلى سليمة نظرة تحتية لم يستطع خليل تفسيرها.

- حورية، ما أحلى هذا الاسم! — قال سليمان — حورية البحر، حورية الماء حورية الجبل، حلم الرجل الأبدي في المرأة الكاملة.

- سليمان بدأ يتفلسف — قال نبيل.

- لا، فعلاً، منذ مدة، وأنا أفكر في أصل هذه الكلمة — اتجه بكلامه إلى دياب.

- حورية؟ الحقيقة لم أفكر بها، وإن كنت أعتقد أنها من الحور بياض العين أو بياض البشرة — قال دياب بتمهل كمن يفكر وهو يتحدث.

ـ بياض البشرة، بياض البشرة! ما أحلى البشرة البيظاء – كان هذا نبيل – البشرة البيظاء – ونطقها بالظاء تهريجاً – هي ما أحبها في المرأة.

ـ ولكن لماذا نحير أنفسنا في تفسيرها ومعنا عالم الساميات – التفت إلى سعيد – هه، حدثنا دخيلك ما معنى كلمة حورية بالدقة، فكم أتمنى لو أن لي منهن عشرات بل مئات.

ضحك سعيد قليلاً يتابع لعبة التهريج وقال:

ـ لست وحدك الذي يحلم فيهن دائماً، فهذا حلم سامي أزلي.

ـ كيف؟

ـ اسمع يا سيدي، الحوريون هم من أقدم الشعوب الذين سكنوا بلاد الشام وهم من أقدم من أقام المدن، والمدن كما تعلم تؤمّن دائماً حداً أدنى من الراحة والرفاه فتبيضُّ جلود نسائها وترفه حتى تصبح حلماً لسكان البادية، الأمر الذي حصل فأصبحت نساء بلاد الشام حلماً رائعاً لبداتها وبداة الجزيرة فأخذوا يهاجمون المدن يختطفون نساءها الحوريات الجميلات وربما انتقلت الكلمة من اسم شعب إلى صفة لنوع من النساء، فصارت في لغة الساميين الأوائل الآراميين مثلاً تعني المرأة البيضاء الحسناء، ثم انتقلت الكلمة بمعناها ومنطوقها من لغة سامية شقيقة إلى اللغة العربية.

ـ إذاً فنحن نعيش بين الحوريات ولا ندري، احترامي أيتها الحوريات.

وانحنى نبيل يحيي نوال.

ـ ابتعد عني أيها البدوي الجلف – كان رد نوال سريعاً مما أضحك الجميع، وكان الشراب قد دار عدة دورات وبدأ مفعوله يداعب الجماعة قليلاً.

ـ اسمعوا، أتلعبون البوكر؟ سأل نبيل.

نظر كل منهم إلى الآخر.

ـ السهرة لا تزال في بداياتها، دعونا نثرثر قليلاً، ونسلي نساءنا عفواً، أعني حورياتنا.

ـ اسمعوا، معي شريط لمظفر النواب، أتسمعونه؟ قال دياب.

ـ مظفر النواب ما غيره؟ سألت سليمة.

ـ صاحب ابناء القحبة؟ قال سليمان.

ـ نعم، صاحب أبناء القحبة، أجاب دياب.

ـ حسن، أسمعونا الشريط.

جيء بآلة كاسيت القمها دياب الشريط، وبدأ صوت النواب يهمس بصوت غليظ مؤثر يتحدث عن أشياء يعرفها الكل، وكان صوته باكياً ثائراً مهيناً متحدياً.

ـ اسمع، أعد هذه القطعة — قال سليمان

وارتفع صوت النواب مهيناً حتى العظم، أبناء الكلب هنا، أعني بالضبط هنا، نظر خليل إلى وجوههم، ترى، هل يحسون بالإهانة؟ إنه يشتمهم بوضوح، كانت علائم لذة غريبة على وجوههم، لذة منتشية، لذة تتحرك بين الصلب والترائب، وارتفع الصوت مدمدماً ثانية.

ـ سقطت عاصمة الفقراء.

أسمعتم عرب الصمت؟

أسمعتم عرب اللعنة؟

لقد وصل الحقد إلى الأرحام.

أصبحت نظرته غائمة الآن، وهو ينظر إلى الأشباح يلعقون كؤوسهم في التذاذ.

ـ قالوا شارك في الحل السلمي قليلاً، أبناء القحبة كيف قليلاً؟ نصف لواط يعني؟

انفجر نبيل في ضحك هستيري تابعه الجميع.

ـ هه، هه، ظريفة.

ـ رائع.

ـ يعرف أين يقول كلمته.

وعلا صوته فجأة عالياً صارخاً في غيظ وتحد وإثارة.

ـ ماذا ثمن الطفل الواحد؟

ماذا ثمن الغمازة؟

ماذا ثمن العينين الضاحكتين؟

انتبه خليل إلى إلهام فجأة، كان وجهها يعتصر، أخذت ترتجف قليلاً في مجلسها وعلا الصوت ثانية.

ـ ماذا ثمن الشفتين مناغاة وحليباً؟

انفجرت فجأة تبكي في حرقة مجروحة، نظر إليها نبيل نظرة لائمة، وقلب الكأس في فمه، لم يعد يضحك الآن، أسرعت نوال وسليمة إليها يسريان عنها.

ـ إلهام، إلهام، يكفي، من شان الله، ما سبب البكاء الآن؟ آه، إنه مجرد شعر، يكفي، يكفي.

لم تستطع السيطرة على نفسها فقد اعتصرها فجأة حزن رهيب، بكاء حاد، والتفتت إليها نبيل.

ـ إلهام، إلهام، يكفي، يكفي، لا تفسدي سهرتنا.

قامت من مجلسها.

ـ لا تؤاخذوني، عن إذنكم.

مضت إلى الحمام تغسل وجهها، وبعد قليل هبّت على الغرفة نسمة باردة، وقال سليمان.

ـ يبدو أنها خرجت إلى التراس.

ـ أبناء القحبة، أبناء الكلب هنا، أعني بالضبط هنا.

قال عبد الغني في ضيق.

ـ أوقف هذه المسجلة، يكفي، ما الذي يعجبكم في هذا الصراخ؟

نظر الجميع إليه في استغراب، لقد أصبح يتكلم الآن، وقال خليل في نفسه — لا ليس هذا ما اتفقنا عليه يا عبود، لم يؤت بك لتعبر عن رأيك إنك لتسمع فقط — لم يهتموا بكلامه فتابع صارخاً:

ـ أوقفوا هذا اللعين، لم أعد أحتمل.

ضغط زر المسجلة فأوقف الشريط، وازدادت الدهشة في عيونهم ولكن صوت إلهام الناشج جذب انتباههم، أسرع سليمان يتبعه سعيد إليها، كانت مستندة إلى سور التراس وهي تبكي وتبكي.

ـ آه، يكفي، يكفي، أرجوك ما الذي يضايقك؟

جاء نبيل... كانت قصيدة النواب قد هزتهم جميعاً حتى نبيل فارقه ضحكه.

ـ أتحبين أن نذهب إلى البيت؟

ـ نعم، نعم — قالتها والنشيج يعتصرها.

ـ حسن....

لم يستطع إتمام جملته، فقد شق الفضاء دوي رهيب سرعان ما انطلقت شهب تلاحقه وزعيق هز أركان البناء.

ـ ما هذا؟

خرج الجميع ليروا ما يجري حتى إلهام توقفت عن بكائها.

ـ ما هذا؟ ما هذا؟ ما الذي يجري؟

واتضح على صفحة السماء الصافية بضع طائرات تشق الفضاء، وأخذت الصواريخ تلاحقها قنابل مضيئة، وقنابل متفجرة، وأخذت الطائرات تناور.

ـ غارة، غارة — كان هذا سليمان.

ـ أولاد الكلب، ولكن لماذا؟ صرخ عبود.

اشتعلت السماء بقعة نارية رائعة، وشاهدوا جميعاً واحدة من الطائرات تنهار في سرعة غريبة، وعلى ضوء القنبلة المضيئة شاهدوا مظلتين تنفرجان، وكتلاً تتدلى مقلوبة منها.

ـ أصابوها، أصابوها، أسقطوها، رائع، أعطوهم... أولاد الكلب.

انفجرت واحدة أخرى، ورأوها تتجه غرباً ولسان نار يلاحقها من الخلف.

ـ هل ستنجو؟ سأل سعيد.

ـ لا أعتقد، لقد احترقت، أجاب سليمان.

وفجأة ودون سابق إنذار، كان خليل أول من رآه، ولكنه لم يستطع شيئاً، لم يستطع حتى أن ينذر به، إذ رأى وليس واثقاً إن كان قد رأى، أم تخيل فقط شيئاً، ناراً، وحشاً؟ لا يدري، وانفجرت الدنيا من حولهم، تساقطت الأشياء، تدهورت ارتفعت كتل في الفضاء، ثم سقطت، أظلمت الدنيا، وارتفعت صرخات مختلفات لنسوة ورجال، صرخات مذعورة مرعوبة منفعلة خائفة متهيّجة باكية.

ثم ساد السكون إلا من أنين خافت من إحدى الزوايا، وعلا صوت سليمان:

ـ هوه، أين أنتم؟

سمع خليل صوت نفض ثياب.

ـ هل جرح أحد منكم؟... أجيبوني، أرجوكم، كان خطأ منذ البداية، كانت وقفتنا كلها خاطئة، أكلكم سليم؟

ـ نعم، نعم.

جاءت الهمهمات من كل جانب.

ـ تفقدوا أنفسكم، أرجوكم.

تحركوا من أماكنهم، وقام كلٌ من مكانه ينفض ثيابه ويتحسس جسده.

ـ خليل، أين أنت؟

ـ أنا هنا، جاء صوت خليل غليظاً هادئاً دون تعبير.

ـ وسعيد؟

ـ أنا هنا.

ـ نبيل وإلهام.

ـ نحن هنا لا بأس.

ـ نوال، أين أنت، أرجوك.

ـ أنا هنا، لا تخف.

تقدم عبود من مكانه.

ـ يعني لم تسأل عني.

ـ آه، هل أنت سليم؟

ـ نعم سليم.

ـ من بقي.

ـ أنا، قال دياب من آخر التراس.

ـ الحمد لله، لم يجرح أحد منكم... ولم يجب أحد.

ـ تعالوا ننزل إلى الملجأ، أصبح مكوثنا هنا خطراً.

ـ صحيح، كان وجودنا هنا منذ سماعنا صوت الطائرة خطراً، دعونا ننزل إلى الملجأ، ألديك بطارية؟

أسرع سليمان إلى غرفة مكتبه، وجاء ببطارية، أشعلها، أجالها في المكان، كان التراس الحلو والذي تعب سليمان وهند كثيراً في إنشائه وتجميله قد تحول إلى ركام من كتل الإسمنت والأغصان المزقة والوحل المنتشر في كل مكان، كانت أغصان الياسمين والخميسة والقنديل والساعة وكل تلك النبتات التي طالما رعاها سليمان وهند ورقة ورقة وشبراً شبراً قد استلقت على الأرض كأسلاك هاتف في ساحة معركة... أصص الصبار والزنابق انتثرت محطمة في هيئة تمزق القلب، قطع فخار متشظية، وكتل تراب ومزق نباتات.

واتجهت البطارية إلى الوسط، البحرة، البحرة ذات النافورة الدقيقة والتي طالما أسكره هسيسها قد تحطمت إلى قطع من البورسلين والموزاييك أما النافورة فقد ارتمت على الأرض تنزف في هدوء.

كان انتقال البطارية المستكشف قصيدة رثاء حزينة تنتقل في المكان مصورة هول الصدمة التي حطمت أحلى ما أحبوا.

صمتوا جميعاً واجمين، فما كان ممكناً التعليق بأي شيء، الدمار الدمار.

نظر خليل من السور إلى المدينة، الأنوار المطفأة والأشباح الضوئية الزرقاء تضيء حيناً ثم تختفي، كتل سوداء ضخمة امتدت إلى السماء لا أثر، لا حياة، هدوء مقيت، هدوء مشؤوم، لقد انتهت الغارة، قال سليمان في صوت جاف.

- لننزل إلى الملجأ.

اتجهوا جميعاً إلى باب التراس وراء بطاريته واجمين صامتين كمن يمشي في جنازة.

كان الباب الحديدي قد انثنى قليلاً إلى الداخل، أما السقف البيتوني الذي كان يغطيه فقد انهار إلى الأرض... شد الباب، ولم ينفتح، حاول، ولم يكن ذلك ممكناً فقد تكوم الركام يسد الباب، ولا بد من إزاحته.

ـ دعوا هذا الباب، سنخرج من باب الشقة – قال عبود

تخلى سليمان عن الباب، واتجه إلى داخل الشقة حيث لحق به الجميع.

ـ أية لعنة وأي حظ – قال نبيل – قلت لك دعينا نسهر عند أهلي ولكنك رفضت.

ـ اسكت، اسكت، ألن تسكت قليلاً؟ قالت إلهام في اندفاع كانت رائحة الغبار الخانقة مختلطة مع رائحة الوسكي، جرب خليل مفاتيح النور، كانت الكهرباء معطلة في الشقة كلها، اتجهت البطارية إلى الطاولة، زجاجة الوسكي مقلوبة، والكؤوس قد انسكب ما فيها فاختلطت رائحة الوسكي بالغبار ورائحة البارود، سبق سعيد الجميع إلى الباب، وجرَّب فتحه، ولكن صرخة شتيمة اندفعت منه.

ـ اللعنة.

أسرع إليه سليمان وخليل.

ـ ماذا؟ ماذا؟

ـ إنه مغلق أيضاً!

ـ كيف؟ قال سليمان واندفع إلى الباب يجرب فتحه.

ـ مستحيل، ولكن كيف؟

ـ كيف؟ كيف؟ ـ ارتفعت أصوات النساء – ما الذي أغلقه أيضاً؟

ـ لا أدري.

اشتعلت أكثر من ولاعة تفحص المكان، وفجأة أشار خليل إلى شيء معدني يلتمع، وجه سليمان بطاريته إليه، كان نصل حديدي ضخم قد اخترق الباب فثبته، أمسك سليمان النصل يحاول دفعه أو تخليص الباب منه، ولكن ذلك كان مستحيلاً، جرب خليل وسعيد ودياب... جرب الجميع، ولكنهم لم يستطيعوا تحريكه، وأخذ نور البطارية يضعف.

- اللعنة، إن ضوءها يضعف.

- طيب، ما العمل؟

- لا أدري - قال سليمان - دعونا نسترح قليلاً، ثم نفكر فيما نصنع.

- لم لا تطلبون النجدة في الهاتف، إنهم لن يتركونا هكذا كفئران في مصيدة.

- آه صحيح، كيف فاتتنا هذه؟

اندفعوا جميعاً إلى الصالون، وكان أولهم نبيل، رفع السماعة ولم يلبث أن أطلق شتيمة قذرة.

- ماذا؟ لم لا تطلب النجدة؟ وكان صوت سليمة وكانت لا تزال في الممر.

- لقد قطع خط الهاتف أيضاً.

- ما معنى هذا؟ هه ما معناه؟ هل أصبحنا سجناء هنا؟ يجب أن تصنعوا شيئاً، اصنعوا شيئاً.

- نعم، يجب أن تصنعوا شيئاً، قال عبود في صوت باك.

- اسمعوا يا جماعة، هذه العصبية والاندفاع لن يفيدانا في شيء، من الواضح أن شيئاً قد دمر في المبنى، وأننا لن نستطيع الخروج من الباب حالياً، خاصة والظلام مسيطر، لننتظر حتى الصباح، وعلى ضوء الصباح سنجد لنا مخرجاً.

أصغى الجميع إلى صوت خليل الهادئ، وقالت نوال:

- كلام خليل معقول، وسأرتاح أنا على هذا الديوان.

سمع خليل أنين رفاسات الكنبات، وهم يجلسون عليها، وسمع صوت حركة بعض المقاعد.

- اسمعوا - قال سعيد - هذا الصمت الجنائزي لن يفيدنا في شيء.

لنتابع سهرتنا، وكأن شيئاً لم يكن، وحتى الصباح سيكون هناك ألف حل.

ـ نتابع سهرتنا — قال عبود — أي جنون!

ـ لا جنون ولا يحزنون، إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت عطشان، أين الوسكي يا سليمان؟

ـ لست في حالة تمكنني من خدمتكم، ليقم أحدكم بالخدمة.

ـ أنا سأقوم بخدمتكم — قالت نوال — أين البطارية؟

ـ شحنتها تكاد تنتهي.

ـ لا، إلا هذا، أليس لديك احتياط؟

ـ أبداً.

ـ أليس في مسجلتك بطاريات؟

ـ آه صحيح.

اندفعت يد تمسك بالمسجلة في الظلام، وأخذت تعبث بها.

ـ أين البطارية؟ قال دياب، كان هو الذي استخرج البطاريات.

ـ ها هي — قال سليمان.

سمع صوت اصطدام معدني، ثم اندفع ضوء أبيض حاد شق الظلام، وظهرت نوال في بؤرته فراشة خضراء ضخمة اسودّ وجهها قليلاً، وتمزق ثوبها عند الخصر.

ـ آه، قالت — لقد أصبح منظري كئيباً.

ـ لسنا في حالٍ أفضل منك.

أخذت المصباح من دياب، واتجهت إلى المطبخ، ثم سمع صوت فتح البراد والصحون تسحب من رفها.

ـ آه صحيح — قال سليمان.

- ماذا؟

- لقد جعتم، أليس كذلك؟

- لقد نسينا هذه.

قام سليمان ثم سمعوا قرقعة الصحون والكؤوس.

كان خليل مستنداً إلى ظهر مقعده يدخن غليونه في هدوء، ودخلت نوال تحمل صينية عليها الكؤوس والزجاجات بينما تابعها سليمان يحمل صينية أطباق بين يديه والبطارية تحت إبطه ينير له ولها الطريق، كان الضوء قوياً فتخلل ثوبها الشاف، وبدا لخليل جسمها الفتي يتفزز من تحت الثوب الذي شبكت مزقته عند الخصر بدبوس.

وضعت الصينية على الطاولة ثم أفرغتها، ووضع سليمان صينيته أيضاً، عادت نوال إلى المطبخ بعد أن أخذت معها بطاريتها، ثم رجعت بعد قليل تحمل شوكاً وسكاكين وملاعق وخبزاً ومملحة، ثم نصبت المصباح عمودياً فأنارت السقف الذي عكس الضوء على الحاضرين، فبدوا أشباحاً ضخمة انتشرت ظلالها على جدران وخلفية الغرفة، مردة كبيرة تتحرك في عذاب.

- لا. هذا يكفي — قال دياب — أليس لديك شموع؟

- شموع؟ أبداً.

أمسك سعيد البطارية وأخذ يجيلها في المكان.

- ولكن هذه.. أليست شموعاً؟

- لا يا سعيد، أرجوك، هذه ليست شموعاً، إن ثمن الواحدة منها خمسون دولاراً.

- يا سيدي، لن نستهلكها كلها، سنشعلها الليلة فقط.

- هذه تماثيل يا سعيد وهي للزينة.

- سليمان، هل ستصبح بخيلاً اليوم؟ قالت نوال.

أنزلت واحداً من التماثيل الشمعية وكان بطول نصف متر وقد حفر عليه حفراً نافراً قصة اختطاف باريس لهيلين، كان تمثالاً جميلاً وكان سليمان يعتز به كثيراً.

أشعلت نوال الشمعة، ارتعشت ببطء في البدء، ثم استقام الفتيل فنشر ضوءاً أصفر جميلاً، وبدا جسم هيلين الرشيق بتثنياته المذهلة رائعاً، والضوء يتخلله درجة فدرجة حتى شف التمثال الشمعي بأكمله إذ كانت النار قد احتفرت لنفسها حفرة حول الفتيل وظل التمثال قائماً جميلاً، باريس... يمد يده الرجلية القاسية وهيلين بيدها اللينة الناعمة الرخوة كمويجة تمد يدها إليه، والأمواج تتثنى في دعة واستكانة تراقب هذا المنظر الذي سوف يتكرر يوماً بعد يوم وإلى انتهاء الإنسانية، وكان بوزيدون يقف في الطرف الآخر من الشمعة أشعث الشعر طويله، ولحيته الغليظة تحيط بوجهه في جلال، وكانت الوردة ملتفة الأكمام ذابلة بينما أخذت المويجات تداعب فخذيه، وهو يراقب ما يجري في افتتان.

تناول دياب الزجاجة وملأ منها الكؤوس.

ـ أليس من ثلج؟

نظر سليمان إلى السطل، كان فيه بعض كريات صغيرة من الثلج حملها برأس الملقط، ووزعها على الكؤوس.

ـ سألقي نظرة على البراد، لعل فيه ثلجاً – قالت نوال.

أخذت البطارية ومضت، انعكس ضوء الشمعة على مؤخرتها فبدا الجسم يموج بين الثوب وبين النور، نظر فجأة إلى سعيد وقد استرخى في جلسته ينظر إلى ما يجري أمامه في سكون، فبدا بشعره الرمادي ووجهه الأحمر جميلاً، وكان قد أطال شعره الرمادي الذي شاب قبل أوانه بكثير، فبدا جليل الجمال، وكان شارباه الغليظان قد انثنيا على شفته العليا كواحد من فلاسفة القرن التاسع عشر.

أمسك خليل كأسه، وجرع منها جرعة، كانت حادة الطعم، ولم يكن يحب الوسكي دون ثلج.

- لقد وجدت لكم قالب ثلج، ليس هذا فحسب، بل خطرت لي فكرة الاستفادة من ثلج الفريزر، سليمان إن برادك عتيق جداً.

- صحيح، إنه لا يذيب الثلج آلياً.

- هذا من حسن الحظ الآن.

كان على الأطباق زوج من الفراريج مزقت ليسهل تناولها وزوج من الفراريج البروستد، وبعض الكبة المقلية وصحون كرتونية فيها حمص ومتبل ومخلل، أصبحت المائدة عامرة فعلاً.

أحسوا فجأة بالجوع، فأخذوا في تناول طعامهم بالتدريج، وكان أولهم نبيل.

- من يستطيع أن يقول أنا لسنا في سهرة رومانتيكية — قالت نوال.

- من يجرؤ على أن يقول إنَّ دماراً جرى خارج هذه الغرفة وأن غارة تمت ضد البلد؟ قال سليمان.

- هذه الحوريات وهؤلاء الحوريون — وانطلقت ضحكة نبيل المجلجلة.

- الحوريون؟ من حسن حظنا ألا مرايا معنا — قال دياب.

أمسك خليل بصدر فروج، وأخذ في مضغه بينما كان يرشف من كأسه من آن لآخر.

- كأنها واحدة من ليالي الحرب العالمية الثانية.

- أو كأنه كابوس ضاحك!

- لا بأس بالوسكي دافئاً بعض الشيء.

- وهذا النور الذي يضيء من ساقي هيلين.

- كيف سنقضي هذه الليلة — قاطعت إلهام فجأة.

- هل أنت نعسانة؟

ـ لا، ولكن كيف سنقضيها؟

ـ لا تهتمي، اشربي الآن.

ران عليهم صمت غريب وهم يأكلون، فلم يأكلوا إلا أقل الطعام بينما أخذ الوسكي يدور بهم.

ـ سألقي نظرة على المدينة — قال خليل.

إتجه إلى باب التراس فملأً شبحه الباب بطوله الفارع، وقال لنفسه ساخراً: من حسن حظي أني لا ألبس ثياباً شافة، وإلا لبدا جسمي غريباً والنور مسلَّط علي.

المدينة كتلة سواد خانق، أضواء زرقاء، بطاريات تشتعل من لحظة لأخرى، طلقات رصاص بعيدة، رشاشات، وميزت أذنه طلقات هاون بعيدة.

ـ اللعنة، هل وصلوا إلى هنا؟

كان في النسيم بعض البرودة التي انعشته قليلاً، وتذكر جسم نوال المتماوج تحت الثوب الفراشة الأخضر.

تطاول برقبته قليلاً ينظر إلى البناية أسفل منه، لم يكن يبدو منها شيء إذ أن التراس كان قد بني بشكل أوسع قليلاً من البناية ليبدو كالقبعة تغطي البناية.

ـ تجربة غريبة، أليس كذلك؟ ـ قال سليمة.

ـ أيكفي أن تقولي غريبة؟

ـ أعتقد أنها لن تكون الأولى.

ـ ماذا تعني؟ هه ماذا تعني أنها لن تكون الأولى؟ قالت إلهام.

ـ أعني إنا سنرى ليالي كثيرة مشابهة إذا مرَّت هذه بسهولة.

ـ إذا فاتت؟ قال نبيل محاولاً الضحك.

ـ أحس بالليل يثقل على صدري — قالت إلهام.

ـ هذا ليل عربي — قال دياب.

ـ كأنها ليلة مخاض لحامل أثقلها حملها — قالت نوال.

ـ اسمعوا، لن نقضي الليلة في تبادل التعابير الطريفة — قال عبود.

ـ هص — قال دياب — لا تتفاصح.

ـ كيف لا أتفاصح؟ تكفينا عزلتنا، وانقطاع الكهرباء والهاتف، أحس كأن الزمن قد عاد بي ألف سنة إلى الوراء.

ـ إن كان قد تخطاها أساساً — قال سليمان.

ـ اسمعوا، لم لا يقص علينا كل منكم قصة ما نقطع بها الوقت.

ـ والله فكرة، ولم لا تبدأ أنت فتقص علينا كيف جمعت ثروتك؟ ـ قال نبيل.

ـ أعوذ بالله، هل بدأ الحسد؟

ـ نريد قصة مفرحة مسلية، ما لنا وللميلودراما؟ قال سليمان.

ـ قصة حب، ما رأيكم؟ قالت سليمة.

ـ أيوه يا ستي، عظيم، من سيبدأ؟

صمت الجميع

ـ هه، ألن يتقدم أحد؟ قال دياب.

بدا تردد الجميع واضحاً، كانوا يريدون الحديث ويريدون الإفاضة ولكن أياً منهم لم يرغب في أن يكون أول من يتكلم.

ـ سأحدثكم أنا — قال سليمان — أعرف صديقاً موظفاً كبيراً، ابتلي بالكتابة أحياناً، مثقفاً؟ إلى حد ما، كانت حياته متعة، تسلية، زوجة وبيت وكتاب ومسرح وسينما وكأس وأصدقاء إلى أن دخلت حياته فجأة موظفة جميلة، انتقلت إلى مكتبه بريئة عذبة بسيطة متمردة تهوى الحياة

تهوى الكلمة، ولست أدري ما الذي شده إليها، فقد أحس فجأة أن في ليونة حركتها، في طراوتها، في لون بشرتها، في عينيها، أحس عالماً جديداً تستطيع أصابعه القبض عليه قبل أن يفر منه، عالم صبا وحضور جديد، ولكنه رغم التجارب، ورغم السنين كان يخجل منها، يستحيي، لا يعرف كيف يقول لها: في عينيك أسرت النجوم، لا يعرف كيف يقول لها: في شعرك اختبأ الليل.

- على ألا يكون كليلنا هذا — قال نبيل ضاحكاً، ولكن أحداً لم ينشدّ إلى ضحكته.

- ودارت الأيام إلى أن وجدها يوماً تتابع نقاشاً يجري بينه وبين أحد الأصدقاء، وكان النقاش عن الإصلاح الزراعي، وكان صاحبنا لا يحب الإصلاح الزراعي.

- ضد الإصلاح الزراعي؟ لماذا؟ صرخ نبيل مستغرباً.

- كان رأي صاحبنا أن الإصلاح الزراعي لم يحقق شيئاً لأنه ما زاد على أن نقل الملكية من أشخاص إلى أشخاص، وأنه فتت الملكية الكبيرة فقضى على قدرتها الإنتاجية، ولم يدرب الفلاحين على الانتقال من طور الأجراء إلى طور التعاون، فعاد المالك القديم ثانية في ثوب ممول وصاحب آليات زراعية.

- ما يهمنا من تفاصيل هذا النقاش الآن؟ قال عبود.

- ليس مهماً في حد ذاته، ولكنه علق في ذاكرته حيث انطلقت منه العلاقة الجديدة بين الشخصين إذ اندفعت تؤيده مبدية إعجابها بطريقة النقاش، فلما انصرف الضيف واختليا.

- ايوه، ايوه، اختليا.. حدِّث، حدِّث يا محترم.

- نبيل... الحديث ذو شجون، والليلة قد سكنت، وأثقلت على صدورنا، ولا أحس في النفس ميلاً إلى المزاح.

- هيه الحديث يشقُّ القلب ليخرج إلى اللسان، إنك عاشق يا صديقي — همس خليل لنفسه.

أمسكت نوال بكأسها فقلبته كاملاً، ثم أعادت ملأه بينما كانت إلهام تصغي مفتوحة العينين تماماً، واسترخت سليمة في مجلسها تتسلى بأكل البذر والفستق في كسل مصطنع.

- هه، وبعد؟

- قالت: أستاذ، رائع عجيب، لم أسمع في حياتي نقاشاً كهذا.

- لا تبالغ، المرأة لا تبالغ في المجاملة إلى هذه الدرجة.

- ولكنها بالغت هذه المرة، وتطاول الحديث بينهما، كان فيها نهم عجيب للمعرفة، للقراءة، للموسيقى، للمسرح، لكل شيء، كانت كمن فاتها شيء كثير وتريد اللحاق به، ولكنها كانت تخبط خبط عشواء، تصيب حيناً، وتخطئ أحياناً، فطلبت منه أن يكون الدليل، وكانه، ولكن، كيف يمكنك أن تجمع ناراً لاهبة تتقد لنفخة هواء مع أغصان خضر دون أن تلتهب النار وتحرق العين بدخانها، واحترقت العيون، وأحس الجميع، ولم يباليا... ساحا في العالم، زارا باريس، تسكعا في الكارتيير لاتان، ناما على أبواب اللوفر، قبّلها في غابة بولونيا، تسابقا في الركض على ضفاف السين، ذهبا إلى لندن، إلى موسكو، ملآ عدداً من الألبومات بالصور.. عاشا ذكريات حلوة، نسيا فيها حياته وحياتها السابقة، نسيا فيها الارتباطات الأخرى، أكلا البط المحشو في مكسيم، وشربا العرق في بلودان، أكلا الهامبورغر في سوهو، وشربا المريسة في الخرطوم، ولكن... يبدو أن لكل شيء نهاية.

أخذ صوته بالذبول، وبدا لخليل غريباً أن يرى سليمان، وصوته يشيخ ويدب إليه الشيب فجأة، وأكمل.

- أخذت اللقاءات تفتر، وأخذت الروح القديمة الحلوة المتهيجة تسكن، وأخذ يحاول بعث الروح فيها، ولكن يبدو أن الأمر ليس بهذه السهولة.

أمسك كأسه فجرع منها جرعة كبيرة، ثم قضم قضمة لحم، وقال:

- قصة حزينة، أليس كذلك؟

ـ أغلب قصص الحب حزينة، فالقصص المفرحة لا يتحدث عنها أحد.

رشفت نوال رشفة كبيرة علا صوتها، ثم وضعت الكأس من يدها.

ـ الحب؟ أعقد العلاقات وأبسطها – قالت سليمة.

ـ الحب؟ قناع تختبئ وراءه مختلف الرغبات والطموحات البشرية – قال دياب.

ـ الطموحات تختبئ وراء الحب؟

ـ أتستمعون إلى قصيدة؟

ـ لا، لا، أرجوك، لا نريد شعراً، حدثنا عن الحب.

ـ الحب، هذا القناع الجميل السمين البريء كم يخفي تحته من تجار وسماسرة ومغامرين!

أفرغ كأسه في حلقه، وأخذ يصبُّ لنفسه كأساً أخرى تشاغل في إضافة الثلج إليها بينما كان الجميع ينتظرون.

ـ أعرف صديقاً كان يعيش حياته بهدوء، لا يخالط الناس كثيراً، يرجع من عمله إلى البيت ككل مواطن نظامي مهذب، يكتب الشعر من آن لآخر، لا لرغبة منه في شهرة أو مكسب ولكنه يكتب ليمتع نفسه، لذة الحياة لديه كأس وكتاب، قد تقولون: امرأة، ولكن المرأة دخلت حياته متأخرة نسبياً، فما كان الجريء، وما كان القادر، وما كان المهاجم.

ـ دعنا من ثرثرتك الآن، وحدثنا عن المرأة – قال نبيل.

نظرت إلهام إلى نبيل طويلاً، ولاحظ خليل كلاماً على شفتيها ابتلعته بجرعة من كأسها.

ـ كانت سهرة من السهرات التي يجتمع فيها برفاقه يتسلّون بشرب بعض الكؤوس والثرثرة – ثرثرة عن الأدب، ثرثرة عن الأحلام – حين دخلت أخت صاحب البيت ممشوقة سمراء نحيلة، عينان سوداوان وما

أقل العيون السود في بلادنا، هل لاحظتم أن لا عيون سوداً في بلادنا ولا شعر أسود، يتحدثون عن هذا في الأغاني وفي الشعر اليومي، ولكننا شعب هجين، لا شقرة تميزنا ولا سمرة، بل هو شيء بين بين، شعر خرنوبي وعيون بنية وتتمايز الدرجات، ولكن ما أندر الشعر الأسود والعيون السود، وكان شعرها طويلاً أملس دون أية تجعيدة، أسود حتى الفحمة، انتثر على الكتفين في لا مبالاة مدروسة، جلست إلى مقعد مجاور، واستغرب صديقي في البدء، ولكن لا مبالاة أخيها جعلته يأخذ الأمر ببساطة، لم تشرب معنا، واكتفت بسيكارة، تحفَّظ الحديث، ولكن أخاها حاول وأصر حتى أعادهم إلى جوهم الطبيعي والتفتت إليه فجأة وقالت:

- أسمعنا شيئاً من شعرك.

- شعري؟ وهل سمعت عنه؟

- سمعت من أخي الكثير وأحب لو أسمع منك شيئاً.

كانت الموافقة في عيون الجميع، وكان يحمل بعضاً من قصائده في جيب جاكيته فأنشد وقال، أسمع وأمتع، ثم ترك الورق وأخذ يرتجل، كانت تلك المرة الأولى التي يرتجل فيها شعراً، ولكن ستة كؤوس من العرق وعلبتين من السكائر كافية لفك أربطة العقل عن اللسان، عيون سود واسعة، ليل مقتطف من ليالي العشق، شعر طويل كحلم أرق ما أشد ما يشتهي النوم، وما أبعد النوم عنه، تمنى لمس الشعر، مداعبته، تقبيل العينين، عض الشفة، وقال وقال وقال، وأوصله الأصدقاء إلى منزله لا يقوى على الوقوف على القدمين، ولا يقوى على النوم يهرب إليه.

في اليوم التالي تذكر أنه استعار من صديقه عدداً من الكتب!!، فحملها ليردها إليه ولكنه قرب البيت تذكر أن صديقه لا يكون في البيت في مثل هذا الوقت فتردد، دار حول البناية عدة دورات، ذرع الشارع عدة مرات، اشترى من الدكان المواجه ثلاث علب من السكائر وعلبتي لبان، وتكلم في الهاتف مع خطوط مشغولة أربع مرات، ولكن أحداً لم يبد، وأخيراً اهتدى إلى مقهى صغير عند نهاية الشارع انتقى فيه مقعداً متطرفاً وشرب قهوة،

وجلس يراقب نهاية الشارع الأخرى، قلّب الكتب بين يديه عشرات المرات، وأخيراً رأى صديقه عائداً إلى البيت، لحق به، اندهش الصديق لرؤيته في حيّهم في مثل هذا الوقت، أعطاه الكتب فازداد استغراب الصديق، إذ لم يمض على استعارتها الوقت الكافي لقراءتها، وصلا إلى باب البيت، دعاه إلى الصعود فاعتذر، ألحّ، فخجل، ولكنه مضى، وحين اجتاز نصف الشارع استدار ينظر إلى شرفة المنزل فرآها، كانت تقف في الشرفة وقميص أبيض يفضح سمرتها، ونسيم يداعب شعرها فيطير حول وجهها هالة سوداء سحرية، وقف طويلاً ينظر إليها وتنظر إليه، لم يدر كم وقف، ساعة؟ يوماً؟ شهراً؟ سنة؟ وازداد ارتباكه، كيف يتصرف؟ أيحييها؟ أيمضي؟ أيظل واقفاً؟ ومرت سيارة مسرعة إلى جواره كادت تلامسه، أرجعته إلى الوراء، وحين أعاد النظر كانت قد اختفت، ولم يعد متأكداً، أكانت واقفة طيلة هذه المدة أم هو الوهم؟ هل وقفت في الشرفة أصلاً، أم أنه الخيال المتمني؟ وعاد إلى البيت وحين وصل كان قد أنهى قصيدته العشقية الأولى فيها، ولم يجرؤ على قراءتها لأحد، وازداد همه، شعر دون سامعين. قصيدة تكتب دون أن يسمع من يقول له يا سلام! ولم يدر كيف ذهب إلى صحيفة يعمل فيها أحد أصدقائه فيقرئه القصيدة، وكان إعجاب الصديق الصحفي كبيراً حتى أنه نشرها في العدد التالي، وحين قرأها في الصحيفة ذعر، كانت صريحة، نداءً حقيقياً، شهوة مكشوفة، جرأة لم يعتدها في نفسه، وتمنى لو لم ينشرها فيفقد صداقة الصديق.

مر يوم النشر بسلام، وفي اليوم التالي رنّ جرس الهاتف لديه، وكان الصوت الحبيب.

ـ أتحمل كل هذه العواطف؟

ـ وأكثر.

ـ كل هذا وراء هذا القناع المتبارد؟

ـ وأكثر.

ـ لَم لم تزرنا؟

ـ أخاف.

ـ مم؟

ـ من الخيبة.

ـ لست صادق العواطف إذاً.

ـ لا تكفري.

ـ هل ستزورنا؟

ـ لا أريد إحراج أخيك.

ـ أنلتقي خارجاً؟

ـ أتمنى.

وكان اللقاء في إحدى الضواحي، حمامتان مهتاجتان، عصفوران ربيعيان. فراشتان نيسانيتان، تحدثت وتحدث، قالت وقال، وأخيراً قبَّلت وقبَّل، كانت روائح الأعشاب البرية من حولهما مسكرة، والقهوة غريبة الطعم، وأوراق الصفصاف مجموعة غناء تعزف وتحف، ترفرف وتغني، وكان شحرور بعيد بعيد يختفي وراء شجيرات عليق يغني أغنية طويلة متحدية حلوة وسألته.

ـ أصحيح أنه حين يغني ينادي أنثاه.

ـ لتخلد تلك الأنثى التي يسكب في محرابها كل هذا البخور.

وراقبا العليقة هنيهة ورأياه يطير فجأة كتلة سوداء لامعة ومنقاراً أحمر ما لبث أن لحقه آخر.

ـ ليتني شحرورة!

ـ وكنت شحروراً!

واتفقا على الزواج، وكما يجري في القصص وفي الأحلام سرعان ما

تزوجا، وما أسرع ما انقضت أيام العسل، حلوة أيام العسل كانت، حلوة كأحلى ما تكون الحلاوة.

توقف هنيهة، أشعل سيكارة، وجرع جرعة من كأسه، ورنا ببصره إلى سليمة، كان لون الوجوه أصفر بتأثير هيلين الشمعة، وكانت تتسلى بأكل البذر، ولكن غموضاً غريباً بدا على وجهها، أهو الظلام والنور المنكسر، أم هو الوهم؟

وآن أوان الاكتشاف، امرأة قوية العزيمة كانت، امرأة ذات مطامح، ولم تكن ترغب في رجل عادي، وقد أعلنت ذلك له.

ـ الرجل عندي إله صغير، أكره الرجل النكرة، أحتقر الرجل الضعيف أريدك أن تكون الأول، اخرج إلى الناس، اكتب، أريد أن أفخر بك، أريد أن يقال زوجة فلان الشاعر.

وأطاعها، كتب فوجد مستمعين، أنشد فلقي الصاغين، وكان كلما صعد درجة وجدها من ورائه تدفعه، ولكن وا أسفاه فمن ينزل البحر لا يمكنه التحكم في كمية البلل الذي سيصيبه، أخطأ فنزل إلى الناس، غلط فخاطبهم وأجابوه، أعطاهم فوهبوه، ولم يعد ممكناً الرجوع، طالبوه، فاستجاب وقال، سألوه فأجاب وهدر وكانت خطيئته.

قالت له: أنا لم أردك أن تلوث يديك، أردتك أن تصعد، تصعد إلى النجوم فتضيء كضيائها، لا أن تنزل إلى التراب فتلوث يديك وتلوثني، كفَّ عن هذه الكتابة ولم يكن ممكناً، فلقد غدا متورطاً ولم يعد الانسحاب بالإمكان، والتهبت القلوب تتابعه، أصبح ريشة تحملها الأمواج الهادرة يغني، ولكن ليس أكثر من صدى لها، وكلّما وجدت الأمواج أن الصدى يحمل رنينها التصقت به وقالت له: هذا مستحيل، أنت تجعل العلاقة عسيرة بيننا، توقف قليلاً، خذ إجازة. أرح نفسك قليلاً، ولكن نيران الجحيم كانت حارقة، فلم يكن من الممكن الاختباء منها في غرفة مكيفة، ولم يكن ممكناً إلا أن يقع ما وقع، ولم يعد الأقوياء يحتملونه، و.......
قبضوا عليه، وفي السجن بحث عن الكتف الحانية يستند إليها، بحث عن

الكتف الرقيقة تمسح على جراحه، بحث عن العين الرؤوفة تبكي آلامه، وجاءته منها رسالة تنذره فيها بالقطيعة فلقد أهانها.

- أهانها؟ كيف؟ سأل سليمان.

- أهانها في أنه سجن، فما كانت لتقبل أن تكون زوجة لسجين.

- ولكنه سجين لأسباب سياسية.

- وهذا ما زاد في حنقها، إذ أن معنى ذلك أنه سجن مجاني.

أبلغته طلبها الطلاق، ورجته ألا يقف في طريقها، وسرعان ما استجيب طلبها دون تدخل منه، فما إن تقدمت بطلب الطلاق حتى استجيب، واتخذ هذا وسيلة إضافية للضغط عليه، ولكنه دفن رأسه بين كتفيه كسلحفاة تحتمي بدرعها، ودارت الأيام، وتغيَّر الكبار، وخرج من السجن ولكنه أبداً لم يحاول لقاءها، فلقد تخلت عنه.

- نموذج غريب، قالت نوال.

- ولكنه ليس نادراً – قالت إلهام.

- أظن الثلج قد نفد – قال سليمان وهو يفتش بملقطه في السطل، سأجلب بعضاً من الفريزر. موافقون؟ لا يقل أحدكم إنه غير نظيف.

- موافقون، موافقون، وسكي دون ثلج امرأة دون عطر – قال نبيل.

وضحك الرجال، ونظرت إليه إلهام في هدوء ساخر، قام سليمان إلى المطبخ وبطاريته في يده، شاهدوا انعكاس ضوئها من الزجاج الفاصل بين المطبخ وغرفتهم، سمعوا صوت تحطيم الثلج، نظر كل منهم إلى الآخر، من عليه الدور الآن في الحديث، أصبحوا جواسيس على بعضهم ينتظرون الإشارة والحركة الدالة، تشاغل كلٌ منهم بكأسه وسيكارته، واختفى خليل وراء دخان غليونه يدخن في هدوء قاتل، توقع الجميع أن يتحدث، أن يقول شيئاً ما، ولكنه تحصن وراء غليونه، رمقته النساء بعيون نصف سكرى فقد كان شهياً وهو يعرف ذلك، طول فارع، شقرة

فاتنة، قوام رشيق لحية مستديرة، وشاربان أحمران.

رجع سليمان بسطله المملوء ثلجاً رخواً اقتلع من جدران الفريزر، تأملوا الثلج قليلاً، ولما لم يكن هناك من خيار فلم يعترضوا، تناقل الملقط ليوزعه على الكؤوس، رفعت الكؤوس إلى الشفاه وفجأة علا صوت سعيد، وفوجئ الجميع فقد كان آخر من توقعوا أن يتحدث ليقول أي شيء.

- تعرّف عليها صديقي بالصدفة، كان على موعد مع صديقة له فجاءت ومعها صديقتها وزوجها، شقراء ممتلئة، شعر أصهب، عينان امتزجت فيهما الزرقة بالخضرة، وصوت فيه بحة غريبة، بحة تجعلك تلتفت إلى الوراء حتى ولو لم تر الجسم والوجه، فكيف وقد امتلكت هذا الحسن كله، كان زوجها محامياً، وسيماً بحق، ولكنه لم ينظر إليها طيلة السهرة، كان يحدق في كل النساء الأخريات يبحث عن استجابة لجماله، وكانت الاستجابات كثيرة بدأها بصديقة صديقنا، طلبها للرقص فأجابت ورقصا، رقصا حتى كلّت منهما الأجسام، ومكث صديقي يتعبد في محراب حسنها، يرشف بعينيه ما لم يكن يجرؤ على فعله بغير العين.

توقفت الموسيقى الصاخبة قليلاً، ثم عزفت الفرقة قطعة تانغو، نظرت إليه، ونظر إليها، وقام ينحني على الطريقة الغربية يسألها إن كانت تحب أن تراقصه هذه الرقصة فأجابت بالإيجاب وقاما، ودارا مع الموسيقى، طارا، تلمس ظهرها العاري بكفه، وأحس سخونة أنفاسها على رقبته، نظر إلى اللازورد في عينيها، وقرر أن يمتلكها.

- الله، الله، - قال نبيل — لقد بدأ الدسم، حدّث، حدّث.

- عادوا إلى الطاولة، فطلب أربع زجاجات شمبانيا نظر إليها زوجها في استهجان، ونظرت إليها أيضاً في استغراب، فلم الزجاجات الأربع؟ فرقعت الزجاجات ووضع إلى جانبها سطل فضي اختنق بالثلج، وحينما ملئت الكؤوس وطفا الزبد الأبيض برائحته المنعشة أحس جوعاً في عينيها واستغرب فقد كان زوجها من مشاهير أثرياء البلد.

شربوا وطعموا حتى ساعة متأخرة من الليل استعرض فيها كل ذلاقة لسان عمره، تحدث وثرثر، وانتهز الفرصة ليلمس الحرير في ذراعيها ينبهها إلى قطعة شامبنيون، أو إلى أن كأسها قد فرغت، واستمرأ زوجها الشراب والجليسة، واتضح إهماله لها، ولم يستطع صديقنا أن يفهم سر انصرافه عنها، ولما آذن المقصف رواده بالانصراف دعاهم إلى نزهة في سيارته إلى ضاحية جبلية فاعتذروا بتأخر الوقت وألحَّ فقبلوا.

كانت سيارة الزوج خارج المقصف وكانت سيارة فولكس فاغن عادية فبدت إلى جانب سيارته الكاديلاك حقيرة، وجلست إلى جانبه، فقرر بهرها إذ ضغط على زر انغلق له زجاج السيارة بأجمعه آلياً، وأعمل المكيف فانقلبت السيارة إلى عش معزول عن العالم، وأعمل البيك آب ليسمعهم الدانوب الأزرق فانقلب المكان إلى ستيريو هادئ، وتحركت بهم السيارة هادئة هادئة حتى لا تحس لها سرعة أو اهتزازاً.

وقالت الصديقة عطشنا، فضغط على زر امتد له بار صغير كان فيه زجاجتا وسكي وزجاجة كامباري وقالبا ثلج، شرب الرجلان الوسكي بينما شربتا الكامباري، وانتهت الموسيقى.. فأوقفها، وأوقف السيارة عند قمة جبل نظروا منها إلى المدينة تتثاءب، أضواء خافتة تشتعل من آنٍ لآخر تعلن استيقاظ بعض المبكرين، لسات دخان خفيفة هنا وهناك، أضواء سيارات سريعة، وفتحت النوافذ فهبَّت نسمة رقيقة أنعشتهم، وقال: غنونا شيئاً، أليس فيكم من يغني؟ فقالت الصديقة: هالة خير من يغني، والتقط الخيط فاعتذرت وأصرَّ فأذعنت بعد نظرة إلى زوجها الذي انضم إلى الصديق في الإلحاح.

جرعت آخر رشفة من الكامباري في كأسها، وأخذت تغني:

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وأعادت وكرَّرت ورجَّعت حتى أحس السيارة تطير به، جرع كأساً من

الوسكي ألحقها بأخرى، دخَّن سيكاراً وأحس العالم يدور به، وأجابها يغني:

هل تستعاد أيامنا بالخليج ولياليَنا

أو يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا

أو هل يكاد حسن المكان البهيج أن يحيِّينا؟

ـ وأخذ الجميع يرددون معه.

أو هل يكاد حسن المكان البهيج أن يحيِّينا

وكانت واحدة من ليالي العمر أبدع فيها كل ظرفه، شربوا ودخنوا وضحكوا وغنوا.

أدار السيارة وطار بها يسابق منحنيات الطريق الجبلية، كانوا جميعاً أنصاف سكارى لم يحسوا الخطر، ولم يعرفوه، وحينما كانت السيارة تنزلق بهم فوق ندى الصباح عند المنحنيات فتئنُّ العجلات كانوا يهتفون ضاحكين، ووصلوا إلى الضاحية الجبلية، وكان المطعم الذي قصدوه مغلقاً فقرع الجرس، ولما لم يردَّ أحد قرع.. وقرع حتى خرج صاحب المطعم نعسان يشتم ويلعن، ولكن ما إن رآه حتى ابتلع ما قال فقد كان زبوناً قديماً وصديقاً.

فتح لهم المطعم واتجهوا إلى شرفة كان واضحاً أنه قد اعتادها واتخذوا مجلسهم ومن مرقبهم كانوا يستطيعون أن يروا المدينة والشوارع المؤدية إلى ضاحيتهم والغابات، وسكة حديد، وقطاراً بخارياً يهدر في طفولة بين الغابات، وجاءهم صاحب المطعم بفطورهم منتجات ريفية طازجة.

أفطروا، ونظر الزوج إلى ساعته، كان أوان عمله، وأراد أن يعتذر ليمضي فالحَّ الصديق وقبلوا، وانتقلوا من المطعم إلى الجبل يتنقلون من مكان إلى آخر، وكان ينثر النقود فعل من لا يعرف لها قيمة يعطي الخادم المنحة فتكاد عيون الزوج تنخلع وراءها، قضوا النهار في الغابة يشربون ويمرحون ويغنون حتى حلَّ المساء، ولم يعرفوا النوم، فانتقلوا إلى أحد

الكازينوهات يسهرون، وأظهر الزوج نعاساً ورغبة في النوم، ولكن الجميع ألحُّوا فقبل، وأعيدت الليلة رقصاً وغناء وشراباً حتى أنهك الجميع، وكان يحسُّ روحه شعلة متقدة تأبى الانطفاء، وأخيراً انصرفوا فذهب كل إلى منزله على وعد باللقاء.

ونامت الزوجة عشر ساعات، اثنتي عشرة، لا تدري، ولكنها حينما استيقظت وجدت زوجها وقد غادر إلى مكتبه، وكان إلى جانب سريرها باقة بيضاء، وردتان بيضاوان، وزنبقتان، وقرنفلتان وفي القلب منها وردة دمشقية كبيرة حمراء.

نادت الخادم فسألتها عمن أرسلها، ولكنها قالت إنها لا تدري فقد جاء بها صبي الزهار، وطلب منها أن تضعها إلى جانب سريرها ومع الباقة ديناران منحة لها.

قلبت الباقة تبحث عمن أرسلها، ولكنها لم تعثر على شيء، ففهمت بسرعة، إنه الصديق، وفهمت ما ينبغي فصرفت الخادم، عرفت المرسل وبغيته، وانشغلت بقية نهارها في الإشراف على البيت، ولكن ما إن حل المساء حتى طلب إليها زوجها أن تستعدَّ لسهرة فسألته عن المكان فقال لها مع الصديق.

ترددت قليلاً، ولكنه ألحَّ، خافت، فقد أدركت بشكل غامض مسار اللعبة، ولكنه أصرَّ وذكرها بمبلغ المتعة التي حصلا عليها، ووافقت والتقوا، وكان مع صديقته، وكانت مع زوجها، وكانت كأبهى ما تكون امرأة في ثوب سهرة ديكولتيه يكشف عن ثلثي الظهر وعن منتصف الصدر، وتقلَّدت بعقد من الماس المزيف، وقرطين من نفس النوع، وساعة بياجيه من الفضة الخالصة، واتَّشحت بسحابة من عطر اوداس روشا.

توقف أمامها مذهولاً، وانحنى يقبل يدها يستغل عادة عند الغربيين ليختلس متعة ما كان ليحصل عليها في الشرق أمام أعين زوجها الذي تغاضى، فقد كان يعرف عن إقامته في فرنسا.

وبدأت سهرة الأمس ثانية رقصاً وغناء وشراباً، وانتقلوا من مقصفهم إلى مقصف آخر، ومن ضاحيتهم إلى ضاحية أخرى، وكانوا قد استغنوا عن سيارة الزوج ففي الكاديلاك ما يكفي، وطافوا البلد وأخذ الزوج أجازة من مكتبه وذهبوا إلى أقصى الشمال، تسلقوا الجبال وناموا في المنتجعات، وأخيراً اتجهوا إلى البحر، وهناك كان قد استأجر شاطئاً خاصاً مع فيلته بعيداً عن عيون الناس.

في الصباح التالي لوصولهم صحا ليراها من شرفته وقد اتجهت إلى البحر في مايوه بيكيني أبيض، فبدت له من بعيد حورية من حوريات البحر مغللة بالزبد، وأغمض عينيه، ثم فتحهما وهو ينظر غير مصدق، وما أسرع ما لبس مايوهه، وحمل منشفته ولحق بها فعل من لا يعرف بوجودها هناك.

حينما وصل الشاطئ كانت قد نزلت إلى الماء، فتظاهر بأنه لا يراها، واتجه إلى مظلته، فوضع المنشفة عندها، وتمطى قليلاً، وفاجأه صوتها من الماء:

- هيه، صباح الخير.

ونظر في اتجاهها.

- أنت؟ صباح الخير، أليس الماء بارداً؟

- لا، أبداً، تعال.

ولم يكن ينتظر أكثر من هذه الدعوة ليلقي بنفسه في الماء غائصاً ليظهر إلى جوارها وعلى بعد مئتي متر من الشاطئ كانت هناك جزيرة صغيرة معزولة، وقال:

- أليس الماء بارداً.

- بالعكس، إنه أجمل ما يكون في هذه اللحظة من الصباح.

- أتحسنين السباحة؟

ـ نوعاً ما.

ـ أتستطيعين الوصول إلى هذه الجزيرة؟

ـ أعتقد.

وانطلقت أذرعهما تضرب الماء تشقه في اتجاه الجزيرة، ونورسان أبيضان في اتجاه الشاطئ.

وصلا الجزيرة، وكانت في جزئها المختفي تحت الماء خشنة حادة فقد أنهكها البحر بموجه فنخرها، فما إن وضعت قدمها على الصخور الخشنة حتى صرخت وهي تفقد توازنها، وما أسرع ما كان إلى جانبها يحملها من خصرها واحمرَّ وجهها وهي تستند إليه، الوجه الأشقر الملفوف بغيمة من الشعر الأصهب، والعينان اللازورديتان والبشرة النقية لم تختلط بماكياج بعد.

أرادت أن تسحب خصرها من ضغطة ذراعه فأفلتها وظلَّ ممسكاً بيدها، ولكنها سرعان ما انزلقت ثانية وأسلمت نفسها لذراعه تحملها وتتجه بها إلى الجزيرة.

من ممر صغير بين الصخور اتجها إلى سطح الجزيرة الذي كان فجوة واسعة محمية امتلأت رملاً بحرياً، فكأنها عش خاص للسعادة.

ـ هه، ما رأيك؟

ـ غريب، أكل هذا الجمال في هذا المكان؟

ـ لم تتعرفي إلى شيء بعد، استريحي قليلاً.

ـ سأتفرج على الجزيرة.

ـ كما تحبين.

واتجها يريها الجزيرة، صخور حادة مسننة مفرغة بنية اللون هشة القوام، أصداف يابسة ميتة، أعشاب بحرية خضراء من بقايا مد سابق ألقاها لتجففها الشمس بما فيها من كائنات بحرية فتحولها إلى شعور غيلان معلقة.

مـالا مـع منعطف الصخور فطارت بضع نوارس صغيرة وكبيرة مختلفة الأحجام والجمال، وراقبتها تطير وتطير وتتهادى تحملها الريح، ثم تنقض على الماء لتتحول قوارب بيضاء صغيرة يتهادى بها الموج.

كانت تتوقع هجومه، وكانت تعد دفاعها، كانت تريد أن تريه أية امرأة قوية هي، كانت تفهم خططه، أو تريد أن تفهمه أنها تفهمها، ولكنه وبمكر قديم فيه كان يعرف أنها لم تنضج بعد فتركها، وظل الصديق المؤنس، كان يريد لها أن تتعوّد عليه، وكان هذا شيئاً هاماً، كان قد أدرك بخل زوجها المزمن، ليس البخل المادي فحسب، بل والبخل العاطفي، كان ابن عائلة ثرية جمعت ثراءها من تقتيرها، فنشأ على التقتير رغم الوفرة، وأصبح هذا جزءاً حتى من حياته العاطفية، كان الوحيد وكان إعجاب أهله به، وإعجاب الآخرين والأخريات به غير محدود فنشأ على أن يكون مطلوباً، وحينما حصل على هالة بعد طول عناء توقف اهتمامه بها عند الحصول عليها، وظلت مظهراً من مظاهر الثروة غير المعتنى بها، والتي تنتظر من يستفيد منها، أدركت منذ البدء أي رغبة يحملها لها، ولكنها ربيت أيضاً على الإخلاص للزوج وللأسرة، فلم يكن من مخططاتها أن تستسلم لمثل هذه العلاقة وحينما دعاها إلى الجزيرة أدركت غرضه، وقررت هزيمته، لا لشيء إلا لرغبة منها في اتخاذ قرار ما، لا ترك الآخرين يتخذون قراراتها بالنيابة عنها.

كانا قد غابا تماماً عن أعين الشاطئ، فالجزيرة من ورائهم والبحر بكل هيمنته يضرب أقدامهم في مداعبة.

صمتا طويلاً يتأملان البحر، وفجأة لمس ذراعها في حنان يشير إلى طير محلق دار في الأفق رمادياً جميلاً يطير دون رفرفة، ورأسه المتكبر يبحث عن فريسة، وفجأة انقض كصاعقة، كصخرة، كنظرة، وغاص في الماء، ثم علا وسمكة تتخبط في منقاره، وبقايا قطرات تتساقط من ذيله.

ـ رائع، أليس كذلك؟

ـ من؟ الصقر أم السمكة؟

ـ الصقر أم السمكة؟ لا، وأطلق قهقهة غير متوقعة.

ـ آه. أظننا يجب أن نعود. أليس كذلك؟

كانت تتوقع منه أن يتشبث بها، يداعبها، يتقرب منها، ولكنه ظل الصديق المؤنس الذي لا يطلب أكثر من إسعاد جليسه، وقامت وقام واتجها عائدين.

ـ لا تحسنين الغوص، أليس كذلك؟

ـ إلى حد ما.

ـ لدي عدة غوص وصيد مائي.

ـ صيد تحت الماء؟ لا. لا أعتقد.

ـ إن جربتها مرة فلن تتخلي عنها أبداً.

ـ سنجرب ذلك مستقبلاً.

انقضا على الماء، وأخذت أذرعهما تضرب صفحة الماء عائدين، كان الزوج والصديقة لا يزالان نائمين، فذهب إلى غرفته، اغتسل صديقنا ولبس ملابسه، وخرج ليجدها في الشرفة وقد جهزت القهوة.

رشف من فنجانه وهو يتأمل البحر، صمت وأطال الصمت، قالت:

ـ المكان رائع، سبق أن كنت به؟

ـ هنا؟ كثيراً.

ـ وحيداً؟

ـ لا، غالباً مع شلة.

ـ أحس الصباح حلواً — وتلفتت حولها قليلاً — لقد تأخروا في النوم.

ـ أأوقظهم؟

ـ لا، الفتنة نائمة...

وضحكا، ضحكا حتى دمعت العيون.

ـ اسمعي، ما رأيك لو تبضعنا طعام يومنا؟

ـ من أين؟

ـ بائعون جبليون ينحدورن في مثل هذا الوقت على حيواناتهم المحملة بثمار الجبل فنأخذ منها ما نريد.

ـ عظيم.

لبست خفاً ولبس صندله وحملا حقيبتيهما، واتجها إلى القرية، كان ريفيو الجبل قد سبقوهما، ففرشوا أحمالهم على الأرض بعد أن ربطوا حميرهم جانباً، خضار طازجة اقتطفت لتوها، فواكه لا تزال ندية، دجاج، أرانب، لحوم ذبحت منذ قليل، واشتريا ما أرادا ثم حملا مشترياتهما وعادا.

أيقظا النائمين وبدا أن نهاراً جديداً رائعاً قد بدأ.

كانت تحس بدورانه من حولها فكانت تحتاط، ولكنه لا يهاجم فتصاب بالخيبة، صمدت، وصمدت، ولكن ليس من هجوم، وماذا بعد؟

اسمرّ جلدها بتأثير الشمس فزادت حسناً، وكان قد مرّ على مقامها أسبوع حين استيقظ مبكراً يتمشى على الشاطئ يداعب الأصداف بقدمه العارية، وكان في مايوهه يستعد للسباحة حين فاجأه صوتها هذه المرة فعلاً.

ـ صباح الخير.

ـ هالة، صباح النور، ما الذي أيقظك مبكرة؟

كان الآن دورها.

ـ أردت أن أسبح قبل أن يستيقظوا.

وفهم.

ـ حدثتني مرة عن الغوص وعدَّته، والصيد به، ولكنك لم تعد إلى الفكرة ثانية.

ـ أنا جاهز.

ـ وأنا جاهزة!

وابتسم ﻓﻲ داخله ولد شرير، جاهزة؟ لقد انتظر هذه الكلمة طويلاً، عاد إلى البيت، ثم برز وهو يحمل عدَّتي غوص وبندقية صيد تحت الماء، ساعدها ﻓﻲ لبس جهاز الغوص، واتجها إلى الماء، سبحا قليلاً حتى وصلا إلى الماء العميق ثم غطس... غطست، ورغم عدم حاجتها للهواء فقد طفت لا إرادياً، حاولت ثانية ولكن جسمها كان يقاوم، جذبها من ساقها، وأحست قبضته على ساقها قاسية حادة، انحدرت معه إلى الأعماق، وكان وجهه مختفياً وراء القناع الذي يغطيه، ولكن جسمه الضخم كان مخيفاً، وكانت نحيلة رقيقة، ما إن استقرت قدماها على القاع حتى وجدت الأمر وقد اختلف فقد أصبح التماسك أسهل، وكانت الصخور الصغيرة البيضاء المغسولة فاتنة، وكانت أشجار المرجان المتشعبة وقد اختفت أسماك صغيرة بين أغصانها تنتقل كعصافير صغيرة، السماء فوقهم خيمة خضراء اختلطت بالبياض المتحول موجة إثر موجة تتدافع فوق رؤوسهم، برودة عذبة، وهدوءاً خيالياً، صمتاً تاماً، سميكات وسراطين، حلزون ومرجان... عالم خيالي جديد، وبرزا ﻓﻲ هذه الصورة سمكتين ضخمتين، كبيرتين، أخذت الكائنات الأخرى تنظر إليهما مدهوشة، وأحست نفسها فجأة سعيدة سعادة لم تعرفها من قبل أبداً، لم تكن تظن أبداً أن العالم بهذا الجمال، لم تكن لتصدق أبداً أن ﻓﻲ العالم سعادة بهذا القدر، ونظرت إلى عينيه الطيبتين وراء القناع وأحست عذوبة لا متناهية فيهما فودَّت لو تقبله، ولم يكن ذلك ممكناً أمام هذه الآلاف من العيون المشاهدة، ولم يكن ذلك ممكناً وهي متمسكة بصخرة مرجانية حتى لا تدفعها المياه إلى العلاء، وفجأة تخلت عن الصخرة وانطلقت تتلوى صاعدة، نظرت إليه كان لا يزال ﻓﻲ مكانه ينظر إليها فيما بدا لها

وبندقيه في يده، وأشارت له أن يتبعها، وانطلق يحاذيها، وما أسرع ما برزا فوق السطح.

سبحا إلى الجزيرة، وما أن وقفا على الأرض الصلبة حتى نزعا القناع. مشيا وكأنهما على موعد إلى العش الرملي فوق الجزيرة، كانت الشمس قد علت بزاويتها قليلاً فبدا البحر صفحة بيضاء فضية تتلألأ.

استلقت على الرمل، واستلقى إلى جوارها على بطنه، نظر إلى قطرات الماء فوق خدها، ومد يده يمسحها، ثم انحدرت أصابعه تمسح على شفتيها ونظرت إليه، كانت قد نضجت.

تناول سعيد زجاجة الوسكي يصب لنفسه كأساً.

ـ اللعنة، لن أتركك تقطعنا هنا، أكمل – صرخ نبيل.

ـ وماذا أكمل؟ لم يبقَ شيء نتحدث عنه.

صبَّ الكأس.

ـ اللعنة، لا يمكن، ستقتلني، أكمل، ماذا جرى من بعد؟

كان نبيل متهيجاً جداً، ونظر إليه الجميع في استغراب، فما كان الموقف يستدعي كل هذا الهياج، والتفت خليل فجأة، كانت إلهام تنظر إلى نبيل في سخرية صارخة تمنى لو يعرف سببها، وقال سليمان.

ـ يبدو أن الوقت قد تأخر، أتحبون أن تناموا؟

ـ وأي نوم؟ ـ قال دياب – لا، لا أعتقد، تعالوا نخرج إلى التراس نتفرج على المدينة.

أهو كابوس أسود؟ حلم من الأحلام القاسية، لم تكن هذه هي المدينة التي عرفوها أبداً، حرائق مندلعة في كل مكان، شهب صغيرة ودوي بعيد لطلقات رصاص، شهب متتابعة يتلوها دوي انفجارات ضوئية ثم اصطفاق مدافع الهاون، نيران تنقذف فجأة في الفضاء، شهب صغيرة ملونة لطلقات خطاطة لا تلبث أن تتلى برشات رشاش سريع، أصوات انفجارات مكتومة وزاعقة.

وقف الجميع أمام المنظر مذهولين مسحورين، ما الذي يجري؟ ما الذي جرى؟ كانوا يظنون أن أسوأ ما يمكن قد فات، ولكن يبدو أنه ليس الذي فات، بل ما هو آت، تلفتوا يميناً وشمالاً، بحثوا عن مخرج، كانت كل الطرق مسدودة، اندفع نبيل إلى باب التراس يحدوه أمل غامض في أن قوة ما قد فتحته، ولكنه صمد لضرباته غير مبال، اندفع عبود إلى الشقة، ثم إلى الباب يرجو خلاصاً من فخ أحس أنه قد وقع فيه، ولكن الباب كان محكم الإغلاق، طرق الباب بكلتا يديه، ثم استدار ليواجه الدهليز المظلم، ولكن وبغريزة الشعور بالاطمئنان مع الجماعة عاد إلى التراس، كانت المجموعة قد التفّت حول نفسها كقطيع خائف من خطر مجهول، كانت السماء مسرحاً عجيباً للشهب تتّقد ثم تنطفئ، وآثار من صدى بعيد لدويها وطلقاتها.

سيطر القنوط على الجماعة فارتدُّوا إلى مجلسهم السابق حسيرين، كانت هيلين الشمعة ترتعش قليلاً في موقفها لتسرب الهواء إلى الغرفة فارتعشت الشعلة وارتعش الضوء لتبدو وكأنها آسفة لما يجري ترتعش في خوف وأسى، أما بو زيدون فقد بدا يقهقه ساخراً من آلامهم.

عاد خليل إلى غليونه فأشعله، ثم استند إلى ظهر مقعده يرقبهم في تظاهر بالانفصال عنهم، عادوا كل إلى مقعده السابق، وكأن ألفة قديمة حلت بينه وبين مقعده. رفع نبيل كأسه يجرعها بسرعة وكأنه يسكت شيئاً يصرخ في داخله.

ملأ سليمان الكؤوس ثانية، وحينما رفعوا الكؤوس إلى الأفواه وجرعوا جرعتهم الأولى بدا وكأن الهدوء قد عاد ثانية إلى المجموعة.

قالت نوال وقد أحسّت بالهدوء يتحوّل إلى مدٍّ رهيب مرعب يسيطر على الجميع — وحّدوه — نظروا إليها جميعاً.

- ما لكم ساكتون؟ تحدثوا، قولوا شيئاً، أكملوا حديثكم عن الحب.

رنت كلمة الحب غريبة بينهم في تلك اللحظة، ولكنها وبعد قليل بدت

وكأنها ثغرة الإنقاذ الوحيدة يهربون إليها من هذا الظلام والرعب.

ـ الحب؟ قال نبيل — ألا تظنون أنه اختراع حديث؟

ـ ماذا تعني باختراع حديث؟ قالت نوال.

ـ بمعنى أن الحيوانات لا تحب، وأعتقد أن الإنسان البدائي لا أظنه كان يعرف الحب.

ـ ما زلت لا أفهمك.

ـ اسمعي، هل سمعت عن إنسان مات حباً في اللحم أو في البندورة؟

ـ طبعاً إذا كان فقيراً، ولم يذق اللحم فإنه قد يموت من الجوع.

ـ لقد وضعت شرطاً، أن يكون فقيراً أي غير متمكن من الحصول عليه، وكذلك فإن الإنسان منذ وضع شروطاً وفواصل ومحرمات وموانع دون تبادل الجنس الآخر انفتحت أمامه أبواب جديدة للحرمان فأصبح ينظر إلى الفاكهة أمامه ويراها محرّمة بقوانين وشروط وتحريمات مسبقة، وكلما ازدادت التحريمات من حولها ازداد الشوق إليها، وهكذا تولّد طبع جديد، تولد عامل جديد، تولدت تسمية جديدة هي الحب.

ـ إنك تبسط الأشياء كثيرا، وتقلب الإنسان إلى إشراطات وارتباطات اشتراطية — قال سعيد.

ـ وتظنه أرفع من ذلك؟

ـ طبعاً، ففي الإنسان دائماً شيء رفعه عن الخضوع للشروط وانعكاساتها.

ـ ما هو هذا الشيء؟

ـ الإنسانية.

ـ ما الإنسانية؟ قالها في نفاد صبر.

ـ هي تراكم الرقي والتجارب البشرية ونتائجها ومختزناتها ومعطياتها.

ـ لقد بدأنا نتفلسف – قال سليمان – لا تزيدوا في إفساد ليلتنا أرجوكم. نبيل حدثنا عن الحب.

ـ أهو دوري؟

ـ إن أحببت.

ـ حسناً، سأحدثكم عن صديق كانت له تجربة غريبة جداً مع المرأة، المرأة غير التي تعرفون، ليست المرأة الجمال، وليست المرأة الارستقراط لا، وليست المرأة الطموح، بل المرأة الجنس.

جاءت إلى مكتبه وكان محامياً، جاءت تطلب الطلاق من زوجها، وتطلب من المحامي أن يكون وكيلها في هذا، امرأة في نهايات العقد الثالث من عمرها، لا شيء خاص يميزها إلا جسم قوي، فهي أقرب إلى الطول، ليست نحيلة وليست سمينة مترهلة، بل تحس أنها قوية قوة جسدية لسها حين سلّمت فضغطت على كفه ضغط الرجال، عينان بنيتان عميقتان، وشفتان غليظتان شهوانيتان كان هذا أكثر ما يميزها.

جلست تجاه مكتبه، ووضعت ساقاً على ساق، واستخرجت علبة سكائرها، فأشعلت واحدة دون أن تنتظر منه أن يشعلها لها.

أنهى بسرعة الأوراق التي أمامه، وقرر أن يتفرغ لها، سألها.

ـ متزوجة منذ زمن طويل؟

ـ منذ سنة.

ـ أول زواج لك؟

ـ الثالث.

وأراد أن يرفع الكلفة بينهما فقال ضاحكاً:

ـ يبدو أنك معجبة بالزواج.

ـ لمَ؟

ـ لأنك لم تكتفي بزوج واحد.

ـ الرجال أنواع – علّقت بغموض.

أراد أن يعود إلى الموضوع فسألها:

ـ وما سبب رغبتك في الطلاق؟

وأجابت بصراحة غريبة.

ـ ضعيف.

ـ أي نوع من الضعف؟

ـ جنسياً.

ـ لا أفهم، أهو عاجز؟

ـ لا، ليس عاجزاً، ولكنه كما قلت لك ضعيف.

ـ ولكن هذا ليس سبباً كافياً.

ـ حسن، هذه مهمتك – قالت ضاحكة.

واحتار، فماذا تعني (بهذه مهمتك)؟

ـ ما مهمتي؟

ـ أن تجد السبب المقنع.

ـ آه، وكيف سنجده؟

ـ أهذا صعب عليكم أيها المحامون.

ـ لا، لا شيء صعب، ولكن الطلاق كما تعرفين أبغض الحلال.

ـ هل ستحاضر علي؟ أقول لك لم أعد أحتمله.

ـ وماذا ستصنعين بعد الطلاق؟

ـ يبدو أنك فضولي بعض الشيء.

واستغرب جرأتها، جرأتها في كل شيء، في التعبير عن نفسها، في قسوة إجابتها، واستغرب عدم غضبه من طريقتها غير المهذبة في الإجابة.

تشاغل في العبث بأوراقه قليلاً، ثم قرع الجرس فجاء آذن المكتب.

ـ ماذا تشربين؟

ـ لا، لا شيء.

ـ يجب أن تشربي شيئاً.

ـ ألديكم شيء غير الشاي والقهوة؟

ـ لدينا زهورات أيضاً.

ـ كل هذا لا يكفي.

ولم يرد أن يتطور الحوار أمام آذن المكتب فصرفه قائلاً.

ـ هات فنجاني قهوة.

وانتظرت حتى أغلق الآذن الباب.

ـ أأنت دائماً متسلط هكذا؟

ـ أراك رفعت الكلفة بسهولة معي.

ـ إني أرفعها دائماً مع من أنسجم معهم.

واستغرب جوابها، ولكنه غمغم.

ـ شكراً لثقتك – ثم تابع – ايوه يا ستي، إذاً فقد قلت إنك ترغبين في الطلاق.

ـ إن كنت تستطيع.

واحتار أمام هذه اللغة ذات الإشارات الخاصة.

ـ قضيتك بسيطة، وأغلب المحامين يستطيعون إنجازها.

ـ لا، ليس أغلبهم كما تعتقد.

ثم هاجمته مباشرة.

ـ اسمع، ما رأيك لو أوقفنا النقاش هنا، وتابعناه في مكان آخر.

ـ أين مثلاً؟

ـ في أي مكان تختار.

ـ مثلاً؟

ـ لا تكن غبياً، قلت في أي مكان.

وأراد أن يحرجها، ويوقف استهتارها.

ـ في بيتي مثلاً؟.

ـ أو بيتي لا يهم.

ـ وزوجك؟

ـ مسافر.

ـ آه، هذه حجة مقبولة للطلاق، هل يسافر كثيراً؟

ـ نعم.

ـ ويتركك وحيدة؟

ـ نعم.

ـ وتضيقين بالوحدة؟

ـ تماماً.

ـ وتخافين في الليل من النوم وحيدة؟

ـ لذلك لا أنام وحيدة.

ـ هه، ماذا؟

وانطلقا معاً في ضحكة، وأراد أن يتفادى إجابتها الصريحة فسألها.

ـ طبعاً. لديك أولاد؟

ـ أبداً.

ـ اسمعي، ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء.

ـ لا مانع.

حين ضمتهما سيارة التاكسي تجرأ قليلاً فأمسك بيدها، كانت صلبة رغم نعومتها، صدم لصلابتها، ولكنها أمسكت بكفه، وقالت هامسة لا تريد للسائق أن يسمعها.

ـ اسمع، أنا لا أحب الأماكن العامة كثيراً، نستطيع أن نطلب الطعام إلى منزلي، ما رأيك؟

فجأة شعر بالخوف، أي خوف؟ لا يدري، ما سببه؟ لم يعرف بالضبط الخوف من فضيحة؟ الخوف من مجهول؟ الخوف منها؟ ولكنه لم يعد يستطيع التراجع.

ـ لا بأس، أبقرب بيتكم مطعم ما؟

ـ لا، ولكنا نستطيع الطلب بالهاتف.

ابتعد السائق بالسيارة في الضاحية التي بدأ طريقها يظلم لقلة الأنوار الشارعية، ولكنه تابع فبدا له الطريق الاسفلتي يتحول إلى طريق ترابي تناثرت فيه الحجارة، وأخذت السيارة تهتز قليلاً في مسيرها.

ـ البيت بعيد من هنا؟ سأل السائق.

ـ لا، نكاد نصل.

صمت صديقنا المحامي، وأخذ يراقب الشارع الذي يمرون فيه، أشجار على الجانبين ميز فيها الزيتون والمشمش، ثم الظلام، أضواء السيارة ضعيفة لم تكن لتنير لأكثر من عشرين متراً، ومشى السائق خمس دقائق أخرى، ولو لم تكن سرعته عالية إلا أنها خمس دقائق.

ـ لم أكن أعرف أن البيت بعيد هكذا.

ـ ستأخذ أجرك.

ـ ومن سيدفع لي أجر عودتي دون ركاب؟

ـ سندفع لك، لا تهتم.

وقفت السيارة أمام سور، ونزلت لتفتح الباب الحديدي، وأصيب للحظة بخوف مفاجئ، أي بيت هذا؟ فتحت باب السور بمفتاح خاص، نظر إلى المرآة ولاحظ السائق يراقبه من خلالها، ترى بم يفكر هذا السائق الآن؟ وأدار وجهه بسرعة يراقب فتحها مصراعي الباب.

أعمل السائق سيارته من جديد ليندفع بهما على طريق ممهد بالحصا، وازداد شعوره بغرابة الموقف حينما لمح الفيلا، كانت بناء شامخاً واضح الثراء مغلفاً بالنباتات المتسلقة ليبدو كتلة خضراء زاهية تحت أضواء كشاف السيارة.

نزلت وتبعها، وما إن دارت السيارة منطلقة في طريق العودة حتى فتحت باب الفيلا صبية في العشرين تلبس بدلة من البلوجينز مفتوح الصدر حتى الزر الثالث، ولم تستغرب قدومه بل خاطبت السيدة.

ـ تأخرت قليلاً.

ـ لا بأس – قالتها في إيجاز.

ودخلت يتبعها المحامي وهو لا يفهم شيئاً مما يجري حوله، تبعها عبر الدهليز إلى الصالون حيث فاجأته مائدة واسعة انتشرت عليها ألوان الطعام المختلفة، خروف صغير محشو، عدد من الدجاج المشوي، شرائح اللحم المقلية بمختلف أنواعها، عدد من الأطباق التي امتلأت أطعمة شرقية وغربية، وإلى جانبها بار صغير نقال محمول على عجلات صغيرة يحمل رفوفاً دائرية امتلأت بزجاجات مختلفة، ولكن ما جذب انتباهه وبسرعة فتاة سمراء نحيلة ذات شعر أسود انتشر على كتفيها وغطى بعضاً من صدرها تلبس روب دي شامبر من الدامسكو الأحمر، وكانت القاعة مضاءة بثريا من الكريستال البوهيمي انتشر فيها حوالي خمسين مصباحاً فبدت القاعة حفلاً بهيجاً.

أغمض عينيه مرة واثنتين يحاول التأكد من أن ما يراه حقيقة، ولكنها الحقيقة، أخذته من ذراعه.

ـ تفضل.

ـ لا أفهم شيئاً، أظن أنا قد اتفقنا على شيء آخر.

ـ لا تهتم، لا تفكر كثيراً.

ـ والقضية؟

ـ سنبحث فيها فيما بعد، تعال الآن.

مدت الفتاة ذات الروب دي شامبر الأحمر يدها في حركة ترحيبية.

ـ تعالى إلى جانبي.

انقاد كالمسحور يجلس إلى جانبها، أشارت بيدها، فأسرعت الفتاة ذات البدلة الجينز تدفع البار المنزلق إليها.

ـ ماذا تشرب؟

كان في صوتها بحة من يدخن كثيراً.

ـ أي شيء.

ـ كل شيء موجود، ماذا تشرب؟

ـ لا بأس بالجن.

تناولت زجاجة جن فصبت له في كأسه حتى منتصفها.

ـ أتحبها صرفاً أم مخلوطة.

ـ لا، بل مخلوطة بالرمان.

تناولت زجاجة عصير رمان، فأكملت الكأس وقربت سطل الثلج فنقل ثلاث كريات من الثلج أضافها إلى كأسه، رفعت كأسها تحييه.

ـ في صحة ليلتنا هذه.

رفع كأسه يرد التحية، وكلمة ليلتنا ترن في أذنه.

ـ صحة وهناء.

جرع جرعة خفيفة من كأسه، كان المزيج لذيذاً كأحسن ما يعدُّ الجن بالرمان. أعاد الكأس، التفت إلى جارته.

ـ أستتأخر السيدة؟

ـ ستأتي حالاً.

وبهدوء وبصوت متسلل جداً انسلّت موسيقى خفيفة لم يكن يلحظها في البدء، ولكنها لم تلبث أن أخذت تتعاظم، وأخذ يميِّز منها مقدمة الكرنفال الساخر لفيردي، وانتبه إلى الأضواء العظيمة والقوية جداً للثريا تخفت بهدوء، تضمحلُّ وتتهافت حتى وصلت إلى مرحلة الشموع، وأخذ المنظر بمجمله يتحول ليصبح شيئاً خارج المنطق بالنسبة له، فتح الباب لتدخل سيدة الطلاق وهي تلبس ثوباً من تنورة حمراء طويلة تطاولت على الأرض وراءها، وقميصاً أحمر قصيراً كشف عن بطنها وظهرها دون أكمام، فبدت أشبه بالهنديات في شعرها، وفي الزينة التي تلبسها.

توقفت موسيقى الكرنفال، وقام من مقعده لتحيتها، ولكنها لم تلتفت إليه لأن موسيقى راقصة هندية انطلقت فجأة من مضخمات للصوت خفية، واشتعلت سيدة الطلاق لتصبح أفعواناً، اخطبوطاً، حيواناً خيالياً، كاهنة هاربة من أعصر مضت تتقدَّم بقرابين الرقص إلى إله غير مرئي، تحولت المرأة فجأة إلى أذرع، إلى سيقان، إلى رؤوس، كلٌّ يرقص وحيداً منفصلاً يتعبد على طريقته الخاصة.

يئس من فهم أي شيء، واكتفى بالاستسلام للّحظة، أنهى كأسه بشربة مرة واحدة دون وعي، ولاحظ بجانب عينه الكأس تسحب من أمامه ليوضع مكانها كأس أخرى.

ازدادت الموسيقى ضراوة، وازدادت المرأة عنفاً في رقصها وبدا العرق واضحاً ينزلق على رقبتها، وعلى ذراعيها، على ابطيها، على خصرها، وتعبت أخيراً من التنورة الطويلة فضربت عليها بكفها، فتكومت على

الأرض كتلة حمراء، كان فخذاها قويتين كفخذي رجل وهي تضرب بهما الأرض وتتلوى، وانتشرت في الجو رائحة عرقها، فلقد أنهكت تماماً، ولكن الموسيقى لم تنهك، وتكومت على الأرض فوق تنورتها.

أسرعت فتاة البلوجينز فحملتها من إبطيها، وقادتها لتجلس إلى جواره، والتفت إليها يكلمها، كانت قد ملأت كأسها وأخذت تجرع منه في نهم، رائحة عرقها الغريبة الحامضة التي اختلطت برائحة عطرها خلقت جواً من الجنس العائم في الغرفة، مدّ يده يداعب ظهرها فنظرت إليه في لامبالاة، ثم حوّلت نظرها إلى حيث كانت تقف.

التفت يتابع نظرها، كانت فتاة الروب دي شامبر، وقد ألقت بروبها جانباً لتظهر في بيجامة.

ضربت الأرض بقدمها فتوقفت الموسيقى، ضربتها ثانية، فانطلقت موسيقى إسبانية وبدأت رقصة الفلامنكو، ثنت ذراعيها، وامتشقت صدرها المتحدي بينما أخذت تضرب الأرض بقدميها في هدوء لم يلبث أن توتر، وتكهربت الأرض تحت قدميها حين ارتفع من فتاة البلوجينز صوت حاد طويل اوليه.. يه.. يه يه..، واندفعت إلى جانبها تراقصها الفلامنكو.

أمال الكأس على فمه يجرع ويراقب، وكان الشراب والجو والضوء قد أثر على مخيلته فجعل المرئيات تختلط حين سمع صوتها.

- ألا تحب أن ترقص؟

- لا أعرف.

- لا يهم، المهم أن ترقص.

ودون مناقشة قام، وقامت إلى جانبه، نزعت جاكته وحلت ربطة العنق، وكمسحور وجد نفسه ينشدُّ إلى الحلبة، وأخذت أقدامه تضرب الأرض معهن في تحد وإثارة، وارتفع هذه المرة صوت سيدة الطلاق تصرخ اوليه.. الله.. الله..

استمر الرقص لساعات، لأشهر، لأعصر، لا يدري، المهم أنه اخيراً جلس على الأرض منهكاً، وقالت سيدة الطلاق:

ـ لنتعشّ.

جلسوا إلى المائدة، وأصبح فجأة مركز الحلقة، كل تحاول أن تطعمه بيدها، لقمة من الخروف المحشو، ولقمة من الشرحات، ولقمة من الشامبنيون، ولقمة، ولقمة، وشربوا حتى لم يعد بإمكانهم أن يشربوا، وفجأة التفتت سيدة الطلاق إلى جارتيها.

ـ الدور لمن؟

وقالت فتاة البلوجينز: لي.

وقالت فتاة البيجاما: لي.

وقالت سيدة الطلاق: انخيره، أم ترضين بالقرعة.

فقالتا معاً: بل بالقرعة.

وضربت القرعة، فكانت من نصيب سيدة الطلاق، نظرتا إليها في غيرة، ولكنهما لم تتكلما، وقالت له في امر خافت.

ـ تعال.

وقام وراءها يمشي في دهليز فتحت فيه باباً ليجد أمامه غرفة نوم شرقية انتثرت فيها الطنافس والوسائد والفرش، دخل وراءها منقاداً، أغلقت الباب، وانقضت عليه فجأة.

وقع كأس على الأرض بصورة مفاجئة قطعت على الجميع استغراقهم والتفتوا ليجدوا إلهام تجمع بقاياه مرتبكة، ونظر نبيل إليها طويلاً ترفع الكأس عن الأرض وتضعه أمامها ويسمة ارتباك معتذرة على وجهها، والتفتت إلى نبيل قائلة:

ـ أكمل، أكمل، لا توقف الحديث.

كان خليل يتأملها طويلاً أثناء حديث نبيل، ولاحظ تقلب وجهها ما

بين السخرية، إلى الحزن، إلى الرغبة في الكلام، إلى الصمت الصامت داخل النفس.

وأخذ الجميع يلحون على نبيل ثانية.

ـ أكمل، أكمل، ماذا حدث بعد؟ وأكمل.

انقضّت عليه، كان جسدها فائراً لم يعرف جسداً مثله، ولم يعرف أيضاً متى كان في ثيابه، ومتى تخلى عنها، ولكنه وبعد فترة وجد نفسه مستلقياً إلى جانبها منهكاً، وحينما مضت إلى الحمام استدار بجسده يبتغي النوم، ولكن الباب فتح ودخلت فتاة البيجاما وانقضّت عليه، وكأن الشهوة الغائرة والتي خمدت فيه استيقظت ثانية، واصطرعا، واعتركا، واختصما، حتى أحس عظامه وقد فرغت من نقيها، ولم يصدق أنها مضت إلى الحمام حتى فتح الباب وكانت فتاة البلوجينز قد عرّت نصفها الأعلى، فأشار لها بيده مستسلماً، ولكن ثدييها المتكورين الصغيرين جذباه إليها وكانت تحمل في يدها صينية شراب صبت له منها كأساً شربها.

أخذ خليل يراقب إلهام، وهي تستمع إلى نبيل في شبق غير محدود، الشهوة في العيون، في الشفاه، في الأنامل القابضة على الكأس، في توتر الشرايين في رقبتها.

وكانت ليلة ليلاء لم يدر كيف انقضت، ولكن وما إن جاء الصباح وظن أنه مغادر حتى اكتشف خطأ رأيه إذ افتقد ثيابه فلم يجدها، وكلما سأل واحدة أحالته إلى الأخرى إلى أن قالت له سيدة الطلاق.

ـ لا تفكر في المغادرة، فأنت ضيفنا.

ـ وعملي، ومكتبي؟

ـ لن يتأثر إن غبت شهراً.

ـ شهراً؟

ـ شهراً؟ صرخت إلهام والتفت الجميع إليها مدهوشين لمقاطعتها ولحديثها بعد طول صمت.

ـ نعم، شهراً، وقضى الشهر، وأي شهر! أطعمة لا يدري من أين يؤتى بها، أشربة هاربة من حدائق الجنون، المسبح الخاص يسبحون به نهاراً حتى إذا ما تعبوا عادوا إلى الشراب.

قاوم فكرة الإقامة معهن شهراً، ثم استسلم، ولكن حيويته أخذت تنضب، وتغيرت عادات نومه، فصار ينام حتى الظهيرة، وإلى ما بعد الظهيرة، وأخيراً، وفي أحد الأيام، وبعد سهرة من سهرات العمر رقصن فيها ورقص، غنّين فيها وغنى، شربن فيها وشرب، قالت سيدة الطلاق:

ـ والآن حان دور الشراب الذي إن شربته لن تنساه.

وقالت فتاة البلوجينز.

ـ لنؤجله قليلاً.

ولكن سيدة الطلاق رمقتها بعين غاضبة فمضت، وجاءت بزجاجة تشبه الزجاجات الأخرى، صبّت له منها كأساً وكان لسكره يسمع ويفهم ولكنه لا يقاوم، ولا يستطيع، فأخذ الكأس وشربها وأخذت المرئيات تتراقص من أمامه.

انحنى نبيل على الطاولة منهكاً فأمسك بكأسه، كانت قد فرغت، ناوله دياب الزجاجة فصب لنفسه كأساً، ودار بنظره يبحث عن ثلج، ولكن بقايا الثلج الرخو كانت مخيبة للآمال، فلقد ذابت بسرعة، تذوق الشراب بمقدمة لسانه، كان بارداً نسبياً، جرع جرعة بينما كان الجميع يتابعونه بأنظارهم ينتظرون إتمام الرواية.

استند بظهره إلى خلفية المقعد وكأسه مستندة بيده إلى ذراع المقعد وقال:

حين صحا في اليوم التالي وجد نفسه في السجن ومن حوله أنواع مختلفة من الناس، اللص والنشال، والمتشرد، والشاذ، ولكنهم لم يعبؤوا به فأمثاله كثيرون، واستغرب وجوده في هذا المكان، وتذكر ليلته الماضية، ولم يجرؤ على أن يذكرها لجلسائه، فطلب مقابلة آمر السجن، فأخذ

إليه، وحين مثل بين يديه تذكره الآمر على الفور وسأله مستغرباً:

- ولكن، ما الذي أوصلك إلى هنا؟

- لا أردي.

- لا تدري؟

- لا أدري فعلاً، وتلك قصة طويلة، ألا يمكن أن أذهب إلى داري؟

- بالطبع تستطيع، ولكن، ألـن تقدم لنا تفسيراً بسيطاً عن سبب العثور عليك سكران في منطقة بعيدة عن المدينة.

- سأقدم لك هذا التفسير، ولكن فيما بعد، كل ما يهمني الآن هو أن أذهب إلى البيت لأرتاح.

طلب له سيارة تاكسي أوصلته إلى منزله ونام.

- هل التقى بهن ثانية؟ كان هذا سليمان.

- فعل الكثير، جُنَّ، أضاع عمله، ولكنهن اختفين، فتش المنطقة مرة واثنتين وثلاثاً، دار حول المدينة كلها ظاناً أنه أضاع الاتجاه سأل كل سائقي التاكسي، وأخذ الأمر يتحول ليختلط عليه، ولتبدو الحكاية كلها كأنها حلم، أو خيال، أو أمنية دون أصل من الواقع.

بهدوء أخذت إلهام تكركر في الضحك بهدوء، ونظر إليها الجميع مستغربين، ولكن ضحكها لم يلبث أن علا ليصبح ضحكة هستيرية ممطوطة طويلة باكية مجنونة، وقام إليها نبيل.

- إلهام، إلهام، يكفي.

ولكنها استمرت في ضحكها الهستيري والدموع تنبثق من عينيها.

- إلهام، إلهام، ألن تكفّي؟

والتفتت إليه تشير بإصبعها في تحد.

- أنت؟ أنت؟

واستمرت في ضحكها الهستيري الباكي، قامت إليها نوال فضمتها إلى صدرها.

- إلهام، إلهام، من أجلنا أرجوك، اشربي هذه الكأس، اهدأي.

أجبرتها على شرب الكأس، فأخذت تهدأ وهي تنهنه، تجرع جرعة وتمسح دمعة، استرخت في مقعدها تزفر، كان نبيل يرقبها من مكانه حين اندفع فجأة من الغرفة إلى التراس.

أسرع خليل وراءه، كان يستند إلى سور التراس وهو يهتز بعنف.

- نبيل، نبيل، ما بك؟

من خلال نشيجه المصور استطاع خليل أن يفهم.

- اللعنة، إنها تضطهدني، تذلُّني، تدمِّرني.

- من؟

تملكته نوبة الارتجاف ثانية، نظر خليل من فوق رأسه إلى المدينة... السواد المغطي والمثقوب بقذائف صغيرة بعيدة لم يعد يسمعها، فقد كان الشراب قد أثر عليه قليلاً، وأحس البرد يلفه، فجذب نبيل من ذراعه، مانع قليلاً ولكنه استسلم.

لم يتحرك واحد من الحاضرين ليتابع ما حدث، أو ليتدخل، فقد أتعبهم الشراب، وصرفهم عن الاهتمام بأي شيء.

- هل تغنون؟ صاح سليمان.

- جدوا لنا أغنية ما.

- لا – قالت نوال – أكملوا حديثكم عن الحب وما أجمله.

- يكفينا حديثاً عن الحب، غنونا شيئاً – قال سليمان شاكياً.

- لا، بل الحب، الحب، الحب، الحب، على من الدور؟ قالت سليمة.

نظر كل إلى الآخر، ولم يبق إلا خليل وعبود، ودون شعور تجاوز النساء

عبود بنظراتهنَّ، واستقرت العيون عند خليل، كان كنزاً من الحكايا فلا بد أن عشرات من النساء قد عشقنه، ولا بد أن عشرات من القصص الطريفة والحلوة تنتظر أن يقولها، وقالت سليمة:

ـ يلله خليل، الدور عندك.

ـ عندي؟

ـ نعم عندك، قل، قل أي شيء.

نفث دفعة من دخان غليونه اختبأ وراءها وقال:

ـ لا، لا أعتقد أن لدي الكثير لقوله، دعوا عبود يحدثنا.

التفتوا إلى عبود وتجاوزوه بسرعة بنظراتهم عائدين إلى خليل.

ـ عبود نعسان، حدثنا أنت — قال سليمان.

ـ من قال إني نعسان، أبداً إني أنشطكم.

ـ حسناً، ها هو عبود وسيحدثكم، أما أنا فسأحدثكم بعد عبود، دعوني أتذكر شيئاً.

التفتوا إلى عبود مضطرين آسفين وخاصة النساء، فقضم عبود قضمة من جناح دجاجة أتبعها بجرعة وسكي وقال:

ـ حدثت هذه القصة منذ زمن بعيد، منذ ثلاثين سنة أو أكثر، لست أدري، وكان صديقي طفلاً، لا، بل مراهقاً يقيم مع عائلته في القرية حيث كان يعمل أبوه وكيلاً لدى واحد من آغوات ذلك الزمن، وكان الآغا قد توفي تاركاً وراءه ولداً وبنتاً والوكيل الأب، وكان ابن الآغا واحداً من محظوظي الزمان، جمال ومال وشباب، وكانت أخته التي تكبره أقل منه في كل شيء، في الجمال، وفي الرشاقة، وفي الشباب، فقد وصلت الثلاثين ثم توقفت عندها.

وأخذ الشاب يعيش حياة أبناء الآغوات، فكنت تراه بين فترة وأخرى، وقافلة من العربات تأتي إلى بيته في الضيعة، حيث ترى في هذه العربات

أجمل مغنيات الزمان، ومعهن العوادون والطبالون، والدربكاتية والمزاهرية، وكان ابن الوكيل يتلصص مع صبيان الضيعة على هذه الحفلات فكانوا يرون ولأول مرة النساء أنصاف العاريات في ثيابهن المحلاة والموشاة كاشفات الشعور عاريات الآباط، وهن يرقصن ويهزجن، فيقارنون دون إرادة بينهن وبين نساء الضيعة الخشنات لابسات السواد اللواتي تنبعث منهن دائماً رائحة الجلة ودخان القصب فيذوبون شوقاً يحلمون بمثل هؤلاء النساء ويعلمون ألا تحقق لهذا الحلم فهؤلاء للآغا فقط.

وفي أحد الأيام أراد صديقي أن يستفيد من ميزة كونه ابناً للوكيل فيجعل فرجته في مكان أقرب، فتسلل إلى بيت الآغا، وكمن على السطح يتفرج، كانت باحة الدار قد فرشت بالسجاد، وفي الصدر فرشت طنفسة عالية جلست عليها سيدة سمينة بعض الشيء مكشوفة الذراعين والصدر محلولة الشعر منشورته، صارخة الكحلة والحمرة، وإلى جانبها اثنتان، واحدة معها عودها، والأخرى دربكتها، وأسفل الطنفسة العالية جلس ثلاثة رجال حليقي الشوارب واللحى يلبسون صايات مقلمة باللون الزيتوني، وقد مشطوا شعورهم إلى الخلف – شاليش – أمسك واحد منهم ناياً والآخر قانوناً، أما الثالث والذي جلس إلى الجانب الآخر فقد أمسك عوده، وكان واضحاً أنهم قد مضى عليهم أمد طويل في جلستهم، فقد كانت رائحة العرق الصارخة منتشرة في المكان، وكانت المائدة متروكة أمامهم وقد نثرت عليها أنواع اللحوم والدجاج، وانتثر على أرض الدار كلها وأمام الجالسين صحون كبيرة ملئت فستقاً ولوزاً وبندقاً تحلب له لسان صاحبنا الذي لم يذق أشياء كهذه في حياته.

أما الآغا وضيوفه فقد جلسوا في الطرف المقابل، وقد اتكأ كلٌ على وسادة خاصة، وأمامه كأسه ومازته ونارجيلته يدخن منها بينما أخذت المغنية تغني:

يا مايلة على الغصن عيني سمرة سبيتينا

يحرق قليبه الهوى يما ايش عمل فينا

سموك ما انصفوا عيني سموك عرق الآس

أصيلة بين الشجر مشكولة فوق الراس

الرمل ما ينعجن عيني والشوك ما ينداس

والسر ما ينعطي إلا لناس وناس

وارتفعت الآهات من الحاضرين، يا عيني، يا عيني، أه شو هاد يسلم هالتم.

قامت المغنية بعد أن أشارت إلى فرقتها فأخذوا يدقون لها نغمة راقصة سريعة أخذ جسدها يهتز لها كله، الرأس والكتفان والصدر والبطن، أخذت ترقص وعيون الحاضرين تأكلها وفجأة علا صوتهم جميعاً يغنون معها.

يا جراد جاك السمرمر يا جراد جاك السمرمر

وأحس العالم يدور به، أهي رائحة العرق ما خدره؟ أم هو دخان النارجيلات الذي لفَّ المكان؟ أهو الرقص السريع؟ لا يدري، ولكنه أحس أنه يود أن يموت، فهل يمكن له أن يعيش من بعد أياماً بمثل هذا الجمال؟ أحس بأسى ونقمة غريبة تأكلانه، فلم كانت كل هذه السعادة للآغا فقط؟

تخلى عن الفرجة وعن الشعور بالانتصار على رفاقه الذين كانوا ويعرف أنهم هناك الآن مختبئين فوق الأشجار المطلة ووراء الجدران يتسمعون ويتلصصون في بهجة مسترقة.

استلقى على الأرض، ونظر إلى السماء، إلى السواد البعيد، ولكنه لم ير شيئاً، وتخيل أنه الآغا، وأنها ترقص أمامه، والمغنيتان تغنيان، وأن كل

هذا اللحم والشراب والفستق والدار، كل هذا له، أليس شيئاً رائعاً، ولكن لَم لا يكون؟

وأحس حركة خفيفة إلى جانبه، انتصب من رقدته، ورأى شبحاً أبيض يصعد السلم، ويدير نظره في المكان باحثاً، وتسمر، أراد الحركة، لم يعد ممكناً، كان الشبح قد أصبح على السطح، وأخذ يزحف بمؤخرته بعيداً عن الشبح، ولكن الشبح لمحه، وفاجأه الصوت يسأل هامساً.

- مين؟ من هنا؟

وصمت، لم يجرؤ على الرد، وجاء الصوت ثانية.

- حسين؟ هل رجعت؟

حسين؟ من حسين؟ ولكنه ظل صامتاً، كان الصوت نسائياً، صوت من؟ أهو... صوت أخت الآغا؟

- حسين، ردَّ علي أرجوك.

اتضح الصوت، إنه صوتها، وازداد رعبه، سوف يشنقونه الآن، سوف يجلدونه حتى الموت، لن يصدقوه، لن يصدقوا أي كلام يقوله، سيظنونه لصاً، أو متسللاً إلى الحريم، انكمش، فقد وصل بزحفه إلى سور السطح، ودَّ لو ينكمش ويصغر حتى يختفي، ولكن صوتها تابعه.

- حسين، لم لا ترد علي؟ ألا زلت غاضباً؟

أصبحت قريبة منه الآن، وكان نور القمر الصغير البعيد يضيء قليلاً، فاستطاع أن يميزها بشعرها المضفور وشلحتها البيضاء التي كانت تكشف كتفيها وصدرها وساقيها، وخاف أن تصرخ لو تكلم، ولكنها تقدمت، ساقاها كانتا طويلتين بيضاوين.

- حسين؟ هه، يكفيك تدللاً.

وانحطت إلى جانبه، وعندها فقط اكتشفت أنه ليس حسين.

- من؟ من أنت؟

ـ أنا؟ أنا لا أحد.

ـ من أنت؟ أنظر إلي، ييه وأطلقتها شهقة طويلة، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ألست ابن الوكيل.

وهزَّ رأسه بالإيجاب.

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما الذي جاء بك؟

أمسكته من كتفيه تهزه، فرأى صدرها يبرز خارج شلحتها، وأحس الدنيا تدور به، خاف، وتمنى أن يموت، الآن يضبطونه وهو ينظر إلى صدرها، ولكنه خائفاً؟ مرعوباً؟ مشتهياً؟ لا يدري دفن وجهه فجأة في صدرها وأخذ يبكي، توقفت قليلاً عن نهره وهزه لما رأته يبكي وأحست وجهه بدموعه الدافئة على صدرها، وتملكها شعور لا تستطيع وصفه، الأم، الأنثى؟ الحيوان؟ لم تتوقف أبداً لتفهم شعورها إلا أنها ضمته إلى صدرها، وأحس بنفسه يذوب بين ذراعيها، ضمَّته، ضمَّته حتى أحس عظامه تتحطم.

ـ ما الذي جاء بك؟ ما الذي جاء بك؟ قالتها في لين، ولم يردّ.

ـ هل جئت من أجلي؟

من أجلها؟ أيعقل؟ ولم يرد، بل ازداد التصاقاً بصدرها.

ـ هاه قل لي، من أجلي؟

وهز رأسه ولا يعرف ما الذي خطر له، ولِمَ هزَّ رأسه؟ أليجيبها بالإيجاب؟ بالسلب؟ لا يعرف، ولكنه انشدَّ إليها بفعله، بفعلها؟ لم يعد مهماً.

ـ بس يكفي، يكفي بكاء.

أبعدته قليلاً عنها، نظرت إلى وجهه، مسحت دموعه بكفها.

ـ مسكين، أرني وجهك، أنت جميل.

قبَّلته من خده، وأحسَّ رائحتها تفعمه، إنها المرة الأولى يشم رائحة

امرأة، أي امرأة غير أمه، وتشجع فقبلّها من خدها.

- آه يا ملعون تقبلني؟ ما أحلاك! كم عمرك؟

وكذب عليها.

- ستة عشر.

- ستة عشر؟

- همم، قالها مغمغماً.

- تعال ننزل إلى تحت.

- لا – قالها في نفرة – لا أريد.

- ولِمَ؟ المكان أهدأ تحت، أم تريد أن تتفرج على السهرة؟

- لا أريد، لا أريد النزول إلى تحت.

- أنت خائف؟

لم يرد بل ازداد التصاقاً بها، مشاعر جديدة من الطمأنينة، من الأمان، من الوعد بالسعادة بدأت تراوده وهو مشدود إليها.

- والآن قل لي، أجئت من أجلي؟

- نعم، وهزّ رأسه بالإيجاب، ولم يدر لم كان يكذب.

- أرني وجهك جيداً.

وأدارته إلى بقايا ضوء القمر.

- أنت جميل وبريء، كم عرفت من بنات القرية؟

- ولا واحدة، ولا واحدة، قالها في اندفاع يدافع عن نفسه.

- هذا أروع، تعال إلي.

وقبلته من فمه، أحسّ بفمها حاراً لزجاً قوياً، وهو يستولي على فمه واستسلم لها، كانت ذئبة حقيقية، ولكنه عرف المرأة ولأول مرة، عرفها في

عنفوانها، عرفها في اندفاعها عرفها في شهوتها التي لا تعرف حداً.

صمت قليلاً، ثم صبَّ لنفسه كأساً ثانية حرَّك فيها بقايا الثلج، كان الجو قد ابترد، فالليل قد تقدم، ولم يعد الثلج شديد الضرورة، جرع جرعة من كأسه، ثم ألقى بفستقتين في فمه، وتابع:

ـ كان يمكن للآغا الشاب أن يستمرَّ في متعه وسهراته هذه ما طاب له الزمن، لولا أنه اهتدى إلى طريق آخر للمتعة وهو القمار، بدأت سهرات الغناء والطرب تندر لتكثر سهرات القمار والسكر، وكان كثيراً ما يخسر ويفلس ويحتاج إلى نقود فيرسل وراء وكيله طالباً منه نقوداً، فيعتذر الوكيل، ويطلب منه أن يدبرها بأية وسيلة، وكانت الأية وسيلة هي التوقيع على كمبيالات بفوائد عالية، وكان لا بد من سداد هذه السندات، وبيع بعض الأراضي المتطرفة هنا أو هناك، ثم اهتدى الوكيل إلى أنه أحق ببعض هذه الأموال التي يربحها المقامرون من الآغا في آخر السهرة سكران، وكان الآغا هو الذي يلح عليه ليلاعبه، وخاصة في الليالي التي يعلو فيها الثلج فينقطع الأصدقاء عن القدوم.

فأخذ الآغا يلاعب وكيله، ولكنه ظل يخسر، وظل يوقع السندات وأخذت الأراضي المتطرفة تنتقل إلى صاحب السندات شيئاً فشيئاً، وأخيراً ملَّ الآغا من الضيعة، فقرر النزول للإقامة في المدينة فخلا الجو تماماً للوكيل، ولم تمض بضع سنوات حتى ظهر صاحب السندات، وإذا به الوكيل نفسه، وإذا به يصبح آغا جديداً.

ـ ولكن، لم تحدثنا، ماذا عن أخته؟ أم نسيتها؟

ـ أخته؟ آه، استمر الأمر بينها وبين ابن الوكيل فترة كانت المسكينة تتقدم فيها في العمر بينما يتقدم به الشباب وثروة أبيه فأخذ كآغا جديد يقوم بدوره في ملاحقة فتيات الضيعة وأحسَّت هي بذلك، وكادت تجن، فأخذت تلاحقه كالمجنونة من مكان لآخر، وأخيراً عرضت عليه أن تهبه حصتها على أن يتزوجها.

ـ وتزوجها؟

ـ همم، لا أعرف، أعتقد أنه لم يتزوجها.

نظرت النساء كل إلى الأخرى، ثم إلى الآخرين بشفاه مقلوبة، أهذا كل ما لديك يا عبود؟ نظر الجميع إلى خليل فقد أصبح دوره الآن، وعليه أن يتحدث، لم يلحوا، ولم يقولوا شيئاً، بل اكتفوا بأن ينظروا إليه في صمت.

هبت نسمة خفيفة لسعت الحاضرين، فقام سليمان ليغلق باب التراس، كان الأفق الأسود قد اختلط بلون حليبي خفيف بعيد، وأدرك أن الفجر قد اقترب، ولكن الشهب لم تتوقف، فقد ظلت محافظة على رسمها خريطة السماء، شهب نارية حمراء وملونة، أية ليلة هذه؟ ماذا تخبئ خلفها؟ أستكون الليلة الأخيرة؟ هل سيستطيعون إنقاذهم؟ أم سيظلون محبوسين هنا؟

سمع صوت ولاعة فالتفت، كان خليل يشعل غليونه، سحب عدة أنفاس أنارت صفحة وجهه قليلاً، ثم نفث نفثة كبيرة غلفت وجهه بسحابة شاحبة ما لبثت أن انجلت.

ـ كان معلماً، وكان ذا مظهر مهيب أضفاه عليه شيء في تكوينه، وبعض ضرورات العمل، فبدا أكبر من سنه، وكان القلب فتياً يانعاً، وكان إذا أمن المراقبة لاحقهن بعيونه مترقباً متفحصاً متذوقاً، ولم يكن يتجاوز هذا خيفة أن يساء الظن به، وكان في بيته معتكف خاص، شرفة خاصة، صغيرة تؤدي إلى مكتبته، وكان قد اعتاد في الأماسي أن يجالس كتاباً من الكتب المحببة إليه، ثم يعد نارجيلته فيضعها إلى جانبه، ويأخذ في التدخين والقراءة وتأمل البساتين والحدائق التي يشرف عليها من مرقبه إلى أن حدث انقلاب مزعج في حياته، فلقد قررت واحدة من الإرادات السنية أن تلغي الحدائق والبساتين وتحولها إلى بنايات، وبدأت المجزرة فجاءت البلدوزرات تكتسح الأشجار والحدائق تقلب عاليها سافلها، وتحيل الجنة الخضراء إلى سفوح ترابية ممهدة، وسرعان ما انتقلوا إلى العمل، وبدأت

بذور البنايات تنتش، واضطر أن يسافر في مهمة عاد منها ليجد البنايات قائمة، وتغيَّرت دنياه تماماً، فما كان معتكفاً أصبح مقهى عاماً إذ سكنت البناية المواجهة لبنايته تماماً، وكان من ساكنيها مراهقات ومراهقون أخذوا في تبادل التحيات والسلامات والسؤال عن آخر الأخبار والمغامرات، وبدؤوا يفسدون عليه جلسته، فصار يفارق معتكفه أثناء نشاطهم ليكتشف أن الوقت الذي يهجعون فيه ويوقفون حواراتهم كان في آخر الأماسي، فجعل لنفسه طاولة مضيئة وعاد سيرته الأولى.

وفي إحدى الليالي أوقفته فكرة فوضع الكتاب جانباً، وعمد إلى نارجيلته يعدل نارها ويطير رمادها، وترك عينيه تضيعان في الأفق يفكر حين سمع هسهسة إلى جواره، أجال النظر من حوله، لا أحد، ولكن الضحك الخافت ما لبث أن تكرر، نظر ثانية إلى البناية المواجهة مباشرة، وأحدَّ النظر، كان هناك شبحان يتحدثان في الظلام ويضحكان، فأسف لسوء حظه، ألم يحن وقت هجوعكما بعد؟

حوَّل عنهما نظره وعاد إلى نارجيلته، ولكن الهسهسة تحولت إلى ضحك نسائي متوتر، حوَّل إليه نظره، ولكنه لم يميِّز شيئاً، ثم أضيء ضوء داخل البيت ليكشف عن فتاتين في ثياب نومهما تثرثران، لاحظتا أنه ينظر إليهما فأشارت واحدة منهما إليه تحييه فارتبك، ترى، أهناك من رآها تحييه، وغرق ثانية في كتابه، ولكن ضحكة ملعلعة جرته ثانية من استغراقه، فالتفت إليهما، وقالت إحداهما للأخرى:

- يستمتعون بالكتاب إلى هذه الدرجة؟

وتوقف يحدق فيهما، فالتعريض واضح، أطفأ نور الشرفة، وأخذ ينظر إليهما، وكان نور شرفة يرتمي عليهما، فيظهرهما شبحين جميلين ملفوفي الرأس بالسواد، ثم قميص النوم الأبيض المنسدل على الجسم.

- حياة مع كتاب، أهي حياة؟ قالتها لأختها.

- البعض يفضلونها! — قالت الثانية في سخرية.

- ويتركون الحياة للكتب.

- آه، البعض يفضلونها.

ضحك في سره ضحكة خافتة، هيه، ألا يزال فيك مطمع؟ القلب واحة خضراء، ولكنها ضمن صحراء فرضتها على نفسك، أترى التواصل ممكن؟

ضغط على زر المسجلة يستمع إلى موسيقى، ولكنها غطت على صوتيهما فأطفأها ثانية، وتجمد عندهما لا يصنع إلا أن يحدق ويسمع.

- شباب مدفون في الورق!

كيف عرفت ذلك؟ اللعنة.

- كمن يعيش في الجنة مغمض العينين.

ها إني أفتحهما ملء سعتهما.

ناداهما صوت من الداخل استجابتا له فانسحبتا، وظل في مكانه المظلم يراقب وينتظر ويعيش مع الصوت، ولكنهما لم تعودا.

في الصباح التالي رابط في شرفته ينتظرهما، وما إن تناول إفطاره وقرأ صحف الصباح حتى ظهرت فتاة سمراء في الثامنة عشرة تقريباً، في قميص رياضي أبيض قصير يكشف عن بعض بطنها وبنطلون جينز أبيض، نظرت إليه وكان يحدق في الشرفة مباشرة، وحيّته بحركة من يدها خفيفة ووجد نفسه دون أن يفكر يرد على تحيتها.

دخّن سيكارة، وظل في جلسته، وفتح باب الشرفة، كانت من حيته تدفع الأخرى إلى الشرفة والأخرى تتمنع وأخيراً أصبحتا معاً في الشرفة، وقالت الأولى في جرأة: صباح الخير.

ورد في ارتباك داخلي: صباح الخير.

وأكملت الأولى: أنا سلمى، وهذه أختي ليلى.

فقال وهو يتمنى ألا يراهم أحد: تشرفنا، أهلاً وسهلاً.

- نريد أن نراك، كيف؟

- تريننى؟

- نعم.

- هذا شيء يسعدني، ولكن كيف؟

- هذه الكيف عليك، اسمع، ما رأيك في مقهى السبورتنغ بوي.

- حسن.

- طيب، ستكون هناك في الحادية عشرة، موافق؟

هز رأسه موافقاً، ولم يكن متحسباً لمثل هذا الموقف أبداً، ولكنه في الحادية عشرة إلا خمس دقائق كان هناك ومعه صحيفة يطلب قهوة أخذ يشربها ويتشاغل بقراءة صحيفته، ولكن أحداً لم يأت، وبدأ في التوتر معتقداً أن مقلباً دبر له.

نظر إلى ساعته، كانت الحادية عشرة وربعاً حين نظر إلى الطاولة المجاورة، كانت تجلس إليها تشرب كأس عصير، ولم يصدق عينيه، متى جاءت؟ وكيف؟ ولم لم تجلس إلى طاولته؟ كانت الفتاة الثانية والتي لم تحدثه أبداً.

نظرت إليه في ارتباك شجعه، فقام ليجلس إلى طاولتها.

- مرحباً، منذ زمن أنت هنا؟

- لا، جئت في الحادية عشرة، ولكنك كنت تقرأ.

وسخر من نفسه لسخافته، حتى في موقف كهذا يقرأ ويترك الحياة تسير.

- يا ستي، أنا آسف، لم أكن أظن أنك قادمة، أين سلمى؟

- انشغلت وهي تعتذر.

كانت جليسته سمراء في الخامسة والعشرين تقريباً تتفزز صبا

وحيوية، شعر أسود طويل جمعته في ضفيرتين لفتهما حول قمة رأسها وكانت عيناها عسليتين واسعتين وطفاوين.

اتقد المكان بنور هادئ، كانت نوال تشعل سيكارتها في لا مبالاة ضايقت المستمعين ولكن خليل انتظر صامتاً حتى حركت عود الكبريت في عصبية لينطفئ، ثم قذفته في منفضة السكائر واستراحت في مقعدها تستمع وتابع:

أحس بالسعادة فها هي صحراؤه تجد من يرويها أخيراً، أراد أن يقطع حبل الصمت معها، فقال:

- ولكني لم أرك سابقاً في الشرفة.

- ذلك أني قدمت مؤخراً.

- من أين؟

- من واحدة من بلاد النفط.

- وماذا كنت تصنعين هناك؟

- كنت مع زوجي.

- متزوجة؟

- نعم، لزوج يكبرني بأربعين عاماً.

- ولكن لماذا؟

- هذه إرادة أهلي.

- لماذا؟

- لماذا تظن؟ من أجل المال طبعاً.

- أهو غني؟

- إلى حد ما، ولكنه حين جاء إلينا نثر المال من حوله، فخدع الجميع، وظن أهلي أنها فرصة العمر، فلم يعرفوا كيف يطبقون العملية كما ظنوا، وبيعي كما فعلوا.

ـ ثم.

ـ إنك تفتح جراحاً قديمة.

ـ إن لم يكن في ذلك ما يزعجك فحدثيني.

ـ ذهبت إلى هناك لأكتشف أني واحدة في سلسلة من الحريم، وكلهن ذات أولاد تكثر منهن ليكون نصيبها أكبر في الميراث القريب، وما إن وصلت حتى اكتشفت أية كراهية يحملن لي دون أن يعرفنني.

ـ ضايقنك؟

ـ حاربنني حتى الموت، جعلتني أكره اللحظة التي ولدت فيها ثم جعلنه يكرهني أيضاً.

ـ ثم.

ـ لم أعد أحتمل، فما إن حانت الفرصة، ولم تحن إلا بعد خمسة أعوام و... جئت إلى أهلي، وأحسست الفرق، اكتشفته، أحسست الفارق بين الإنسان والحرمة، وحين وقفت على الشرفة ورأيت الرجال الآخرين، ورأيت النساء، ورأيت البساطة قررت أن أعيش.

ـ هاه، فهمت الآن.

ـ لا، لقد راقبتك لمدة طويلة وبدوت لي مهذباً ومثقفاً و...

وتوقفت فقد خجلت من هذه المصارحة قبل أوانها، ووجد نفسه يقول لنفسه: زغردي يا ملائكة السعادة زغردي لم يمت القلب بعد، ولا يزال في النفس مشتهى.

ورفعت نوال كأسها تشربه، ولكنها حين أعادته إلى الطاولة صفق زجاج الطاولة وكاد ينسكب.

ـ أنا آسفة – قالت بارتباك –

ولم يرد.

فرشفت رشفة صغيرة من عصير البرتقال وتابعت.

ـ قررت ببساطة ألا أعود، ورغم شوق أهلي فهم لم يروني لأعوام خمسة فقد أبوا علي ذلك، وكان رأيهم أن المسألة هانت، ولم يبقَ إلا أن يتوفى وأعود إلى بلدي ثرية، ولم أحتمل كلامهم، كان كلامهم إهانات، إهانات مقذعة ولم يقف إلى جانبي إلا سلمى، ولكني بعد ضغط أهلي وإلحاحهم وتجمع مجلس العائلة ضدي بدأت أضعف إلا أنها صممت وأخبرتني أنها ستجد لي السعادة بنفسها.

ـ اللعينة، إذاً فقد جعلتني طعماً – قال لنفسه – ولكن أية فريسة لأي مفترس! وسعد لهذا القدر الحلو، وقرر أن يتم اللعبة.

ـ كنت صريحة معك حتى لا تظن في الخديعة.

ـ بالعكس، كان هذا أروع ما فيك.

ـ إني خجلة منك.

وانفتحت في قلبه نافذة إلى السعادة اصطدمت بهذه البراءة البسيطة الصريحة.

ـ إنك لا تعلمين أي كنز سعادة تقدمين لي، اسمعي، ما رأيك لو دعوتك إلى الغداء؟

ـ أين؟

ـ في أي مكان في الضواحي.

ـ حسن، على ألا نتأخر.

وعلى الغداء كانت صامتة كمن شعر بأنه قد كشف من عريه أكثر مما يجب إلا أن وحدتهما الداخلية لم تلبث أن لقيت تجاوباً لديهما، وأحس أنه يعرفها منذ عشرات السنين، وتمنى لو يطلقها من زوجها ويتزوجها ويبدآن حياة جديدة يتخلى فيها عن تقشفه ويسعد ما تبقى من عمره.

أصبحت الشرفة جنة خاصة له، فيها يراها، وفيها يتفقان على اللقاء، ومنها ينطلقان، وإليها يعودان، اكتشفا المدينة من جديد، دارا في حاراتها، دخلا سينماتها، ضاعا في حدائقها، حفرا اسميهما على أشجارها.

- لماذا تمط في رومانسية القصة، حدثنا عن النتيجة، ماذا بعد؟ قال سليمان.

- لا شيء.

- ما يعني لا شيء؟

- يعني لا شيء، لأن أغصان شجرته اليابسة عادت إليها الخضرة، وبدأ يرى طعماً جديداً للعالم، وكان هناك شيطان صغير في أعماقه يدعوه إلى أن يسألها زيارته في البيت، ولكنه كان يخجل، كان يحس بالحرج، وكان يخشى الرفض ونتائج الرفض انقطاع الصلة، ولكنه وفي إحدى الأمسيات وقد تقدمت بهما السهرة سألها في حياء:

- ليلى، ما رأيك لو تغدينا معاً غداً؟

- رائع.

وتابع متلكئاً.

- لم تفهمي ما أريده جيداً، ما رأيك لو غديتني أنت؟

- تعني أن أدعوك؟

- لا، ولكن أريد أن أذوق طعامك.

- أن أرسل إليك بعض الطعام من بيتنا؟

- أوه، كم أنا غبي، لم أعنِ هذا كله (وأكمل بسرعة خيفة أن يتراجع) لو تغدينا في بيتي.

- آه، فهمت ولكن...

- لا أرجوك، ألغي هذه اللكن.

- حسن سأفكر.

- لا تفكري، دعي أمور القلب للقلب، لا تدخلي العقل فيها.

- حسناً، أعطني مهلة أستشير فيها نفسي.

ـ لا، أرجوك، أريد جواباً سريعاً.

ـ تريد جوابي ورأيي؟

ـ نعم.

ـ كنت أتمنى لو عرضت هذا عليَّ من قبل، إني أحترق شوقاً إليك وربما أكثر منك.

ـ حبيبتي، حبيبتي.

ضغط على يدها في حب، فلم يكن يملك أكثر من هذا أمام أعين زبائن المقهى... أوصلها إلى البيت.

ـ غداً، الساعة العاشرة، قالت له وهي تنزلق إلى مدخل بنايتها.

جلس في شرفته، أعدَّ نارجيلته، أعمل آلة التسجيل، وأخذ يستمع إلى باخ حين تناهى إلى سمعه صوت بكاء ونحيب وشجار ولعنات، ولكن أحداً لم يخرج إلى الشرفة، أحسَّ شيئاً غريباً يحدث، ولكنه لم يرَ أحداً، خاف أن تكون سهرتهما السبب في الشجار، وطال البكاء وصوت الرفض حتى اختفى.

ظل في جلسته تلك حتى الواحدة، الثانية، ليس يدري لأنه غفا في جلسته حتى لذعه برد الصباح ليكتشف أنه لا يزال على كرسيه، فدخل إلى غرفة النوم، ونام، نام؟ ليس على يقين من ذلك، إذ أن وعد السعادة ذلك لم يفارقه، ليلى في بيته؟ ليلى البراءة، البساطة، الحلاوة، الأنثى؟

حين أفاق كانت الشمس في أوجها، نظر إلى ساعته، العاشرة والنصف، كيف؟ كيف نام كل هذا الوقت؟ لم تأخرت؟ نظر ثانية إلى ساعته العاشرة والنصف، لا مجال للشك.

اغتسل وحلق، وغير ثيابه بسرعة، وانتظر، الحادية عشرة، الثانية عشرة، لا أحد.

وتحول مكوكاً يغزل بين الغرفة وبين الشرفة، لا أحد، الواحدة

الثانية، وأيقن أنها لن تأتي، وأحس بندم كئيب، إنه السبب، هو الذي أراد تلويث العلاقة بينهما، لَم أراد ذلك؟ لَم؟ ها هو يخسرها، وربما إلى الأبد، أية لعنة!

الثالثة، الرابعة، وخرج من البيت قبل أن يجن، زار أصدقاءه كلهم، ولم يمكث لدى أي منهم أكثر من دقائق، لم يطق الوحدة، ولم يطق الناس.

عاد إلى البيت، كانت الساعة الثانية عشرة، ولم يجرؤ على الدخول إلى الشرفة فاسترق النظر من وراء الستائر، كانت الشرفة مظلمة شاحبة، وكان البيت كله مظلماً، لعلهم ناموا.

دخل غرفته، رغب في النوم، النوم المستحيل، أشعل النور، قرأ، سمع موسيقى، شرب، ولكن عبثاً، فلقد خسر، وخسر كثيراً، خسر الهدوء، خسر الثقة بالنفس، وخسر الوعد بالحب.

- ثم ماذا؟ أتعبتنا!

- لا شيء، كما قلت لكما، في الصباح وجد رسالة في شرفته، رسالة بسيطة قصيرة يبدو أنها قد ألقيت إليه من الأمس.

((أنا آسفة، لقد جاؤوا لأخذي، حاولت الرفض، قاومت، الجميع ضدي، إنهم أقوى مني، يبدو ألا أمل لي في الحب، هل نلتقي ثانية؟ لا أعرف، أتمنى، وإن اعتقدت أن قوة كبيرة لا تريد ذلك.

وداعاً.. ليلى.))

رفع كأسه إلى فمه، وجرع جرعة كبيرة ألحقها ببعض حبات فستق، ثم أشعل غليونه، وأخذ يدخن في هدوء.

- ثم ماذا؟

ـ انتهيت.

ـ أهذا كل ما لديك؟ أية خيبة؟

ـ قصة حزينة فعلاً.

ـ ولم يسمع عنها شيئاً من بعد؟

حملت نوال كأسها واتجهت به إلى التراس فلاحقتها سليمة بنظراتها، ثم حملت كأسها، ولحقت بها، لذعهما برد الصبح.

ـ لندخل – قالت سليمة.

ـ لا – قالت نوال.

ـ ولكنه برد.

ـ ادخلي.

ـ أهناك ما يضايقك؟

ـ لا، لا شيء.

وجاءهما صوت سليمان.

ـ أدخلا إكراماً لله، أو أغلقا الباب، فقد بردنا.

وسمعا صوت حركة تتجه إليهما، ترددت نوال قليلاً، ثم حزمت أمرها ورجعت، ولكن خليل كان قد وقف في فتحة الباب ينظر إليهما، ثم حوّل نظره إلى السماء، ولم تحتمل سليمة البرد، فعادت إلى الصالون، نظر كل منهما إلى الآخر هنيهة، ولكن صوت سليمان جاءهما ثانية.

ـ ألن تغلقا هذا الباب! إكراماً للملائكة؟

تحركت نوال من مكانها لتدخل، وكان خليل يسد الباب بجسمه، ولكنه استدار عند اقترابها بجسمه وعاد إلى مجلسه السابق، أشعل غليونه متجاهلاً عودتها إلى مكانها، ولكنه انتبه إلى حفيف خفيف، كان عبود يشخر بهدوء، فلقد أسند رأسه إلى ظهر المقعد ونام، وإلى جانب

إلهام كانت سليمة قد اتكأت على كفها المستند إلى ذراع الكنبة وأغمضت عينيها بينما اختفت نوال في غرفة النوم.

قام إلى التراس ثانية، فتح الباب، وهبّت نسمة رقيقة باردة اقشعر لها، وأغلق الباب وراءه بسرعة، كان المصاب أوقع مع نور الصباح فقد كشف عظم الضربة التي أصابت البناية، الجدار الخارج للشقة تهاوى تماماً، البحرة لا تزال تنزف من نافورتها المستلقية على الأرض، أما النباتات المتسلقة فقد تساقطت على الأرض بشكل عشوائي، أحس وكأنها نهاية العالم.

تقدم من سور التراس، نظر إلى المدينة، الانفجارات، الطلقات، الحرائق، الدخان، شيء عجيب، ما الذي يجري؟ ولم لا يشاركون فيما يجري، ولِمَ هم سجناء هكذا؟ من المهاجم؟ من المدافع؟ من القاتل ومن القتيل؟ أليس من طريقة للتواصل؟ أليس من سبيل لإنجادهم؟

قرر أن يبحث عن طريقة يستطيع أن ينزل بها إليهم، كان ركام الجدار الخارجي كافياً لاعتلائه فعلاه، نظر إلى مستديرة الدرج، الركام غطاها حتى سدها تماماً، استعان بذراعيه، وقفز عن السور، المصعد تحت بعيد بعيد، وكان بابه الحديدي قد انثنى إلى الداخل فصنع سداً أقفل حتى حفرته التي كان من الممكن أن يتدلى عبرها أحد، رمال وحجارة وكتل اسمنتية، وقضبان حديدية ملتوية وممزقة وملتفة انكشف عريها بقوة التمزق ولا شيء آخر.

بحث بعينيه عن شرف أخرى، عن شقق أخرى، ولكنها العزلة، العزلة الخانقة أرادوها متعة فكانت قبراً.

علا كومة الرمال ثانية، تعلق بالجدار، عاد إلى الجماعة، نظرة أخيرة إلى المدينة، المدينة التي كانت جميلة، الشوارع الطويلة، الأشجار، طلقات النيران، الهاونات، الرشاشات، أغمض عينيه يهرب من المنظر بمجمله.

عاد إلى الغرفة، كانت النساء قد مضين، فحدس أنهن قد ذهبن لينمن في غرفة النوم بينما اتكأ أو اضطجع الباقون نائمين في أماكنهم.

اضطجع يستند إلى مؤخرة المقعد ماداً رجليه إلى الأمام، وهبت نسمة من الباب الموارب ارتعشت لها شعلة الشمعة قليلاً، ولم تلبث أن انطفأت تاركة فتيلاً من الدخان الأبيض يعرش إلى العلاء متعرجاً قليلاً ثم لا يلبث بدوره أن ينقطع.

سبحت الغرفة في الضوء الشاحب الذي أخذ يغزو الغرفة، وأحس خليل بأجفانه تتثاقل.

ليلةُ الحَرْبِ

انتبهت نوال إلى حركة في السرير المجاور، ففتحت عينيها، نظرت إلى جارتيها، ما تزالان نائمتين، أشعلت لنفسها سيكارة، واستندت إلى السرير بظهرها متأملة الوضع الجديد، الفخ الذي وقعوا فيه جميعاً.

حين نفثت نفثتها الثانية من سيكارتها التفتت إليها سليمة وقالت بصوت مبحوح:

ـ ناوليني سيكارة.

أعطتها العلبة مع الولاعة.

ـ لم تنامي طويلاً – قالت سليمة.

ـ أي نوم، وهذه الانفجارات لم تتوقف لثانية، أكثر ما أخافه ألا تصمد هذه البناية وتقع تحت انفجار ما.

ـ لن تقع، صدقيني.

ـ ولِمَ؟

ـ مثل هذه الكائنات – وأشارت إلى الصالون – تحتاج إلى أكثر من هذا لدمارها.

صمتت نوال، ولم تردَّ بينما أخذت تدخن في استغراق، ثم التفتت فجأة إلى سليمة.

ـ ألا زلت مصممة على الانفصال عنه؟

ـ أعتقد ذلك.

- ألن تندمي؟

- لا شيء يستحق الندم.

- جننت به طويلاً فيما مضى.

- كان ذلك فيما مضى.

- لا أعتقد أنك صادقة تماماً، أعتقد أن جزءاً صغيراً فيك يقرصك بين الحين والآخر، جزءاً داخل الدماغ، داخل مخزن الذكريات، داخل أحلام المستقبل التي رسمتماها معاً سيعيد إليك الذكرى والندم.

- حسن، إن علاقة تستمر لأربع سنوات، لا يمكن أن تلغى ببساطة لمجرد أنّا أردنا.

- سليمة قولي الحقيقة، ما الذي أحببته فيه؟

- هو هوه، كان في دياب شخصين، شخصين منفصلين تماماً، الطفل، والرجل وكنت أحب فيه الطفل، وأكره فيه الرجل، المرة الأولى التي استطاع أن يدخل فيها إلى قلبي — ورغم إعجابي الشخصي بشعره، ورغم شهرته، ورغم... فإنه لم يستطع جعلي أقتنع به، كان فيه شيء مزيف، قطعة ممثل — حين دعاني مرة إلى نزهة في الضواحي حيث نزلنا من الباص، ولم يكن معنا إلا حقيبة صغيرة فيها عدد من الشطائر وزجاجتا بيرة، ولم أكن أعرف أن معه زجاجة عرق أيضاً.

جلسنا على ضفة النهر، تحدثنا ما طاب لنا الحديث، عن ذكرياته، عن طفولته عن قريته، عن أهله البسطاء، عن الأحلام والمظالم التي حاقت بهم، وبدأ قناع الشاعر المستهتر والذي يحاول أن يظهر فيه أمام الناس يتلاشى، ومشينا على ضفة النهر، مشينا كثيراً، وكأن حديثه عن طفولته هزه، فعدنا إلى حيث حوائجنا وأخذ يشرب، جاريته قليلاً ولكني لم أستطع المتابعة فقد كان وحشاً في الشراب، يشرب العرق صرفاً، وانتهى كل ما معنا من شراب، تمدد قليلاً على الأرض، ثم وكأن الأرض القاسية أزعجته فقد التفت إلي من مرقده، وبعيني طفل زرقاوين قال لي:

ـ سليمة، أيمكن أن أنام على رجلك؟

وقدمت له فخذي لينام عليها ظانَّة قوله مداعبة، ولكنه ولغرابته نام، أتصدقين ذلك؟

نظرت إلى نوال، ثم إلى سيكارتها، وكانت الجميرة فيها قد وصلت إلى الفلتر، دفنتها في الصحن الممتلئ بأعقاب السكائر، وقالت نوال:

ـ لقد أصبحت مستعدة لتصديق كل شيء.

ـ ولكن أن يأخذ عاشق عشيقته إلى نزهة ريفية فينام على فخذها دون اهتمام بما يمكن أن تحس؟ ستقولين أنانية، وسأقول لك الطفل، الطفل فيه ربما كان الأناني، الطفل البسيط البريء الذي يظن العالم مكرساً له فقط، ولا يعتقد لثانية واحدة أن للآخرين وجوداً، وتضايقت، وحاولت القيام، ولكن كيف أمضي وأدعه؟

أشعلت سيكارة وهدأت قليلاً: حدقت في وجهه، وجه بريء نحيل صغير أبيض حتى الشحوب، بشفتين رقيقتين ارتخت إحداهما وبدأ صوت تنفسه يعلو، كانت فخذي أعلى من أن تريحه في نومه، ولكني لم أشأ التحرك، دخنت سيكارتي الثانية والثالثة، بدأ الظلام يجلل المكان، كانت أشجار الصفصاف والحور تحيط المكان بسور من الظلمة الخضراء، وكان صوت خرير الماء الهادئ يعلو شيئاً فشيئاً، فقد هدأت الأصوات الأخرى وأخذت ضفدعة تنق هنا أو هناك، وأخذت أعصابي في التوتر، تقلب في رقدته قليلاً، فتحركت وأحس أنه نائم على ساقي، ففتح عينيه في دهشة وسأل:

ـ نمت طويلاً؟

ـ لا، ليس طويلاً، هل نمضي.

ـ يلله.

جمعنا حوائجنا وانحدرنا مع الطريق، لم تكن هناك سيارات فاضطررنا إلى المشي، وكنت قد حزمت رأيي فما إن وصلنا المدينة حتى

صاحبته في سيارة إلى منزله حيث تزوجنا في اليوم التالي.

- ثم؟

- لا شيء، أخذت نوبات الطفل تتباعد، وأخذت أتعامل مع الرجل، مع الرجل القناع، مع الرجل اليد، مع الرجل اللسان، مع الرجل الأصدقاء، وبدأت أندم، ولكني كنت حملت منه بطفلي الأول.

سكنت قليلاً، أشعلت سيكارة، وقامت نوال في شلحتها إلى براد صغير في غرفة النوم، فأخذت زجاجة منه، شربت، وعرضتها على سليمة، ولكنها هزت رأسها رافضة، وعادت إلى مجلسها.

- ذهبت مرة إلى قصر الثقافة حيث كان مدعواً لإلقاء بعض قصائده ولم أستطع مرافقته فوصلت متأخرة وكان يجلس إلى الميكروفون فلم أعرفه، هل تصدقين؟ لم أستطع معرفته إلى أن سكت قليلاً، كان حلقه قد جف، فأخذ كاس ماء كانت أمامه، ورشف منها رشفة وفي هذه اللحظة عرفته فقد هدأت ملامحه، وسكنت نسماته وعرفته، ثم اندفع مرة ثانية ليختفي الوجه تحت قناع الشاعر الزائر الثائر العاشق، ولكن هذا كله لم يفعل بي شيئاً، فقد كنت أنتظر أن يجفّ حلقه ثانية فأرى الطفل، ولكن حلقه لم يجف.

حينما انتهى، والتفّ حوله الأصدقاء، هذا يهنئه، وهذا يشجعه، وهذا يستفهم منه عن أشياء، رأيت القناع، القناع الملعون يغطي ملامحه كلها، سحنته، عينيه الطفيليتين، شفتيه الرقيقتين، كل شيء فيه، واستدرت أعود إلى البيت فما كنت أريده ساعتئذ، ولحظني فلم يتركني أمضي.

- سليمة، إلى أين تمضين؟

- إلى البيت.

- ألا تنتظرينني فنذهب سوية؟

- لا أعتقد ذلك ضرورياً.

وبدأت أحس الغربة عنه، بدأت أحس أني خدعت، ولكن كيف العمل؟ كيف أستطيع التحرر من إساره؟ لم أكن أجرؤ على التفكير في الطلاق.

ـ كنت شرقية التفكير.

ـ لم أكن شرقية تماماً، ولكني لم أملك الجرأة.

صمتت قليلاً كمن يسترجع شيئاً قديماً:

ـ جاءني مرة، وكان سكران، ولم تكن المرة الأولى، فلطالما جاءني سكران، ولكنه كان منطفئاً في هذه المرة، أوصله أصدقاؤه إلى البيت، ومضوا، أسندته إلى كتفي، وأدخلته إلى غرفة النوم، ويبدو أنه كان قد قاء في الطريق فقد كانت ملابسه ملوثة، فخلعتها عنه وألبسته بيجامة نظيفة، مسحت له وجهه، ورأيته ثانية، الوجه، وجه الطفل، الوجه القديم، الوجه البريء، الشاحب، وقفز قلبي مثقلاً بكل ما حمل له من عواطف كامنة، وأخذت أقبله حتى أفاق، ولم يكن قد تمالك وعيه تماماً حين أخذنا نمارس الحب، واتحد الجسدان كبحرين اندفقا، كعالمين اشتاقا أبداً كل منهما إلى الآخر، ارتعش الجسدان، واندمجت النفسان، وأحسست ساعتئذ فقط أني امتلكته تماماً.

حين أفاق في الصباح وأدرك الضعف الذي كان فيه، وكيف كنت المرأة الأم القوية المسيطرة السيدة جن جنونه، واندفع من البيت مجنوناً، وحين رجع في منتصف النهار كان سكران، وأقدم على ضربي، وكانت المرة الأولى، ولم يكن ضرباً عادياً، بل كان ضرب وحش أراد الانتقام لجرح في قلبه، واندلعت النار التي أصبح واضحاً أنها لن تنطفئ، ولم يعد هناك من مهرب إلا الطلاق، وأخذ الطريق يتضح أمامنا حين اختفى فجأة.

ـ اختفى.

ـ نعم، اختفى، ببساطة، وأهملت الأمر ظانة أنها إحدى نزواته إلى أن زارني خليل بعد أيام ثلاثة ليخبرني أنه سجين، ولم أصدق، سجين؟ لماذا؟ وما كان بإمكانه أن يصنع؟ ولبرهة قصيرة أحسست بفرحة صغيرة

خفية عني، لقد عاد، عاد إلي طفلي الحبيب، طفلي العاجز، طفلي الضعيف، طفلي الذي يحتاج إلى المساعدة، وأخذت أسعى لزيارته، أسعى بكل الطرق، طرقت الأبواب، هددت، اتصلت، رجوت، توسلت، وأخيراً وبعد ثلاثة شهور سمحوا لي بزيارته.

وكان الفردوس، كان دياب هناك، في ذلك القبو المعتم الصغير المقبض مستلقياً على سريره شاحباً نحيلاً، ومدَّ يده إلي، وأسرعت أضمها إلى قلبي:

- حبيبي.

- سليمة.

- حبيبي.

- سليمة.

وخرج الضابط متأدباً، واستغربت، فلم يكن هذا ما أعرفه عن ضباط السجون، ولكن دياب كان قد استطاع أن يحفر لنفسه مكانة خاصة لديهم كلهم بقناعه الخاص، أما لديَّ فقد عاد الطفل ثانية.

- حبيبي.

- انتظرتك طويلاً.

- هل عذبوك؟

- قليلاً، كيف يدور العالم في الخارج؟

وماذا أقول عن العالم في الخارج؟ عن أي شيء أحدثه؟ لم أكن أريده أن يتصل بذلك العالم، كنت أريده هنا، جنين الأرض، الطفل الحبيب، لا ذلك الرجل القناع، الرجل اليد، الرجل الشراسة، الرجل الأصدقاء، لا، لم أكن أريده ذلك الرجل أبداً.

أطفأت نوال سيكارتها، وثنت ذراعيها إلى الخلف، فوضعت كفيها تحت رأسها، وأخذت تفكر – إنها شجاعة – لقد قررت وها هي تريد تركه، وأنا؟ هل أتركه؟

ـ وأنت ما مشروعاتك؟ سألت سليمة.

ـ لا أدري.

ـ سمعت أنكما ستتزوجان.

ـ وأنا كذلك، سمعت.

ـ سمعت فقط.

تقلّبت إلهام في رقدتها فواجهتهما، كان وجهها تعبان شاحباً.

ـ هيه، أليس لكما من حديث إلا الرجل؟

ـ وهل هنالك من حديث آخر؟

ـ آه، لست أدري، ولكنه لا يستحق كل هذا الاهتمام.

ـ من؟

ـ الرجل، ذلك التافه الأناني المغرور، يظن العالم يدور على محور واحد هو عضوه.

ضحكت نوال وسليمة في مجون.

ـ رائع، حلوة هذه الصورة.

وجاءهم الصوت من الصالون.

ـ هيه هل استيقظتن؟

ـ على وشك.

ـ لقد أيقظتنّنا.

ـ ما رأيكم بفنجان قهوة؟ كان هذا نبيل.

ـ حسن، المطبخ أمامك — قال سليمان بهدوء.

ـ أنا؟ إن قهوتي رديئة جداً.

ـ لا بأس، سنشربها، كل ما نريده هو أن تصنع شيئاً.

ـ سأصنع أنا القهوة، كان صوت عبود.

أنصتت النساء إلى الحديث في ترصد تآمري، كن يتوقعن أن واحداً من الرجال سيفترض أنهن سيصنعن القهوة، ولكن يبدو أنهم عرفوا أنهن مستعدات للشجار فتركوهن.

سمعن صوت دوران الملعقة في إناء القهوة، فقمن وأخذن يلبسن، كان الفستان الأخضر الفراشة قد تحول إلى فراشة سقطت في نهر موحل، فقد تجعلك الفستان وتلوث، ولكن لم يكن هناك غيره، أما ثوب سليمة البيج مفتوح الرقبة والذي يجمعه إلى رقبتها قطعة من المطاط انقطعت فتهدل على كتفيها في عرى وقح كشف جمال عنقها.

لبست إلهام تايورها في هدوء، وخرجن إلى الصالون، كانت رائحة القهوة الزكية تضرب على أعصابهم جميعاً.

ـ هل نشربها في التراس؟ قال سعيد.

ـ ولكن الرمال والحجارة والمياه.

ـ أعرف، ولكن التراس أنشط.

ـ حسن.

قاموا إلى التراس يحملون كراسيهم، أزاحوا بعضاً من الكتل الإسمنتية ولاحظ خليل أن مياه نافورة البحرة قد توقفت، ولم يهتم، فلا بد أن أحدهم قد أوقفها.

أخذ كلٌ فنجانه، وكان هناك بقايا من الكعك المملح أخذوا يقضمونه مع القهوة.

ـ كيف تظنون الأمر ينتهي؟ قال نبيل.

ـ لا أحد يدري، الغريب في الأمر أنَّا قد حُجزنا فجأة هنا فلا ندري ما يجري تحت، وأسوأ شيء أن سليمان لا يمتلك راديو — قال دياب.

ـ أنا أكره الراديو وسوقيَّته.

ـ ولكنا الآن في حاجة إليه — قال نبيل.

ـ وما يدريني أنّا سنحتاج إليه؟

ـ لو كان هناك راديو كنا عرفنا ما جرى وما يجري، من شارك ومن مانع، من وافق ومن رفض.

ـ بعد أن نرتاح قليلاً سنحاول إيجاد طريقة ما للهبوط.

ـ طبعاً، لا بد أن هناك طريقة ما، قال نبيل في اندفاع.

ـ لا طريقة هنالك أبداً — قال خليل.

ـ كيف؟ كيف؟ قالوا في انزعاج.

ـ صحوت قبلكم وبحثت، مستديرة السلم مغلقة تماماً، والمصعد منقطع في الأسفل.

ـ سينزلق واحد منا على حبل المصعد، ويطلب النجدة لنا.

ـ حتى هذه فكرت فيها، لقد انثنى باب المصعد فأغلق الطريق.

ـ اللعنة، ما يعني هذا؟ هل سجنًا هنا كفئران؟

ـ لا أمل لنا إلا في لفت أنظارهم إلينا.

ـ كيف؟

ـ فكرت أن نشير إليهم بعلم ما.

ـ عظيم فكرة معقولة.

ـ ولكن ما اللون الذي تقترحونه؟

ـ اجعلوه أبيض حتى يعرفوا ألا دخل لنا في القتال.

ـ معقول.

عمدوا إلى واحد من الشراشف فربطوه إلى عصا أخذها خليل وأخذ يلوّح بها إلى المدينة تحت، ولكن أحداً لم يهتم بها، تقدم نبيل فأخذ العصا ودلّى نفسه والعصا إلى الخارج أكثر فأكثر، وأخذ يلوّح بها، ولكنه فجأة

سمع صوت ضربات صغيرة عليها، انسحب معها بسرعة حين سمع صوت الطلقات كان الشرشف الأبيض قد رصع بثقوب صغيرة سوداء.

ـ كادوا يقتلونني، يخرب بيتهم، كان مضطرباً حقاً حين وضع العصا والشرشف على الأرض.

ـ الأمر جدي إذاً... كادوا يقتلونني.

ـ ولكن، ما معنى هذا؟ ـ قال عبود.

ـ معناه أنهم يرفضون العلم الأبيض — قال خليل.

ـ وأي نوع من الأعلام يريدون؟

ـ لا أدري.

ـ دعونا نجرب الأحمر.

ـ آه فعلاً دعونا نجرب الأحمر.

بحثوا عن قماش أحمر، فلم يجدوا إلا مفرش المائدة، رفعوا الأطباق والكؤوس، وربطوا المفرش إلى العصا وتقدم بها سليمان محاذراً، ولكنه ما كاد يدليها خارج سور التراس حتى انتثر الرصاص من حوله.

ـ اللعنة، إنهم يرفضون هذا العلم أيضاً.

ـ عندي فكرة، قالت سليمة.

ـ ما هي؟

ـ ضعوا العلمين معاً، فلعلهم يقتنعون بسلامة نوايانا.

ضُمّ الشرشف إلى المفرش ورُبطا إلى العصا، أخذ سعيد العصا، ودلاها محاذراً، ولكن الطلقات لم تمهله، جرّها بسرعة ورماها إلى الأرض.

ـ اللعنة، إنهم يرفضون حتى المصالحة.

ـ دعونا نجرب لوناً آخر — قال عبود.

ـ أي لون؟

ـ نجرب الأخضر.

ـ ولم الأخضر.

ـ لون الطبيعة ... لا علاقة لنا بحربهم وسياستهم.

ـ معقول، ولكن أين نجد اللون الأخضر الآن؟

حدقت العيون بنوال، وانتبهت فجأة إلى أنهم ينظرون إلى ثوبها فصرخت ضاحكة:

ـ لا، كل شيء إلا هذا.

ـ ليس لدينا غير ثوبك.

ـ وأنا ماذا سألبس؟

ـ سنستعيره منك، نلوّح به ثم نعيده إليك.

ـ وإن سقط منكم؟

ـ سنحكم رباطه.

ـ لا تلبسي شيئاً، ظلّي في غرفة النوم إلى أن نعيده إليك.

ـ تضطهدونني – قالت مستسلمة.

ـ لا اضطهاد ولا يحزنون، قومي، قومي – قال سليمان ضاحكاً.

دخلت إلى غرفة النوم، ولحقت بها سليمة التي أخذت الثوب، وعادت به إليهم، أخذه سليمان، فربطه إلى العصا، وتقدم من السور محاذراً، ولكن ما كاد يلوّح به فوق السور وقبل تدليته حتى انهالت عليه زخات الرصاص، فانقلب عائداً، وصرخت نوال من الداخل:

ـ هل ثقبوه؟

كانت رائحة دخان خفيفة تفوح منه، فلقد ثقب في أكثر من موضع.

ـ كيف سألبسه الآن؟

ـ لا تهتمي، لقد غدا أجمل – قال نبيل يحاول المزاح.

ـ ولكن ما معنى هذا كله؟ ـ قال خليل.

ـ إنهم لا يريدون أن يعرفوا من نحن.

ـ ولكنهم ليسوا نفس الجماعة.

ـ أتظن ذلك؟

ـ طبعاً، فلقد جاءت الطلقات من جهات مختلفة، كل جهة تطلق النار علينا ظانة أنَّا من الخصوم.

ـ يا سلام، وبعد؟

ـ لا فائدة، يجب أن ننتظر حتى يهدؤوا ويجدوا لنا حلاً.

ـ وماذا إن طال الأمر عليهم؟

ـ فكروا في طريقة أخرى.

ـ سنبحث عن مخرج، قال عبود، واندفع إلى سور التراس.

لحقوا به، قفزوا عن السور صاعدين فوق كومة الرمال، وبقي خليل والهام.

ـ فخ حقيقي — قالت إلهام.

ـ أأنت زعلانة؟

ـ علام؟

ـ على هذا الفخ.

ـ لم يعد يهمني شيء.

ـ لاحظت أنك مكتئبة منذ الأمس. أهناك ما يزعجك من نبيل؟

ـ نبيل؟ لا، لا شيء بيني وبينه على الإطلاق.

ـ وإذن.

ـ لا، لا شيء.

ـ لم لا تتبنيان ولداً؟

ـ نتبنى ولداً؟ لماذا؟

ـ يسليكم، ويضيف شيئاً من الحياة إلى حياتكم.

ـ نتبنى ولداً؟ وتظن ذلك محقق شيئاً؟

ـ ولم لا؟ هل أكون متطفلاً لو قلت إني أحسست أنك تضطربين كثيراً عندما تسمعين عن الأطفال.

ـ أحسست ذلك؟

ـ أجل.

ـ هيه يا خليل، تلك قصة طويلة، وأظن أنك تعرف بعضها.

ـ في لوحاتك التي أريتنيها.

ـ نعم.

ـ لقد أحدثت في قلبي جرحاً منذ ذلك الحين.

سمعا صخبهم وهم يلعنون ويصخبون.

ـ لا فائدة، لا فائدة، كأنها بيد مدبر، لقد أغلقت علينا كل الأبواب.

ـ لا بد من طريقة، لا بد من طريقة.

وسمعا صوت إزاحة حجارة وركام وموجة من غبار ترتفع.

ـ خليل، لمَ أنت وحيد؟

ـ إلهام، لم أنت وحيدة؟

ـ تعيد عليَّ سؤالي نفسه.

ـ وأنتظر الجواب.

ـ ولكني لست وحيدة، لدي نبيل.

ـ وإني أسألك لم أنت وحيدة، إلهام – واقترب منها قليلاً، وتابع:

- كم رأيت من رسوم وقرأت من أدب، ولكني لم أحس أبداً بهذه الوحدة وهذا الخواء وهذا الفراغ الذي أطل عليَّ من رسوماتك.

- لم أنت وحيدة؟

أحست إلهام بالانهيار ثانية.

- خليل، غيِّر هذا الحديث.

- كانت أول لوحة وقفت عندها طويلاً، ولست أدري متى رسمتها، ولكن الغزال الفارَّ من الصيادين واللاجئ إلى بحيرة يقف مرفوع الرأس مشدود الرقبة واسع العينين من الذعر، والصيادون يتقدمون منه في بطء بينما وقفت الكلاب عند حافة البحيرة تحاصر أية فكرة للفرار لديه.

- أوقفت عندها؟

- كثيراً، ومنذ ذلك الوقت، وأنا أحسُّ أن هذا الغزال مسكين، ورغم كل هذا الحصار المفروض عليه وهجوم المفترسين إلا أن كوة ما للخلاص تنتظره.

- الخلاص هناك — وأشارت بذراعها إلى المدينة خارج التراس.

- كيف؟

- كيف؟ لا أدري، خلاصي هناك، أتعرف يا خليل؟ أحسُّ أحياناً برغبة عنيفة، عنيفة جداً لا تقاوم إلى أن أرتاح، وأرتاح تعبت، تعبت كثيراً.

- ولكن، إلهام، لماذا؟

- لماذا؟

نظرت إلى الأفق الملوث، فتقبَّض ما بين عينيها كمن يعاني من صداع أليم.

- لماذا؟ كررت ثانية — لا أعرف، ولكنَّ في القلب جراحاً آن لها أن تندمل.

ـ لا أفهمك.

ـ ظننتك فهمتني!

صمتت قليلاً بينما علا صوتهم يشتجرون يحاولون الخلاص.

ـ دخلت حياتنا في هدوء، كالفراشة، لا تحس لها وقعاً، ولكنك فجأة تكتشف لها وجوداً.

ـ من؟

ـ أين؟

ـ لا تسأل أرجوك.

ـ متى؟

ـ كان ذلك منذ سنوات طويلة، حين كان يعمل معلماً.

ـ نبيل؟.

لم تجب، بل تابعت شرودها قليلاً.

ـ موجة حنان، إشراقة صبا، ملأت بيتنا الهادئ فجأة بالحيوية، أحببتها، ولست أدري أيّ حب حملها إلي، أو حملني إليها، الصديقة؟ لا، لقد كانت أصغر، الابنة؟ لا، فقد كانت أكبر، الأخت؟ لا، فقد كانت أقرب، الحبيبة؟ لا، فلم أكن أفكر.

علا صوت عبود.

ـ أما من مجرفة؟

ولكن وكأنها لم تسمع تابعت.

ـ جاءت بها أمها تأمننا عليها، ولنمنعها عن عيون شباب القرية قليلاً، ولتأخذ عنا بعض الدروس، ولكني لم أكن أعلم أن عليَّ أن آخذ عنها الدروس الكثيرة، الدروس عن الحياة، عن البراءة، عن الانطلاق، عن التكامل مع الربيع، مع النهر، مع الزهر، مع كل شيء حولها، كانت

يدها خضراء.

ـ خضراء؟ ما معنى هذا؟

ـ كنت أزرع النبتة في الأصيص، فتعاني طويلاً قبل أن تقرر أن تنمو، أو لا تنمو، ولكنها تمرُ بيدها نحوها، فإذا بها نبتة تتشوق، وتتفجر للحياة، كنت ترى الحمائم في باحة دارنا تهفو نحوها كمن يعرفها منذ عصور وعصور، كان فيها نداء عجيب للعطاء، للتواصل، ولم يكن غريباً أن يسموها عشتار.

ـ عشتار؟ قال خليل في دهشة.

ـ لا، كان اسمها أنيسة، ولكنهم أسموها عشتار.

ـ من؟

ـ يجب أن نجد حلاً، يجب أن يحفروا هذا الرمل اللعين — كان نبيل يصرخ.

ـ إنهم آتون.

ـ ولكن ماذا حصل بعد ذلك؟

ـ انتهت.

ـ ماذا؟ ماذا تعنين؟

ـ اختطفت فجأة، وجدوها في النهر.

ـ كيف؟

علا صوتهم.

ـ مجرفة؟ كيف سنجد مجرفة ها هنا؟

برز رأس نوال من فوق السور، ثم ارتفعت فوق الجزء المحطوم منه لتقفز عائدة إليهم.

ـ نوال — قالتها إلهام في عتب مر.

ـ آه، ألا يحق لنا أن نمزح قليلاً؟

ـ تمزحين؟ هه.

قفزت سليمة في ثوبها المتهدل على خصرها، ولحق بها نبيل وسعيد وبقية المجموعة وأخذوا ينفضون أكفهم.

ـ مصيدة حقيقية، ثلاثة أمتار من الرمال والركام على الأقل تسد مستديرة الدرج.

ـ والعمل؟

ـ إما أن يحاولوا أن ينقذونا بوسائلهم، أو نحاول نحن.

ـ وكيف تحاول ولا آلات لدينا.

ـ بأيدينا.

نظر كل منهم إلى يديه الناعمتين مصقولتي الأظافر في أسف.

ـ أنا جائعة، دعونا نأكل لقمة أولاً — قالت نوال.

ـ صحيح، يجب أن نفطر أولاً.

ـ لا تسرفوا في الطعام، ضعوا في حسابكم أن حبسنا هنا قد يطول.

ـ أنقنن؟ فال الله ولا فالك يا شيخ.

ـ أنا أحذركم، وأنتم أحرار، الأزمة ربما طالت في المدينة، وحبسنا ربما طال، لذا من الأفضل أن نستعد لها.

نظر كل منهم إلى الآخر يلعنون في سرهم هذا النذير المشؤوم، قام سليمان إلى المطبخ فجاء ببعض الخبز والجبن والزيتون والمربى، وأخذوا يأكلون، ولاحظ خليل أنهم يأكلون بشهية ونهم يفوقان المعتاد منهم، وأدرك أنه الخوف من الموت.

مضى النهار في محاولات فاشلة للنوم والتواصل مع الخارج، وأمل خفيف يتلاعب بهم أن قوة ما ستقدم، ستثقب رمال الدرج، ستهبط في

هليكوبتر بطريقة ما لإنقاذهم، ولكن أحداً لم يحفل بهم بينما أخذت أصداء الطقات والرش والهاونات تتناغم لتشكل سيمفونية من نوع خاص قد آن الأوان ليعتادوا عليها.

- لن أنتظر حتى اليوم التالي أبداً، سأسافر في نفس الساعة التي أصل فيها إلى الأرض – قال عبود.

- أظن أني سأعود إلى باريس لاستكمال أبحاثي قبل أن يفوت الأوان – قال سعيد.

- فعلاً، من الأفضل أن نهجر هذه المدينة الآثمة، يجب أن نجد طريقة للتطهير، سأذهب لأسكن في أبعد قرية في هذا الوطن – قال خليل.

نظرت إليه نوال طويلاً وقالت:

- مرة ثانية؟

ونظر الجميع إليها مندهشين.

- ماذا تعنين بمرة ثانية؟ قال سليمان.

- إنه يعرف – قالتها في ثقة.

نظر خليل إليها متأملاً متوسلاً، كانت عيناها ثابتتين واثقتين تنظران إليه في تحد.

- صحيح، لم تحدثنا عن رحلتك تلك – قال سليمان.

- تلك قصة قديمة – قالها خليل مطرقاً.

- حدثنا، حدثنا، قال نبيل – هل كانت رحلة ممتعة؟

- أتعرف؟ كان سؤالنا الدائم، ما الذي يجعل فناناً مثلك يذهب إلى الريف تاركاً المدينة وأصدقاءه والجو الثقافي كله؟ قال عبود.

- هيه تلك قصة طويلة.

- لا بأس سنسمعها – قال سليمان.

كان سعيد الصامت الوحيد، رفع خليل إليه عينيه، لتلتقي العيون في تفاهم خاص.

ـ كان ذلك منذ عدة سنوات.

ـ بعد الحرب؟

ـ بعدها.

ـ هه.

ـ كانت الحرب ثقيلة جداً على النفس، ينتزعونك فجأة من مرسمك، من أصدقائك، من معارفك، تقدَّم، إنها الحرب، ولكن الشباب وحماسه لا يتركان فرصة للتفكير، وسرعان ما تجد نفسك واحداً من مجموعة كبيرة مشحونة في سيارة نقل ليقذف بنا إلى الجبهة، وهناك ألحقوني بمجموعة لا أعرف منها أحداً، كنت رقيباً احتياطياً ألقي إلى الحرب، وأسلّم إلى مساعد أول قالوا لي عنه: هذا رئيسك، ولم أكن قد تعرفت بعد إلى مكاني وسريري في الخندق حين انفتحت أبواب الجحيم، واندفع الشباب كالمجانين إلى أسلحتهم، ولأول مرة أرى العدو بأمّ عيني، كانوا أناساً مثلنا، رجالاً لهم ملامح الناس، لم يكونوا كتلك الصور الخيالية التي زرعت في أذهاننا عنهم، إنهم مثلنا رجال يصعدون التل ويصابون بالرصاص فيموتون، يتعثرون بصخرة صغيرة فيقعون، وحين يصاب أحدهم يصرخ، يصرخ صراخاً عربياً، إنه يصرخ: آخ، وأحسست ببهجة خيالية أني قد رأيت العدو، عرفته، واندفعت، أصبحت جزءاً من آلة ضخمة، أصبعاً تضغط على زناد، يداً تغير شريط الرشاش، لا شيء آخر، أصوات انفجارات، حرائق، روائح دخان، صراخ الجرحى من حولي، اندفاع الطائرات من فوقنا، دك المدفعية الثقيلة لخنادقنا، كانت تلك هي الحرب، ورأيت العدو يتراجع، واندفع الشباب يهلّلون ويزغردون: هزمناهم، هزمناهم، ارتدُّوا، ولكنهم أعادوا الهجوم فرددناهم ثانية، وكأنهم يئسوا فتخلوا عن الهجوم علينا وانسحبوا بعيداً، وأخذنا في الاسترخاء، وقطرات عرق وروائح بارود وسعادة نصر تغلف المكان حين انفتحت نار

الجحيم ثانية، ولكنها كانت من الخلف هذه المرة، كيف حصل ذلك؟ لا ندري، كيف تم؟ لا نعرف، والآن تدبّر رأسك يا خليل إن استطعت، غيّر مواقفك، حوّل نيرانك إلى الخلف، غيّر مراكز استنادك، غير أهدافك، غير اتجاه نيرانك، غير مكان عدوك، غيّر، غيّر، غيّر..

أخذت قطيرات عرق تجلل جبينه وهو يقول هذا، ومدت إلهام يدها تربت على يده، هوّن عليك قليلاً – قالت، وتابع:

ونظرت حولي، ولم أكن قد أتيح لي الوقت للتعرف إلى رفاقي، فاعتدت أن أسميهم بيني وبين نفسي: ذا البندقية، وصاحب الآر بي جي، والطويل ذا القميص الخارج من تحت البنطلون، وصاحب الهاون، وبدأت ألاحظ أنهم يذهبون فلا يعودون، يختفون واقتربت نيران جهنم، لقد علقت يا خليل عطوان، لقد علقت، فما العمل؟ بحثت عن المساعد، لم أجده، بحثت عن الضابط، لم أجده، لم أجد أحداً، حملت روسية علقتها في كتفي وانطلقت أبحث عن أحد أستشيره، النيران كتل حمراء متمهلة تنزل من الفضاء تبحث عني، أراوغها، أختفي منها، ثعابين تنزل بالمظلات أنيابها مشرعة وعيونها تبحث عني، أرشقها بروسيتي فتختفي، الحجارة السود تتحول إلى ألغام تتفجر، ولكن بعد أن أبتعد عنها.

يجب أن أجد أحداً أسأله ما العمل؟ الطريق طويلة وشاقة، أحجارها كثيرة وأشواكها تدمي الأقدام، ولكن، امضِ يا خليل عطوان امض، ابحث عن أحد تسأله ما العمل؟ الشمس عين وحشية تحدق فيك، الأشجار وحوش كامنة تترصدك، تريد أن تجد غفلة منك فتخطفك، امض يا خليل عطوان امضِ، ابحث عمن تسأله ما العمل، تناولت المطرة أريد ما أبلل به حلقي، ولكنّها فارغة تماماً، العطش الحارق يكوي حلقي، امض يا خليل عطوان امض، اركض، أشباح الهاربين أمامك والذعر يلفُّهم في اتجاه الشرق، الحق بهم يا خليل عطوان، واسألهم ما العمل.

الأشباح تختفي، لا جواب، يجب عليك أن تعثر على جواب سؤالك بنفسك، فامض يا خليل عطوان، امض، الشمس والسماء والأرض

والحجارة والأشجار كلها قد تخلّت عنك، تحوّلت أعداء تريد اقتناصك فابحث عن طريقك بنفسك، ولكن، أين العدو؟ إنني لا أسمع إلا صوت أسلحته، أما هو فلا أراه، إنه جبان، جبان، جبان.

كان نوع من الهستيريا الخفية قد سيطر على خليل وهو يتحدث وقد عاش التجربة ثانية، وكان الصمت، الصمت المذهول يغلف الجميع وهم يحدقون إليه منوّمين، ولم تعد أصوات الطلقات ولا انفجارات الهاون، ولا روائح البارود تؤثر فيهم، فلقد تحولوا إلى آذان ضخمة.

ارفع صوتك يا خليل عطوان، إن عدوك جبان، إنه لا يستطيع أن يريك نفسه، أما أنت، فإلى أين تتجه؟ أين طريقك؟ إلى الأمام؟ الخلف؟ إلى أين؟ إنني أبحث عمّن أسأله ما العمل؟ طيور كبيرة تحلق في السماء بوجوه بشرية ومخالب حديدية، إنها تبحث عنك يا خليل عطوان، ارفع بندقيتك وأطلق، إنها تختفي، ولكن، ماذا بعد؟ أين الطريق؟ إلى أين تتجه؟ إلى أين؟ إلى أين؟ النيران تلهب كل شيء، الأحجار السود تتفجر ألغاماً، أغصان الأشجار تسد الطرقات، تتحول إلى أسوار، الدائرة تصغر من حولك، إلى أين المتجه يا خليل عطوان؟ إلى أين؟ ما العمل؟ ما العمل؟ ما العمل؟

عرق بارد كلّل جبينه وقذاله وأكتافه، انحنى قليلاً على الطاولة أمامه وبدا أنه ينسحب شيئاً فشيئاً من الحالة الكابوسية التي سيطرت عليه، وأخيراً قام من مجلسه متعباً تماماً وعيونهم تحاصره دون أن يجرؤ واحد منهم على خرق حرمة صمته، هذا الصمت الذي سرّب ثانية إلى أذهانهم ما كانوا يحاولون تناسيه، طلقات الرشاشات، وصوت الهواون وصراخ بعيد، وهدير محركات.

ـ الحرب، قال سليمان – كانت تلك أول حرب نعرفها في شبابنا، كانت أوّل حرب نعيشها بوعينا، أوّل حرب نخاف منها فعلاً، أول حرب تستهدف وجودنا.

ـ وأية حياة – قالت إلهام – لأول مرة اكتشفت أني أحب مدينتي،

أحبها حتى العظم، لأول مرة أخاف أن أفقدها، أرى الطائرات تقصف، ولكني لأول مرة أرى الفتيات يدرن على البيوت تجمعن الشراشف والملاحف، وأجد الجميع يعطي.

ـ ولكن من الذي حارب في هذه الحرب؟ قال سليمان.

ـ الكل، الكل حارب – قال عبود في اندفاع.

ـ لا، ليس الكل يا عبود، ليس الكل وأنت تعرف ذلك.

صمت عبود أمام كلمات سعيد بينما أخذ سعيد يتمتم.

ـ الحرب... إيه... ومطها قليلاً في شرود كمن يسترجع ذكرى قديمة، ثم تابع:

ـ كان على موعد مع صديقته، فما إن دق جرس المنبه السابعة حتى استيقظ وجلس إلى المرآة فحلق ذقنه، ثم ضمخها بماء الكولونيا، طلبها بالهاتف ليؤكد الموعد، جهز حقيبته، فأودعها منشفة ومايوهاً وراديو ترانزيستور، وكان لا يزال طريفاً في تلك الأيام، نظر إلى وجهه في المرآة، وأطلق تنهدة رضى – الشباب والجمال والحبيبة المنتظرة، ماذا يبقى من الحياة أكثر من ذلك.

أعمل جهاز الراديو، وكانت نشرة الأخبار، ولكنه أغلقه بسرعة، فهو لا يريد أخباراً، لا يريد أن يسمع ما يوجع القلب فيكفيه جداً ما ناله من قبل، أدار مؤشر الراديو حتى عثر على محطة تذيع موسيقى خفيفة جعل يتسلى بسماعها في انتظار الموعد.

أمسك بمجلة جعل يقلبها بين يديه، نظر إلى الساعة، السابعة والنصف، من الأفضل أن أسبق إليها كي نستطيع أن نذهب إلى المسبح مبكرين، كانت واحدة من أجمل صديقاته، بل والواقع أنها كانت أجملهن وآخرهن، وكان قد سعى طويلاً حتى أقنعها بمصاحبته إلى المسبح، وتخيلها في المايوه الصغير وجسمها الإلهي، وشهق يتخيل جسمها المشوق معرى أمامه وهي تعرضه للشمس وليس يغطيه إلا قطعتان

صغيرتان حمراوان؟ أم سوداوان، لعل من الأفضل أن تكونا سوداوين لتتمايزا عن جسمها شديد البياض.

تخيلها تنزلق إلى جانبه يضربان الماء بذراعيهما في هدوء، وكسل لذيذ يسيطر عليهما، والمياه تنشق أمامهما ببساطة، وقطرات كبيرة من الماء تتطاير فضية أمام وجهيهما، ثم تستقر على سطح الماء الأخضر أو على شعرها الملموم تحت الغطاء المطاطي حتى لا يبتل، ثم يندفع غائصاً حتى يضرب القاع بكفيه، ثم ينقلب على ظهره وينظر إلى العلاء، فإذا بالخيمة الخضراء الواسعة المترجرجة تحت ضربات السابحين تثقبها كتلة صغيرة من البياض المعبود تتأفعى فوقه، والساقان الجميلتان تضربان الماء في كسل بينما تهتز اليدان في هدوء لحفظ توازن الجسد المعبود، ويتمنى لو يرتفع إليها فجأة، ويشدها إليه معانقاً، ولكن، لا، لا يجدر به أن يتسرع هكذا، فسيفزع الطير ويفرُّ.

تخيلها يخاصرها بذراعه يتسللان عبر شجيرات حديقة المسبح إلى أن يعثرا على ركن خلوي بعيد عن أعين الناس، والكرسون يأتيهما بزجاجتي البيرة المغللتين بطبقة رقيقة من الندى يفتحهما أمامهما ويضع صحن بطاطا مقلية أمامهما على الأرض، ثم يمضي يملأ كأسها ثم كأسه، يشعل لها سيكارة ثم له، يرفع كأسه إليها فيرُشفها رشفة وترفع كأسها إلى فمه فترشفه رشفة، ثم يستلقي على ظهره، ويحدق إلى السماء البعيدة البيضاء في سعادة، وأية سعادة أجمل من هذا؟

يسحب نفساً طويلاً من سيكارته حتى تدور به الدنيا، تنحني فوقه ويلاحظ بقايا الزغب تحت إبطها، ويشم رائحة الجسد المبلول فيشدها إليه، تسترخي، يذوق طعم الشفاه الملوثة بالبيرة.

سمع صوت مارش عسكري من مذياع قريب، زوى ما بين عينيه في ضيق، ألن يكفوا عن هذا؟ يلاحقونه في كل مكان، يلاحقونه حتى أبواب سعادته، ألم يكفهم ما فعلوا به، وتخيلها أمامه ثانية.

كان مدعواً، وكانت مدعوة، وكانت الحفلة راقصة، وكان المكان (الكاف

ديزامي) ورآها من بعيد من آخر القاعة، الأضواء خافتة، الموسيقى عنيفة، الوجوه منهكة، العرق يتسلل ما بين المنكبين فالظهر فالردفين، كان يحسه، فلم يكن يلبس قميصاً داخلياً.

دقيقة رقيقة، العينان الواسعتان، والخدان المصوصان إلى الداخل والجسم الرقيق، الرقيق جداً حتى لو ضممته إليك في نوبة عشق لانحطم، الشعر المنشور على الكتفين، والجدية في النظرة وهي ترقص وترقص، تهب نفسها كاملة للرقص، وتخيلها واحدة من الكاهنات القدامى يقدمن أنفسهن للمعبد ورواده في تعبد صوفي دون تدخل شخصي من الجسد، النظرة الجدية في العينين، والانفصال التام عن الجسد، والتضحية التامة بالنفس للمعبود القديم، كانت ترقص دون أن تنظر إلى شريكها، فما الشريك الآن؟ إنه لا شيء، لا أحد، الشريك الحقيقي والوحيد هو الرقص، كانت الذراعان ترقصان في هياج، والخصر يتلوى في عنف غير مكبوت، والساقان، الفخذان، العنقان كلها يرقص في تبتل.

اخترق الراقصين، جاورها، وألقى بنفسه في ملكوتها يرقص، يتلوى، يتأفعى أمامها، وهي لا تلاحظه، توقفت الموسيقى فجأة، وتقدم مراقصها فأعطته ذراعها في لامبالاة، وانسحبا إلى طاولتهما، ومن مكانه في البار أخذ يراقبها ترشف من كأسها في تركيز دون أن تنظر خارج الكأس، وقال رفيقها شيئاً، وضحك في عنف، وركز نظراته عبر حلقات الدخان ليلاحظ ضحكتها، وابتهج كثيراً حين لاحظ استجابتها الهادئة جداً لضحك رفيقها الصاخب.

أحس رغبة عنيفة خارقة لمراقصتها، للتكلم معها، ولم يجد وسيلة. بحث عن صديق مشترك يقدمه إليها، ولكنهم كانوا جميعاً مشغولين، كلٌ مع شريكته ومع كأسه، ولم يجد بداً من أن يلجأ إلى حيلة قديمة رغم ما قد يتأتى عنها من مشاكل محتملة، فرشا الكرسون، وطلب منه أن يبلغ شريكها بأنه مطلوب للهاتف، واختار الوقت الذي استعدت فيه الفرقة لمعاودة العزف، وما إن اتجه إلى غرفة الهاتف حتى اتجه إليها

يطلب مراقصتها، نظرت إليه مشدوهة، فليس هذا بالعرف الساري في المدينة، ولكنه ألحَّ بنظرة باسمة فهزت كتفيها في لامبالاة، ولم لا؟

ورقصا، حاول أن يجعل العينين تلتقيان، تشرثران، ولكنهما كانتا تنفران، تبعدان في حياد، وبجانب عينه رأى شريكها يرجع إلى طاولته، وينظر إليهما في غيظ.

- أهو خطيبك؟

نظرت إليه مباشرة.

- لِمَ؟

- لأنه ينظر إليك في غيظ

- دعه ينظر بالطريقة التي تناسبه.

- إني أحسده.

- علام.

- على صحبتك.

- طيب. احسده.

وأعجبته طريقتها في الحديث، وقرر أن يمتلكها بأية طريقة وبأي ثمن.

- هل أستطيع أن أدعوك غداً إلى الغداء؟

- لماذا؟

- وهل يجب أن يكون هناك لماذا؟

- طبعاً.

- اعتبريني معجباً.

- وهل يجب أن أتغدى مع كل معجب؟

وحيَّره جوابها السؤال.

ـ طبعاً لا، ولكني أفترض أنه يمكنني أن أحصل على هذا الامتياز.

ـ ولَم؟

ـ حسن.. لنقل إنه إلهام رباني.

ضحكت وأحس بالسعادة، إنها تضحك هذا يعني أنها قد بدأت طريق الموافقة وعلا صوت المذيع يعلن صارخاً.

ـ إن عدونا الصهيوني، والذي ما كفَّ لحظة عن التحرش بنا، والذي يحتل فلسطين منذ عشرين سنة، قد آن له أن ينال درساً، ودرساً قاسياً على أيدي القوات العربية البطلة.

أيها الأخوة المواطنون، إن يوم التحرير قريب وقريب جداً، إن كل مواطن الآن أمام مسؤوليته القومية والتاريخية في التحرير، وفي تطهير الأرض من رجس المعتدي.

(وأحس غصة في حلقه، وليس يدري لَم تذكرها، كانت الزنزانة ضيقة عتمة أغلقت نوافذها وأبوابها ومنع النور عنها، ولكن عينيه اللتين اعتادتا الظلام كانتا تعرفان أن هناك في الزاوية اليمنى سطل البول، وأن إلى جانب البطانية التي اتخذها فراشاً إناء الماء ليشرب منه كلما عطش أو تخيَّل أنه عطش، أثقلت عليه الوحدة والظلام ورائحة البول الحامضة، وانتظر، انتظر مجيء الحارس، كان يعرف أن لا بد له من أن يمر ولو لإعطائه طعامه اليومي، أو لسحبه إلى غرفة التحقيق، ولكنه تأخر، لماذا تأخر؟ هل نسوه؟ وتحسس معدته، لم يجع بعد، ولكنه تأخر، وتساءل عن سبب استعجاله قدومه، قد يكون معنى مجيئه التحقيق، وهزَّ كتفيه في لا مبالاة، فليكن، وقد يكون التعذيب، وهزَّها ثانية في لا مبالاة فليكن، إنه يريد الحديث، الحديث مع إنسان، ليكن مع جلاده، ليكن مع المحقق، ولكن، إنه يريد الحديث إلى إنسان، لا يمكن، لقد مضى عليه شهران في زنزانته هذه، شهران؟ ليس متأكداً، ولكن لا شك أنه دهر طويل منذ أن تركوه في هذه الزنزانة ودون أن يمكنوه من رؤية إنسان، لقد انتهوا من

التحقيق معه، وجراحه الجسدية شفيت تقريباً، ولكنه سيجن، سيجن حتماً لو أبقوا عليه في زنزانته هذه.

استحضر في ذهنه كل الأصدقاء القدامى، كل الصديقات، كل اللحظات الهنيئة، كل التجارب حتى القاسية منها، ولكنها كانت كلها خواء، فما يبغيه شيء آخر، إنه يريد إنساناً يتحدث معه والحارس؟ اللعين، ابن الكلب، إما أن يكون أخرس، ولا يظنه كذلك، وإما أنهم أمروه بذلك، إذ ما إن تدق قدماه الأرض معلنة قدومه حتى يدوي في الغرفة ضوء أبيض قوي يعشيه، ويجعل الدموع تجري في عينيه، فلا يتمكن حتى من رؤية وجه حارسه، ويدفن رأسه بين ذراعيه في ألم بحثاً عن الظلمة فاراً من عذاب النور الأبيض البارد الذي يتسلل إلى النخاع كنصل فولاذي مثلج، وما إن ينطفئ النور ويغلق الباب حتى يكون الحارس قد مضى بعيداً، ولم يستطع سؤاله، أو الحديث إليه.

ولا تلبث عيناه أن تعتادا الظلام ثانية فيرى طبق الطعام أمامه، ويلاحظ بحاسة الأنف النامية ثانية لديه أن سطل البول قد أفرغ، ولكنه مصمم هذه المرة، مصمم على الحديث إليه، لم يعد يحتمل، يجب أن يتحدث إلى إنسان ما، أن يقول شيئاً ما، أن يسمع صوتاً بشرياً.

وتقدمت الخطوات وئيدة ثقيلة واندفع النور الأبيض قوياً حاداً كمشرط بارد ينتقل بين الأعصاب والعيون، وأغلقهما مجبراً، ولكنه أعاد فتحهما على سعتهما، واندفعت الدموع من عينيه في قوة، كتلة سوداء مهيبة كبيرة تسد فتحة الباب، وأحس بالخشوع أمامها بينما كانت الدموع تنهمر من عينيه في ذلة.

- مرحباً يا أخ.

مرحباً يا أخ، مرحباً يا أخ، مرحباً يا أخ، مرحباً يا أخ، تردد الصوت في أذنيه، ولكن الكتلة الكبيرة الضخمة المهيبة العظيمة أصدرت فرقعة وهي تفرغ سطل البول بينما لم تعد عيناه تحتملان النور الأبيض القوي المهيج فأعادهما إلى ذراعيه يفركهما ويريحهما، ولكنه حدس بسرعة أن الحارس

سيمضي قبل أن يسمع صوته، فرفع رأسه ثانية وصرخ في استغاثة:

- مرحباً يا أخ.

تجمدت الكتلة ثانية تحدق فيه، واستطاع أن يميز فيها في هذه المرة كتلة صغيرة تعلوها ملامح باهتة واستطالتان تحملان السطل.

رمي السطل في زاوية الزنزانة في عنف محدثاً جلجلة عنيفة وسمع صوت الحارس أخيراً يصرخ فيه.

- اخرس أيها العميل الخائن الرجعي الشيوعي الكلب.

وانطفأ الضوء الأبيض، وانغلق الباب وراءه في عنف، وانغلقت الدنيا سوداء عتمة باردة رطبة تتسلل إلى المسام).

أوقف سيارة تكسي، وطلب من السائق أن يتجه به إلى جسر النصر فهناك الموعد.

كان مذياع السيارة عالياً، وصراخ المذيع حاداً، ولكنه لم ينتبه إليه، فلقد اعتاد حماس المذيعين كثيراً.

- سوف تمزقهم بأسناننا، سوف نطحنهم بأضراسنا، سوف نجعلهم يندمون أنهم ولدوا، وفكروا في القدوم إلى بلادنا.

(كانت الحديقة خضراء واسعة وأشجار الصفصاف والدلب تهتز في هدوء ونسمة باردة خفيفة تلذع في مداعبة بينما تقدمت إليه في مجلسه رشيقة هيفاء رقيقة كقطعة حلوى، وتمنى لو أن الحديقة خالية إلا منها لدار بها ودار وحملها وطار بها إلى عوالم من السعادة لن يمتلكها إلا المحبون.

كانت تتقدم باتجاهه في ثوبها الأبيض ذي الرقبة المفتوحة حتى وادي الصدر، تتقدم وحقيبتها البيضاء المعلقة إلى كتفها والمتدلية حتى الردف تضربه في دلال، تتقدم وشعرها يتطاير إلى الخلف كذيل حمامة تهم بالحط)

وقف التاكسي في عويل عنيف.

- إيه ما بك؟ ما بك؟

- ألم تسمع؟

- اسمع ماذا؟

- غارة إسرائيلية.

- امض، امض يا شيخ، وما دخلنا نحن؟

- ولكنها غارة إسرائيلية.

- طيب، وماذا نستطيع أن نصنع؟ امض فلديَّ موعد هام.

تحركت السيارة بينما أخذ السائق يبرطم في تذمر، وفجأة اندفعت صرخات عنيفة تهز المدينة، عويل جارح كسيخ محمًى يشق الجلد ليندفع إلى اللحم، انحرف السائق إلى اليمين.

- ما بك؟

- ألم تسمع؟ غارة!

- غارة على المدينة؟

- ألا تسمع صفارات الإنذار؟

- طيب، وماذا يعني؟ غارة من غارات، امض.

- لا، لن أمضي، انزل إن شئت.

- حسن، سأنزل.

دفع له أجره، واندفع يشق الشوارع ماشياً، كان الناس قد تجمعوا حول أجهزة الراديو يستمعون، ورفض أن يسمع، لا شأن له بكل هذا، (لقد جعلوه يقسم على ترك السياسة، وقد تركها، ولن يتوقف ليسمع مذياعاً) ورأى من بعيد جسر النصر، خطوات، وسيكون في انتظارها عند الجسر ليذهبا إلى موعدهما في المسبح، وأخذ يتخيلها ثانية في مايوهها الأسود،

ولكن الصورة أبت أن تتشكل، ورفض إلا أن يشكلها (جعلوني أقسم على ترك السياسة وقد تركتها) سأذهب إلى المسبح، وليفعلوا ما شاؤوا.

ومثل ألم ضرس عنيف يندفع من الفك إلى الأذن فالدماغ فشبكة الأعصاب اندفعت الصفارة تشق الفضاء ثانية، ورآها هذه المرة طيوراً صغيرة رصاصية تشق السماء.

- إنها طائراتنا.

- لا، بل طائرات العدو.

- لا، طائراتنا، إني أعرفها.

- لا، انظر إلى ذيلها، إنها طائرات العدو.

ومن فتحة صغيرة في مؤخرتها أسقطت بعض الروث ليغطي الدنيا من حوله، ووقف مذهولاً لا يصدق، هل يعود إلى السياسة؟ لقد جعلوه يقسم على تركها.

- ولكن متى حدث هذا كله؟ سأل نبيل.

- كان صباح الخامس من يونيو

- إيه، كل هذا حدث في الخامس من حزيران؟ قال سليمان.

أمسك سعيد بكأسه يلعق بعض الشراب بطرف لسانه، فلم يكن يشرب، ولم يكن يريد الإجابة، فلقد غرق فيما أراد الفرار منه طويلاً، غطس ثانية في مستنقع الذكريات.

و.... خوفاً من أوقيانوس الصمت المهاجم، وخوفاً من محاكمة النفس ومواجهة الأنا، هربت نوال ثانية إلى خليل.

- ولكنك لم تحدثنا عن البدوية العطشى.

- تلك التي رسمتها فيما بعد وانهكتنا بالألم الذي صببته على وجهها.

انفتل خليل من مجلسه وحدّق في نوال مباشرة، ولكنها جابهته بعينين متحديتين.

ـ أفضل ألا أتحدث.

ـ ولماذا؟ أهناك ما لا تحب قوله.

ـ لا، ولكن...

ـ ساعات الأزمة، وربما كانت ساعاتنا الأخيرة يا خليل.

قال سعيد في مرارة مطرقاً، نفض خليل غليونه، وملأه ثانية، أشعله وأطلق غيمة صغيرة من دخان أخذ يتمدد ويتمدد حتى ملأ الغرفة.

ـ حين وصلت إلى كفر المنصورية كانت المطرة خالية تماماً، ولساني قد تحول إلى اسفنجة ميتة، يوم كامل انقضى وأنا أتعثر على غير هدى، الروسية معلقة إلى الكتف، والخوذة تتقلقل على الرأس، أجرجر أقدامي وأصوات الانفجارات تترى، بعضها بعيد، وبعضها يكاد يكون في الأذن حين خرق الضجيج صوت طائرة تطير على ارتفاع منخفض، ألقيت بنفسي إلى الأرض، ولا إرادياً كانت البندقية في يدي، والإصبع على الزناد، والرصاص يتطاير في اتجاه الطائرة، ولكن الطائرة كانت أسرع من الطلقات، فدارت في الفضاء دورة ثم عادت إليّ، وأخذت الأرض تتقافز من حولي نكت غبار وأحجاراً صغيرة تتطاير في الهواء، وظللت مستلقياً على الأرض وبندقيتي مشرعة باتجاه الطائرة، وأنا أضغط الزناد، ولا أسمع صوت الرصاص، وظننت أني صممت، وكرّت الطائرة عائدة وحشاً مهاجماً، عيوناً قاسية، مخالب حديدية، ووجدتني أندفع صارخاً في اتجاهها أقذفها بالبندقية نفسها، ثم أنقضُّ على الأرض أحمل حجارة أضربها بها، وكأن الطائرة يئست من إصابتي فتركتني ومضت، جلست أحدق في الحجارة البركانية السوداء المتناثرة من حولي، الموت، أين أنت أيها الموت؟

حملت بندقيتي وتابعت السير حين اصطدمت قدمي بها فجأة، نظرت إلى الأرض كانت مستلقية على الأرض وجرح عميق في بطنها، ولم تكن تنزف إذ يبدو أنها قد نزفت بما فيه الكفاية، انحنيت عليها،

وشم جميل يزين ذقنها، نظرت إلى عينيها، حزن عميق آس يجرح الفؤاد، ربتُّ على يدها فأمسكت بها متشنجة، مددت يدي إلى جعبتي أستخرج ضمادي الفردي، ولكن شفاهها تمتمت ماء.. ماء.. وأحسست ذلُّ العالم كله يجتاحني، تطلب ماء ولا ماء لدي، ما سبب وجودي هنا؟ أية لعنة وضعتها في طريقي؟ ماء.. ماء.. تناولت مطرتي لعلَّ معجزة جعلت فيها ماء، ولكنها كانت كما تركتها جافة، أردت أن أقول شيئاً، أن أعتذر، ولكن اليد شدَّت على يدي فجأة في تشنج، ولم تطلب ماء، أردت أن أنتزع يدي منها، لم أستطع، كانت اليد قوية، حاولت ثانية.. لم أتمكن، وأخذت أتمتم دون وعي، ليس معي ماء، ليس معي ماء، وارتفع صوتي، وكأني أتمنى أن تسمعني، ليس معي ماء، ليس معي ماء، شددت يدي، ولكن قبضتها كانت قوية، أصبت بالذعر، هل، هل ماتت؟ جذبت يدي بعنف، فارتفع جسمها قليلاً، ثم انفلت ليصطدم بالأرض في قسوة، لم أحتمل، فانتفضت، وأخذت أجري، ليس معي ماء، ليس معـ.. ي.. ماء.

سمع صوت الماء ينسكب في كأس، وسمع صوت دياب.

- اشرب، اشرب.

أخذها منه، وجرعها دفعة واحدة.

- هل ضايقتك بإصراري يا خليل — قالت نوال، ولكنه لم يعلق.

عاد الصمت ليثقل عليهم، وعادت الطلقات والأصداء وظلال الشهب تهاجمهم، ولكنهم كان يجب أن يهربوا من مواجهتها، إن لهم جزيرتهم الخاصة، عالمهم الخاص، وقالت سليمة تهرب بهم من بحران الصمت:

- ولكن، أين كنت خلال الحرب يا نبيل؟

- أنا؟

لم ترد... هه، أطلقها تنفسة سخرية...

ـ بعد أن عادت الحياة إلى المدينة، واطمأن الناس إلى أن الحرب قد انتهت، وامتلأت الشوارع، وفتحت البوتيكات، وبدأ الناس يعتادون ضياع ما ضاع كما اعتادوا ضياع فلسطين من قبل اتصل بي الأصدقاء، تداعوا إلى أنّا يجب أن نعمل لإنقاذ الوطن.

ـ تنقذونه؟ كيف؟

لم يجب نبيل على السؤال إذ بدا وكأنه غرق في ذكرى عزيزة عليه، بل رفع كأسه وجرع منها جرعة فاترة.

ـ كلفت بالمهمة، وقبلتها، ولم أكن أعلم أنها ستنتهي بي إلى هذه النهاية حينما دفعت باب الخمارة الخارجي، تطاولت برأسي أفحص المكان، روائح حادة ودخان كثيف ونور ضعيف بعض الشيء، فحصت الطاولات واحدة تلو الأخرى، ولكن الصديق المكلف بلقائي لم يأت بعد، لمحت طاولة إلى اليسار تحت مصباح نيوني، أغلقت الباب من خلفي واتجهت إليها، وضعت حقيبتي الصغيرة على الأرض، وضممت عليها ساقي أتفحص المكان بحذر ملول، لم أتعرف على أيٍّ من الحاضرين، رائحة النبيذ والكحول تغمر المكان، وجوه شابة وكهلة، نضرة ومتجعدة، بشوشة ومشمئزة، بعضها منغمس في جزيرته الخاصة، وبعضها يحاول خلق جو من الفرح بشكل من الأشكال، ولكن، لَم لم يأت حتى الآن؟

أشعلت سيكارة أخذت أمجُّها بهدوء، واعتراني فجأة خوف خفيف ماذا لو دخل أحدهم الآن؟ وضممت ساقي على الحقيبة في ذعر، ولا إرادياً نظرت إلى الباب، لا، لا، سيأتي، إنه لا يخلف مواعيده عادة.

وقطع علي شرودي صوت مرح يقول:

ـ هيه، ما بك يا أخ؟

التفتُّ إلى الصوت، ثم أكملت دورة رأسي متظاهراً بأني لم أسمعه، ولكنه تابع.

بد لنا فيها من أن يحمل أحدنا الآخر، لا بد من أن أفتح لك قلبي أحياناً، وتفتحه لي أحياناً أخرى، وبهذا نخفف كثيراً من مشاكلنا، أترى هؤلاء جميعاً؟ وأشار بيده إلى الجالسين في حركة دائرية، إن لهم جميعاً همومهم ومشاكلهم البيتية، في العمل، وفي الحياة، ولكنهم يأتون إلى هنا، وبعد كأس أو اثنتين يأخذ كل منهم في إنزال رتاجات صدره، يفتحون قلوبهم هكذا – وفك أزرار قميصه كأنما يريد أن يريني كيف تفتح القلوب – وتأخذ الهموم في الذوبان، والمشاكل في الاختفاء، ولا يخرج الواحد من هنا إلا وقد أرتاح من مشكلته مع زوجه ومع رب عمله، بل ومع ربه أيضاً، اسمع، أراك تزداد ذعراً، ما حكايتك؟

التفتُّ إلى باب الحانة كان شرطيان قد فتحا الباب في تلك الأثناء، وأخذا يتفحصان المكان والرواد واحداً إثر الآخر، وكأنما يبحثان عن واحد بالذات، وعرفت أنهم يبحثون عني، فأخذت الكأس وجرعت منها جرعة واحدة، وأرخيت ملامحي، وغرقت في كرسيي فعل من مضى عليه في جلسته دهور، وحين عاد الكهل إلي بعينيه فوجئ بمنظري، وكأنما أدرك اللعبة، فقد تجاهل الباب والشرطي ومن معه تماماً، وما إن سمع صوت الباب يغلق حتى التفت إليه يتأكد من مضيهما، ثم أطلق ضحكة مجلجلة رائعة.

تخليت عن هيئة السكير، واستعددت للقيام.

ـ أظنني يجب أن أمضي.

ـ مجنون أنت؟ إنهم الآن ينتظرون في الخارج، هذه هي طريقتهم، إجلس، اشرب وانس، وسيأتي صديقك، سيأتي لا محالة، كل الأصدقاء يأتون إلى هنا أخيراً.

ـ يجب أن أمضي.

ـ لا تكن مذعوراً إلى هذه الدرجة، قل لي، ماذا تعمل؟

ـ لا، لا شيء، كنت...

ونظرت إلى حقيبتي لا إرادياً، وكأنما أعتذر بها، أو عنها، أو لها، ولكني ارتددت بنظري بسرعة، وقد أدركت خطأي.

ـ هاه — قال الكهل — اسمع، من أين أنت؟

ـ أنا؟ من هذا البلد.

ـ لا بل قل لي، أنت لست من المدينة، من أين؟

ولكي أشبع فضوله قلت متهرباً

ـ من دار النصر.

ـ دار النصر؟ قالها ماطاً كمن يستحلب ذكرى — هيه، الله يرحم تلك الأيام، أتعرف؟ سأحدثك عن ذكرى حدثت لي في دار النصر، ولكن، كم سنك الآن؟

ـ حوالي الثلاثين.

ـ لا، لقد كنت صغيراً آنذاك، كان ذلك في أوائل الحرب، ولكن، اشرب لَم لا تشرب؟

وصفق بيديه في ضجيج وأسرع إليه الخادم، فطلب منه زجاجة أخرى، وبعض النقول — عم كنت أتحدث يا سيدي — وكسر السين في سيدي ـ .

ـ عن أواخر الحرب.

ـ آه، كنت معلماً هناك، وكانت فرنسة تحكم البلد، وأي فرنسة؟ فرنسة فيشي لا أراك الله، وكنت صلة الوصل بين بعض الأحزاب الوطنية واليسارية وأهالي البلد، وكانت الجبهة الشعبية قد تشكلت في العالم ضد ألمانيا النازية، وإيطاليا موسوليني، وكانت الأحزاب قد نشطت في توجيه الناس ضد ألمانيا وفرنسة فيشي، وأخذنا نوزع المنشورات التي تتحدث عن هزيمة ألمانيا وفرنسا، وكان الناس يبتهجون بها، يسرون لكل هزيمة تقع بعدوهم، وفي أحد الأيام جاءني أبو سليم.

وأحسست فجأة بحركة قريبة مني، فالتفتُّ بسرعة، كان كهل طويل

شديد التحول أبيض البشرة حتى الشحوب قد أدار كرسيه يستمع إلينا، فعدت بنظري إلى محدثي أنبهه، ولكنه لم يعبأ بالمتطفل، وتابع كلامه:

وجاء يا سيدي أبو سليم فأسرَّ إلي أن ضابطاً جديداً للمكتب الثاني قد قدم البلد، وأن أولى المهمات التي وضعها لنفسه هي ملاحقة موزعي المنشورات وألا يدع منشوراً في البلد كله، وأن من وجد لديه منشوراً واحداً فسينقل إلى سجن الميه وميه، وأنت تعرف أيام الحرب وسجن الميه والميه.

أحسست بالحركة مرة ثانية فتحركت في مكاني متضايقاً من المتطفل، وأردت أن التفت إليه، ولكنه سبقني بأن نقل كرسيه وكأسه، وجلس إلى طاولتنا:

- الله يجعل جلستكما سروراً وهناء.

- يا أهلاً وسهلاً، أجاب جليسي الكهل.

- أتسمحان؟

- مئة مرحباً.

وصفق الوافد الجديد بيديه؟ طالباً طبقي فاكهة أضيفا إلى الطاولة.

- سمعت بعض حديثكما، وسررت به، فهل تسمحان لي بسماع البقية؟

- يا أهلاً، ايوه يا سيدي، أنت تعرف سجن الميه وميه، أليس كذلك؟

- ومن لا يعرفه، لا أراك الله؟

- تصور إذاً سجن الميه وميه أيام الحرب، وأية حرب؟ الحرب العالمية الثانية؟

- أعوذ بالله ومن هذا المحظوظ؟

- كدت أكونه يا سيدي.

تلفتُّ حولي في استغراب لما يجري أمامي، كانت تجربتي الأولى مع جلساء كهؤلاء، وأخذت ألعن في سري ذلك الذي لم يأت، نظرت إلى ساعتي — مضى على موعده نصف ساعة، فلمَ لم يأت؟

- طيب أكمل يا سيدي، ماذا صنعت بعد ذلك؟

- كان لديَّ من المنشورات والكتب كل ما يمكن أن يخرب بيتي، صندوقان كاملان وكان لا بد من التخلص منهما، انتظرت مجيء المساء، وخرجت بهما إلى البرية، وهناك حفرت حفرة عميقة، وضعتهما فيها ثم أهلت التراب، وغطيت المكان تماماً، وعدت إلى البيت مرتاحاً من هذا الهم.

- تخلصت منها إذن؟ قال الكهل الآخر.

- هذا ما ظننت يا صاحبي، ولكن وبعد يومين فوجئت بالقصاب يأتيني باللحم ملفوفاً بورقة ما أن قرأتها حتى صعقت، كانت ملفوفة بواحد من هذه المنشورات، خفت في بادئ الأمر، وأحرقت المنشور، ولكن حين جاءني السمان بالجبن في منشور آخر أسرعت إلى حيث دفنت الأوراق، وفوجئت بالحفرة منبوشة، وليس من ورقة فيها، وأدركت بسرعة ما تم، فلقد رآني أحدهم وأنا أحفر ثم أدفن ما دفنت، فطمع في الدفينة يظنها كنزاً فلما فوجئ بالأوراق لم يحزن كثيراً، فلقد كان الورق نادراً وغالياً، فباعه إلى دكاكين السمانين والقصابين، وتصور المفارقة.

وأخذ يضحك بطريقته الغريبة، واندفعنا نضحك معه وتابع:

- أردنا أن نختبئ عن عيون المكتب الثاني، فوزعنا المنشورات على الدكاكين، وارتفع الضحك أكثر فأكثر، صبَّ الكهل النحيل يملأ الكؤوس من جديد.

- في صحة الإخوان.

رفعنا كؤوسنا.

- صحة وهناء.

ـ أتسمحان لي؟ ـ قال الكهل النحيل، ونظرنا إليه مستفسرين، ولكنه تابع – أنا لست واحداً من المثقفين، ولم أنخرط يوماً في حزب، ولم أشارك في السياسة، ولكن حينما قامت الثورة ضد فرنسة ساهمت فيها، وحينما تطوع المتطوعون للحرب ضد اليهود كنت فيمن ذهب ليحارب في سمخ وصفد.

ـ طيب – قال الكهل الأول، وكأنما يستعجله الإفضاء بما في صدره.

ـ كما قلت لكما، أنا لست مثقفاً، ولكني تعلمت قليلاً، وأحب الثرثرة من حين لآخر، تحدثتَ يا سيدي عن المنشورات والكتب والجبهة الشعبية وسجن الميه وميه، طيب، وبعد؟ ماذا أنجزتَ لنا من كل ما حدثتنا عنه؟ ماذا أنجزتم جميعا؟ أيوه، أيها المتعلمون ما الذي أنجزتموه؟ أرجوك.

أحسست بنفسي محاصراً قبل الكهل، فماذا يريد هذا الكهل أن يقول؟

ـ أنجزنا؟ قال صاحبي.

ـ نعم – ردَّ الكهل النحيل، وتوقف قليلاً ينتظر الجواب، ثم وقبل أن يقول أحد منا شيئاً تابع – سأحدثكما عن حكاية صغيرة إذا سمحتما لي؟

ـ وصمتنا، ففهم صمتنا سماحاً له بالحديث فتابع – يقولون يا سيدي أن هارون الرشيد، رأى مرة حلماً فأفاق مذعوراً، وطلب المنجمين فقص عليهم رؤياه، ولكن أحداً منهم لم يعرف لحلمه تفسيراً، فطلب الفقهاء والعلماء، ولكنهم عجزوا جميعاً، وأصيب هارون بالكآبة، كان الحلم يلح عليه، ولكن عجز الجميع عن تفسيره زاد في ضيقه، وفي أحد الأيام جاءه الحاجب يبلغه أن بهلول بالباب، وبهلول يا سيدي – وأخذ يشرح لنا رأيه فيه – كان واحداً من محاسيب القصر، ولكنه أزعج القصر بكثرة أسئلته وفضوله الزائد، وبهلول هذا هو الذي تنبأ له شيخ علماء عصره أبو حسن المرعشي وكان بهلول حينذاك فقيراً جداً بأن اليوم الذي سيأكل

فيه الفالوذج في صحون الفيروزج آت ولا ريب، هل تعرفون ما الفالوذج؟

- لا والله، قلت.

- ولا أنا، قال الكهل.

- حسن، ولا أنا، ولكنهم يقولونها هكذا، فلما انزعج منه الرشيد لفضوله ولنوبات الحمق الفجائية التي تعتريه طرده فصار يدور في الطرقات، راكباً قصبة يسميها فرساً فيجري الصبيان من ورائه، وتقلبت به الأيام على هذه الحال سنوات نسي فيها الفالوذج، وصار يأكل خبز النخالة ثانية مع فقراء بغداد، ولكن عينيه لم تبتعدا أبداً عن القصر والرشيد، فلما عجز جميع فقهاء ومنجمي القصر عن تفسير الحلم جاء الباب وطلب الإذن، وتعلق الرشيد بقشة بهلول، فسمح له بالدخول.

سكت الكهل قليلاً، وجرع من كأسه جرعة وقضم قضمة من جزر ثم تابع:

- دخل بهلول إلى الرشيد، وكان لا يزال في ثياب فارس القصبة فازدرته عيون القصر، ولكن الرشيد الذي يعرفه منذ القديم لم يعبأ بمظهره فسأله:

- أتعرف حلمنا يا بهلول؟

- سمعت به من الناس يا مولاي.

- أعرفت تفسيره؟

- أنت يا مولاي رأيت شبحاً ظهر لك من قلب الظلام، وأشار لك بأصابعه الخمس.

- هذا صحيح.

- ثم اختفى دون أن يترك تفسيراً.

- هذا صحيح.

- وعجز منجموك عن تفسيره، فبعضهم فسّره بأنك ستحكم خمس

سنوات وبعضهم قال إنك ستنتصر في خمس غزوات، وبعضهم بأنك ستتوفى بعد خمس.

- كل هذا صحيح، وأنت ما تفسيرك؟

- مولاي، الروم على ثغورنا، والظلم بين ظهورنا – وثارت عند ذلك ضجة بين الحاضرين على هذا التعدي، ولكنه أكمل – وأنتم تعرفون، أبناء شعبكم جياع، ومدُّ القمح بدينارين، والضياع مقسومة كلها بين البرامكة وأبناء سهل – وارتفع الضجيج كلٌ يريد إسكاته، ولكن سكوت الرشيد أسكتهم، وجعله يتابع – والناس في ضيق، ولا أستغرب إن سمعت الناس ثاروا، فتونس قد ضاعت كما ضاعت الأندلس، وخراسان تضج بثورتها – وهنا ضاق صدر الرشيد فاستحثّه، هه، ما تفسير الحلم؟ وضج الجميع وراء الرشيد، نعم، ما تفسير الحلم؟ إنه لا يعرف تفسيره، ثرثار، اطرده يا مولاي، وأكمل بهلول: دعني أكمل يا مولاي، نعم أكمل – قال الرشيد – كل هذا كان يعتلج في صدرك يا مولاي، فرأيت هذا الشبح يشير إليك بأصابعه الخمس، نعم، نعم، قال الرشيد، هه ما تفسيرها؟

العدل أساس الملك، هذه واحدة، ثم الحزم يا مولاي، وقديماً قال الشاعر: إنما العاجز من لا يستبد، همم، قال الرشيد، وقد احمرّت عيناه، وأخذت وجوه الحاشية تصفرُّ، الشعب يا مولاي عماد الملك، وليسوا أولئك الملتفين من حولك، والتفت أحدهم إلى جاره وقال: لقد قتلنا الكلب، والصدقات يا مولاي، أعيدوها إلى أربابها ولا تتركوها نهبى بين تجار بغداد، وارتفع فجأة صوت حانق يصرخ: مولاي، ولكن نظرة الرشيد سمّرته، ثم التفت في هدوء إلى بهلول الذي أكمل: ثم الأعمار بيد الله يا مولاي، هذه هي الأصابع الخمس والحقائق الخمس، هذه هي روح أجدادك تخرج إليك يا مولاي لتكشف لك عما انزلقت إليه، وخرجت آه ارتياح من الجميع، فها هو بهلول يقتل نفسه أخيراً، ولكن الرشيد نظر إلى الجميع نظرته القاتلة وقال:

ـ صحيح يا بهلول، لقد كشفت لي كلَّ ما في صدري، والآن جاء دوري، ما طلباتك.

وهنا عاود بهلول جنونه القديم، أتعرفون ماذا طلب؟

ـ ماذا؟

ـ قال له مولاي، أنا لا أطلب إلا شيئاً واحداً.

ـ ما هو؟

ـ كل ما أطلبه هو أن تمنحوني الولاية على فئران بغداد.

ـ فئران بغداد؟

ـ نعم فئران بغداد، وضجَّ الرشيد بالضحك، ولكن ماذا ستصنع بفئران بغداد؟

ـ سأصبح والياً عليها، ولا علاقة لك بها.

وأجابه الرشيد إلى طلبه، ومضى بهلول، وبعد مدة طرق باب القصر، واستقبله الرشيد: هيه يا بهلول، ما طلبك هذه الأيام؟

ـ أنت يا هارون عينتني والياً على الفئران، أصحيح هذا؟ صحيح، أجابه الرشيد — ولا علاقة لك بها؟ أصحيح هذا؟ ـ صحيح، وأنا المسؤول عنها أصحيح هذا؟ صحيح، وأنا من سيدافع عنها في كل المجالات؟ أصحيح هذا؟ صحيح.

حسن، لقد ضاعت فأرة منذ أيام، ثم عرفت أنها دخلت أحد أوكار القصر.

ـ وبعد؟ قال الرشيد.

ـ ثم علمت أن فئراناً تلتها في الاختفاء.

ـ ولم تخرج؟

ـ تاهت في الأوكار، ولم تعد تستطيع الخروج.

ـ وماذا تريد أن تصنع؟

ـ تهدم القصر لإخراجها يا هارون.

ـ ماذا؟ قال الرشيد، وقد احمرَّت عيناه، وعرفت الحاشية وقتذاك أن بهلول قد انتهى.

ـ وهل انتهى؟ قلت مندفعاً.

ـ ليس المهم إن كان قد انتهى أم لا، ولكن هكذا أنتم أيها المثقفون، لا تعرفون ما الذي تريدونه فعلاً، توزعون المنشورات، وتتحدثون عن الجبهة الشعبية، ثم ماذا؟ ما الذي تريدونه فعلاً؟

ما الذي أراده بهلول؟ أكان يريد الدفاع عن الفئران وهدم القصر فعلاً؟ فلمَ أنتظر الإذن من السلطان إذن؟ أم كان يريد منصب وصداقة السلطان، فلم اختار الفئران إذن؟

ثلاثون عاماً، وأنتم توزعون المنشورات، وتنادون باسم الشعب والشعب عنكم بعيد، قبل أن توزعوا المنشورات اجعلوه قادراً على قراءتها، كم من شعبك يقرأ يا أستاذ هه؟

كان السؤال موجهاً إليَّ، كم من شعبك يقرأ حتى يستطيع قراءة منشوراتكم، يكفيكم ياه، أرهقتمونا بحروبكم المفتعلة مع خيالكم، لستم أكثر من بهاليل جدد، بخاطركم.

واندفع، وتركنا مع الطاولة، والسؤال يتردد كصدى عميق بلا قرار، ماذا فعلتم؟ ماذا تريدون؟ وقمت عن الطاولة، وتركت جليسي مع ذكرياته عن الجبهة الشعبية والمنشورات وسجن الميه وميه، ومضيت.

ـ ألم تسلم المنشورات إذن؟

ـ شعرت بسخافة الأمر كله، فقررت أن أتخلى، وأبدأ عملاً جديداً.

ـ عملاً جديداً؟ أي عمل؟ قالت نوال.

ـ هذا ما وعدت نفسي به، كنت قد قررت أن ننظم مجموعة تبدأ حربها

الخاصة بادئة بإلغاء الأمية من الوطن العربي.

- من كان معك؟

- لماذا تلحين، كانوا كثيرين.

- مثل من؟

- خليل مثلاً؟

التفتت إلى خليل المختبئ دائماً وراء غليونه.

- ثم؟ قالت تخاطب نبيل.

- كالعادة بدأنا متحمسين، ثم ما يلبث الحماس أن يخبو، ولم نلبث أن تساقطنا كالعادة واحداً إثر الآخر.

- أكان هذا السبب في هروبك من دمشق؟ جابهت خليل.

- لماذا تلحين في أسئلتك؟ تعرفين كل شيء.

- تعرف كل شيء؟ قال سليمان مصعوقاً — ما الحكاية؟

نظر الجميع إليها مدهوشين مما يجري، وأحست بالعيون تحدق بها، تحاصرها، وأحست أن أشياء كثيرة ستتعرى قبل أوانها، ورغم إحساسها بالسوط يدفعها لكشف كل شيء إلا أنها فجأة قامت من مجلسها.

- سألقي نظرة على المدينة.

- بل تجلسين، وتحدثيننا — قال سليمان في حدة نسبية، وهو يشدها من يدها فيجلسها.

- سليمان لا تزعجني بإلحاحك وأسئلتك السخيفة.

- نوال. أظنك أكثرت من الشراب.

- لا، لم أكثر من الشراب، وأنت تعرف ذلك، وتعرف أيضاً أني قد سئمتك، سئمت جبنك، مخادعتك، سئمت الوهم الذي صنعته منك، سئمت عدم قدرتك على اتخاذ موقف.

اتسعت حدقتا سليمة وإلهام تراقبان ما يجري بينما انسحب خليل إلى التراس، أما سعيد فقد أخذ يراقب المشهد في تسلٍّ، وحاول نبيل أن يتظاهر باللامبالاة، ولكنه كان يراقب ما يجري في شبق ذهني متصل.

ـ أسئمتني فعلاً؟

ـ تعلم ذلك جيداً، تعلم أنك تحاول لعبة المتحرر معي، وأنك في سبيلك إلى طلاق هند أكثر من مرة، ولكنك أبداً لم تجرؤ على ذلك، هل أقول كل ما في قلبي، أنت انتهازي تدعي التحرر لتستفيد من فائض قيمة التحرر، تمارسه مع المرأة مستفيداً من تحررها الذي تبذله فإذا ما طولبت بدفع مقابل ما أخذت جبنت وعدت إلى جدك الأول شرقياً تستغل المرأة، وتستفيد من قهرها التاريخي.

ـ يا سلام، يا سلام، اسمع، اسمع.. – قال نبيل.

ـ من فضلك لا أريد المقاطعة – قالت نوال بينما رمقه سليمان في حقد دفين.

ـ أنتم أيها الرجال الشرقيون أكبر مدعين في التاريخ، حشوتم أذهاننا بحرية المرأة وعدالة قضيتها، ووجوب تحريرها فلما فعلت ذلك أخذتم تسعون وراء تعهيرها ووراء تشييئها، وراء تحويلها إلى واسطة متعة تلقونها بمجرد أن تنتهوا منها.

ـ ما معنى هذا كله الآن؟

ـ أتريد أن تعرفه كله؟

ـ إذا أمكن من فضلك – قال سليمان في برود.

ـ تفضل بالرجوع إلى مكانك من فضلك يا خليل.

تحوّلت العيون كلها تراقب باب التراس، ولكن خليل لم يعد.

ـ هل يمكن أن تتفضل بالرجوع يا سيد خليل – صرخت نوال في هياج.

ـ أحاول تنفس بعض الهواء النقي – قال من مكانه معتذراً، ولكننا ننتظرك – صرخ نبيل.

عاد خليل منحني الكتفين، طويلاً ممسكاً بغليونه المنطفئ، واتجه إلى كرسيه الأول فاحتله، وأشعل غليونه دون كلمة.

ـ كانت طفلة رغم بلوغها الثامنة عشرة بريئة ساذجة لا تعرف من الرجل إلا ما تراه في السينما، وما تقرأه في القصص، لا تعرف الرجل إلا في أبيها وخالها أحياناً حتى جاء في أحد الأيام، رجلاً في الخمسين شرقياً حتى أظافر القدمين في عباءة وعقال وسيارة بطول خمسة أمتار، الخواتم في الأصابع، ورائحة الند تفوح من الآباط، وانطلقت الزغاريد في البيت، وأصغت مدهوشة، ما الذي يجري هناك؟ وحين جاءتها الأم والفرحة في العيون والضحكة في الشفاه تزف إليها البشرى لم تصدق، أأتزوج لهذا الرجل؟ إنه جدير بزوجة في سن أمها، إنه أكبر من أبيها، ولكن الأب نفسه كاد يطير من الفرح، فها هي مشاكل العمر كلها تحل، أقساط البيت ستدفع، نفقات العرس ستغطى من الزوج، سيستقيل من الوظيفة، وسيصبح وكيله في المدينة.. و... و...

وعود كثيرة، قاومت قليلاً، ولكن الهدايا والسيارة والحلي الذهبية أسرت طفولتها، ثم كانت سهرات نادي ألف ليلة وليلة، مربع الرشيد، قصر الحمراء، أماكن تسمع عنها من صديقاتها، ولا تجرؤ على التفكير فيها.

ولم تستيقظ إلا وهي إلى جانبه وحيدة في الطائرة، تسلّت قليلاً بالنظر من النافذة إلى الخضرة تتراجع، وإلى الصحراء تهاجم، وحين التفتت إليه تستجيب لوكزته كانت ملاءة سوداء طويلة في يده، وحين لم تفهم، وتساءلت عنها قست ملامحه وهو يفهمها بأنها ستلبسها، وأنها لن تخلعها بعد الآن إلا في بيتها.

ولبست السواد، وتحولت إلى حيوان عليه أن يصارع في غابة ملكها

إناث أخريات من قبلها، ولن يتنازلن عن نصيبهن منها أبداً، صارعت طويلاً، ثم استسلمت، وشيئاً فشيئاً أخذت تنسى أحلامها، أخذت تنسى شبابها، أخذت تنسى مدينتها، تحولت إلى شيء، إلى فراش يلجأ إليه عند الحاجة، ثم يهمل بعد ذلك، إلى مربية لأطفال الأخريات تتسلى بهم، ووجدت نفسها تتذكر تاريخاً قديماً قدم ألوف السنين ظنت أنها تجاوزته حين أرسلتها أمها إلى المدرسة، ولكنها سقطت في الامتحان هذه المرة، فارتدّت إلى ذلك الماضي السحيق، وصارت تلاحظ جسمها يمتلئ ويرتخي، وشعرها ينعم، وضحكتها تفتر، وعرفت أنها قد أصبحت جارية، ولكن، ولصدفة سعيدة غريبة قرر الرجل أنهم سيقضون الصيف في مدينتها، ولم تصدق... المدينة، المدينة ثانية، وشحنت بالذكريات ثانية، المدينة، مدينة الأشجار، مدينة الحارات الرطبة، مدينة النهيرات الصغيرة، مدينة الحور والصفصاف.

ووجدت نفسها أخيراً في الطريق إلى البيت مع أمها وأختها، وكان أبوها قد توفي، ولم يخبرها الرجل بذلك حتى لا تطالبه بالذهاب إلى المدينة، وظنت نفسها قد نسيت الشوارع حين وجدت السيارة تتجه في شوارع لا تعرفها، وكانت المفاجأة عند دخولها البيت الجديد.

ـ والزوج؟ أين ذهب الزوج؟ قالت سليمة.

ـ قرر ببساطة أن يتركها لدى أهلها بينما يمضي هو إلى لندن يتمتع قليلاً، كان البيت الجديد شيئاً مختلفاً تماماً، في فخامته، في أثاثه، في أجهزته الكهربائية الحديثة، وعرفت أن هذا كله كان بفضل الرجل.

صمتت قليلاً تشعل سيكارة، وهي تحدق في اتجاه خليل، ثم تابعت.

ـ وفي إحدى الليالي خرجت إلى الشرفة الخلفية قليلاً تختلي بنفسها والليل حين رأته، كان شيئاً آخر، شيئاً مختلفاً تماماً، شاباً أشقر طويلاً

يجلس في شرفته، وكتاب في يده يجلس تحت مضيئة خاصة، وموسيقى خفيفة تلف المكان من حوله، مستغرق تماماً في قراءته، وأسرها منظره، شيء آخر تماماً يخالف كل ما تعرفه عن الرجل، نحيل، والرجل الذي تعرفه في سمنة عجل، ذو شعر طويل ولحية مستديرة في أناقة، وذاك أصلع وله بضع شعرات تحت شفته يسميها لحية، وموسيقى وكتاب، وشيء سام يخالف تماماً كل تلك الأرضية عند الآخر.

أسرها تماماً فتوقفت في مكانها مستسلمة هادئة تتمنى أن تتحول قطعة من الشرفة حتى لا ينتبه إليها، موسيقى رقيقة علوية هادئة جعلت الدمع يركض في عينيها، ويد قاسية طرية تعتصر قلبها، ولم تعد تحتمل، فأخذت تبكي في عنف، ولم يحس بها، أو أنه أحس، واكتفى بالنظر إلى الظلام قليلاً، ثم عاد إلى كتابه بينما انسحبت إلى غرفتها، وأخذت تبكي في حرقة قاسية، وجاءت أختها مع صوت بكائها، وحاولت أن تفهم سر بكائها، ولكنها أبداً لم تحصل على جواب، واعتادت أن تهرب من الجميع لتندفع إلى خلوتها في الشرفة تستمتع بالفرجة عليه يقرأ مستغرقاً دون نظرة واحدة إليها، يقرأ وهالة من نور المضيئة تلفه وموسيقى هادئة تستغرق المكان، وفاجأتها أختها في إحدى الليالي مستغرقة في مراقبته منفصلة عن العالم الخارجي، فوقفت إلى جانبها صامتة دون كلمة، وحين التفتت إليها وجدتها إلى جانبها فانسحبت إلى غرفتها، وتبعتها.

- أترغبين في العودة إلى زوجك — سألتها أختها.

- أرغب في العودة إليه؟ إني أنتظر لحظة الموت، فلعلها المخلص الوحيد منه.

- إذاً لم لا تعيشين حياتك؟

- وكيف أعيشها؟

- كما يعيشها الآخرون.

- لا أفهمك.

- لاحظت تسللك إلى الشرفة أكثر من مرة، ولكني لم أربط بين الشرفة وبينه.

- ولا رابط.

- بل روابط كثيرة، اسمعي، لن يعود زوجك قبل شهر أو أكثر، لم لا تحاولين حياة جديدة؟

- كيف؟

- سأعلمك، تكلمي معه، حدثيه، أقيمي صله معه، وسترين آية سعادة ستفتح أبوابها لك.

- أتريدينني أن أخون زوجي؟

- أيتها البلهاء، ما الخيانة؟ خيانة عمرك وحياتك التي تخونينها مع نفسك، ومع هذا البغل؟ أم أن تعيشي شبابك مع هذا الشاب؟

- آه، أرجوك لا تمنيني بالسعادة فأموت قبل أن أصل إليها.

- بل ما أسهل أن تصلي إليها لو مددت يدك، مديها.

- لا، لا أجرؤ.

- سأمدُّها عنك.

- لا، لا تحاولي أرجوك، أرجوك – قالتها في خوف غير محدود.

- طيب، طيب لا تغضبي، اهدئي قليلاً.

ولكنهما حين أخذتا تراقبانه من شرفتهما، لاحظت الصغرى في حركات أختها حنيناً وتوتراً كمن يحاول لفت نظر إنسان ما، والتفت مرة على صوت ضحكاتهما فأشارت الصغرى إليه تحييه، وأشار برد التحية وانفتح باب السعادة، الوقفات الطويلة على الشرفة، التستر بواقي النافذة الخشبي خيفة الجيران، القبلات الهوائية.

وأخيراً اجتمعا في مطعم لا يختلف عن كل مطاعم الدنيا إلا في أنها اجتمعت به فيه لأول مرة، وأحست أن خمس سنوات مهدورة قد استعيدت،

قد ألغيت، وعادت فتاة شابة تستطيع التنفس في الهواء الطلق، السير في الشوارع المشمسة دون كيس أسود يلبس من الرأس وحتى التراب، دون إحساس بحيوان مهول ذي مئة يد يحاصرها في كل حركة تتحركها، وكان رقيقاً كأرق ما يمكن لإنسان أن يكونه، مهذباً كأكثر ما يمكن لفنان أن يكون، متواضعاً لطيفاً حبيباً، واكتشفت الحياة معه، ولكن الوحش الأسود الذي ربي في القلب، في الرئة، في الدماغ لخمس سنوات لم يكن ليتراجع بسهولة، فكانت أبداً تخاف السعادة، وتوقن دائماً أنها طريق الضياع، كانت إذا ما أمعنت في الضحك مستجيبة لطبيعتها توقفت فجأة تتمتم: اللهم أعطنا خير هذا الضحك، كانت تخاف السعادة في أعماقها، تخاف انتقام أرواح الشر المهيمنة في كل مكان، كانت إذا رقصت معه رقصت بهدوء حتى إذا ما سخنت الموسيقى قليلاً فاندفعت معها بشبابها أحست فجأة بالكابح يعوي في أعماقها، توقفي، إلى أين تمضين؟ لا يحق لك هذا، فإذا ما تساءلت في براءة، ولكن لم يحق لكل هؤلاء؟ أجيبت: أنت زوجة فترجع إلى مقعدها كسيفة مقهورة، ويأتي ليجلس إلى جانبها، فيداعب كفها قليلاً، ويداعب روحها الداخلية أكثر، وتتمنى لو يداعب شفتيها، ولكنهما لم يجتمعا أبداً إلا في مكان عام.

أطفأت سيكارتها، وتناولت أخرى، أشعلتها ولاحظت بطرف عينها أن سليمة وإلهام كانتا تراقبان خليل في إمعان بينما كان نبيل ينوس في مقعده مفكراً.

وجاء اليوم الذي انتظرته طويلاً، اليوم الذي دعاها فيه إلى بيته، وحاورته طويلاً في الكلام، دارت ولفت تريد منه تصريحاً كاملاً، ثم أشفقت على خجله، فلما قارب الانهيار أظهرت فهمها، ثم وافقت على زيارته في المنزل و... لكن...

مجّت مجة طويلة من سيكارتها، ثم أطلقتها إلى الفضاء المظلم بينما تعلقت عيناها بعيداً بعيداً، وتحرك خليل في مكانه قلقاً.

- هه، لم تكملي. ماذا حصل بعد ذلك؟ قالت سليمة في إلحاح.

ـ لا داعي لذلك، فقد حدثكم خليل.

ـ خليل، قال نبيل، بينما اتجه الجميع إليه بأنظارهم – بدوت لي وكأنك لم تعرفها – قال سليمان في مرارة.

ـ لم أرد إحراج أي منكما، وكان ذلك تاريخاً مضى، فلم استعادته؟

لم أرد إحراج أحد، لم أرد إحراج أحد، أخذت الجملة تصدي في مخيلة سليمان، بينما ران الصمت على الحاضرين جميعاً، بحث كل منهم عن سيكارة يشعلها، أو غليون يتسلى به، أو اتكأ إلى ظهر كنبته واستغرق في شرود هادئ.

أصوات القنابل والرصاص والانفجارات لم تتوقف، ولكنهم ما عادوا يعبأون بها كثيراً، فلقد تحولت إلى شيء يشبه صوت السيارات، أو عزيف الرياح، أو شيئاً من هذا القبيل، جزءاً من الطبيعة المحيطة بهم لا يعنيهم، فهو لا يؤثر فيهم، ولكنه صوت ما.

قام عبود من جلسته فجأة، واتجه إلى التراس حيث أطل منه في شجاعة على المدينة المصطرعة، دمى صغيرة تجري فجأة، تجتاز الشارع، دمى ديناميكية، شدّ نابضها حتى نهايته فهي تقفز في عصبية، سيارات تحترق، وسيارات خامدة تحولت إلى متاريس، خيوط من دخان هنا وهناك، واقيات النوافذ المغلقة فوق النوافذ، الكل مختبئ، الكل خائف، لا يشارك، لا يجرؤ، أو لا يريد.

عاد يضرب الحصى بقدمه، أي مجانين (أي مجانين، كم من المصالح الاقتصادية قد عطلت؟ كم من آلاف الليرات قد دمرت؟ هه، من يدري؟ ربما كان في ذلك مصلحة ما؟ إنهم سيحتاجون إليك كثيراً يا عبود؟ يحتاجون إلي؟ نعم، فمن سيستطيع أن يؤمن لهم صفقات الحديد والاسمنت والبلاط؟ ثروات جديدة سوف تزحف نحوك، هه، هذا إن نجوت، لا، لا تخف ستنجو، ولم لا؟ من يحقد عليك؟ إنك إنسان بلا أعداء، بلا أعداء؟ ومن ذا الذي لا أعداء له؟ أترى هؤلاء؟ كلهم

يحسدونك).

كانوا جميعاً يدخنون في إصرار، وكأنهم لم يتبقَّ لهم من عمل إلا التدخين، سقط في كنبته، وغاص فيها دون صوت.

- هذا هو عبود العظيم – قال نبيل في محاولة لتحريك الجو – كيف رأيت المدينة يا عبود؟ - ولم يردَّ عبود – وأنت أيضاً تريد أن تصمت؟ تكلم يا شيخ، تكلم، هه، حدثنا عن الكيفية التي دخلت فيها السجن.

نظر إليه عبود في غيظ – هيه، لَم خجلت؟ كلنا كنا هناك، سعيد وسليمان ودياب، خليل لم تكن معنا، هل كنت معنا؟

- لا، قال خليل باقتضاب.

- وسليمة، تابع نبيل – ولكنها كانت في سجن آخر.

- آه يا أبناء هذا الجيل – قال سعيد – أفيكم رجل له خصيتان لم يذق طعم السجن.

- ما معنى هذا؟ قال خليل.

- لا، ما عنيتك أنت – قال سعيد في هدوء مقهور – ولكنك دخلت السجن أيضاً أم نسيت؟

- كان ذلك لأيام فقط.

- ولكنك دخلت السجن – قالها في إصرار.

- كانت نكتة – قال خليل يلطّف الواقع.

- نكتة؟ ما أغرب حسك بالنكتة يا خليل.

- أتذكرون منظر وجهه المدهوش، وهم يقذفون به إلى القاووش.

- قال نبيل – ولم يكونوا بحاجة إلى تعريف المعني، فقد تحدثوا عن هذا كثيراً، ونظرا إلى عبود.

- صحيح، قل الحقيقة الآن يا عبود، بشرفك. ألم تكن لك علاقة بالسياسة.

- أنا؟ وما علاقتي بالسياسة؟ تعرفون الموضوع جيداً، لم إعادة إثارته؟

- قل يا رجل، قل، كيف قبضوا عليك؟

- لم يكن هناك من سبب على الإطلاق، المسألة كانت بسيطة جداً، كنت قد تشاجرت مع جار لي بقال بسبب إصراره على نشر بضاعته من الخضار أمام مدخل بيتي، ولما لم يمتنع بعد أكثر من نقاش حاد شكوته إلى سلطات البوليس، فكلف بدفع غرامة قاسية، ومنع عن فعلته، فكتمها في قلبه، ولم يكن لديه وسيلة للانتقام حتى جاءته تسعى حين رأت السلطات لسبب لا أعرفه أن تستفسر عني، فسألوا جارنا أقرب الناس إلينا، فأعطاهم تقريراً رائعاً نقلت على إثره مباشرة إلى سجن التحقيق، وهناك، وقبل أن يسألوني عن اسمي، وقبل أن يطلبوا أية معلومات أجلسوني على الكرسي.

- أي كرسي؟ سألت نوال.

- الكرسي الكهربائي — أجاب عبود ببساطة — لا، لا داعي للشرح، من لم يذق طعم الانتفاضات التي تجعلك تحس بنخاعك الشوكي منفصلاً عنك، من لم يذق طعم الاحتراق في بصيلات شعره، من لم يذق طعم السياط على الأعصاب مباشرة، فلن يعرف ما معنى الكرسي الكهربائي.

- ولكن، ما الذي أرادوه منك؟ كررت نوال.

- لا شيء، لا شيء أبداً، قطعوا التيار الكهربائي عن الكرسي، وفكوا السيور التي تربطني إليه، وتركوني أهوى، ثم جاء اثنان فجرّاني إلى الزنزانة وقذفا بي إلى حيث كان الرفاق ينتظرون.

- وأي منظر — قال سعيد — لو رأيتموه حين رفع رأسه عن الأرض و... نظر إلينا، عيون زائغة، وجه ممتقع، وشعر متهدل.

- لم أرَ شيئاً في البدء، نوافذ صغيرة يندفع منها النور، ورائحة بول حادة هذا كل ما شعرت به حين امتدت يدان فحملتاني من آباطي لتجلسني على طرف المصطبة.

ـ ظنناه رفيقاً في البدء، ولكن حين لم يتعرف عليه أحد منا خفنا أن يكون مدسوساً علينا على طريقتهم، فتحفَّظنا في الحديث أمامه.

ـ كانوا مجموعة غريبة لم أعتد عليها في حياتي، شبان صغار وسيمون، ولا تغتررن بمنظرهم الكهل الآن فقد كانوا وسيمين، وحين انفتحت القلوب كادوا يجتذبونني إلى صفوفهم بإخلاصهم وثباتهم وإيمانهم، كانوا يأخذون أحدهم، ثم لا يعيدونه إلا شبه جثة، الدماء تنزف من الأنف ومن الآذان، التورم في الوجنات و.. في الجبين، الشفاه الممزقة، ومع ذلك فما إن يقذفوا به إلى القاووش حتى يسرع إليه الرفاق ويمسحوا وجهه ويدلكوا ذراعيه وكتفيه في حنان عجيب.

ـ وأنت؟ سألت سليمة في شبه سخرية.

ـ بدا وكأنهم نسوني، فلم أستدع للتحقيق قط، إذ لم يكن هناك أي تقرير أو إشارة ضدي، ولما طال الأمر عليَّ دون أن أستدعى للتحقيق أخذت أشعر بالطمأنينة، وكانوا – وأشار إليهم – قد فهموا وضعي، وطمأنوني بأنها أيام ويطلق سراحي، ولكن هذه الأيام طالت لتصبح ثمانية أشهر اعتذروا مني بعدها، وأطلقوا سراحي.

ـ هاه، وعندها فتح الله عليك – قال نبيل.

ـ أعوذ بالله من شر حاسد إذا حسد، يا رجل أمسك لسانك قليلاً.

ـ ولماذا أمسكه؟ نحن محبوسون هنا، وهم يقتلون هناك، وأنا لن أحتاج إليك بعد الآن، فهل يمكن إعطائي مبرراً لإمساك لساني؟

ـ أعوذ بالله، أعوذ بالله – قالها وهو يقوم متجهاً إلى التراس يبتعد عنهم.

ـ ليس من مكان آخر يا عبود – صرخ نبيل – نحن محبوسون معاً، ومحكوم علينا بأن نظل معاً.

ـ ما الذي تريده منه الآن؟ اتركه قليلاً – قال خليل.

ـ لا، أريده أن يخبركم كيف كوّن ثروته بعد خروجه من السجن بمدة وجيزة.

اندفع عبود إلى الغرفة غاضباً.

ـ الحق عليَّ على ما أظن؟ أنا المخطئ في إدارة أعمالكم وأنتم في السجن.

ـ صحيح، أدار لنا أعمالنا، فأصبح مليونيراً، وأصبحنا كما ترون.

ـ أظن أنك ستقول إني كنت فقيراً، ومن عمولاتكم الحقيرة شكلت ثروتي.

ـ نعم، كنت فقيراً، ومن عمولاتنا الحقيرة شكلت ثروتك.

ـ لا تتحامل يا نبيل، أنسيت أراضي أبيه – قال سعيد.

ـ كان الإصلاح الزراعي قد استولى عليها.

ـ ولكنهم تركوا له نصيباً.

ـ وأحسن استخدامه، وكما فعل أبوه من قبل حين كان يلاعب الآغا القمار، ويسجل عليه الكمبيالات كان يبيع ويشتري بأموالنا، ويخصم لنفسه السمسرات ونحن في السجن.

نظر عبود إليه في حقد، ثم مضى مندفعاً إلى التراس.

ـ عبود، إلى أين تذهب؟

ـ لن أمكث معكم في مكان واحد أبداً.

ـ أنت مكره على هذا.

ـ أرفض هذا الإكراه، وسأظل في الخارج حتى يأتينا الإنقاذ أو الموت وتدخل سعيد فجأة.

ـ لماذا تفسدون الجو بهذه الطريقة؟ أنسيتم أننا مهددون بالموت في أية لحظة؟ أنسيتم أننا مسجونون ها هنا إلى أن يأتي الفرج، ما الذي جرى لك يا نبيل، كفَّ عنه، تعال يا عبود تعال.

ولم يردّ عبود، فقام سعيد إليه، وعاد يجره معه، كانت الشمس قد مالت للغروب، ولم يحسوا بمرور الوقت، وفجأة قالت نوال.

ـ أنا جائعة..

وكأن تصريح نوال قد بعث فيهم الإحساس بالجوع الذي كانوا قد نسوه.

ـ لدينا بعض المعلبات — قال سليمان.

ـ سأحاول تجهيزها لكم — قالت نوال، ولحقت بها سليمة.

وقفتا في المطبخ قليلاً محتارتين، ولكن سليمان لحق بهما، ومن خزانة صغيرة أنزل عدداً من علب اللحم والسردين والطونا، بحث معهما عما يمكن أن يصلح لصنع سلطة، فلم يجدوا إلا ليمونة وبعض أوراق الخس وخيارة.

ـ يكفي هذا — قالت سليمة — يمكنك أن تعود وتتركنا نقوم بعملنا.

ـ ألا أساعدكما — قال سليمان على استحياء، وهو ينظر إلى نوال في أمل.

ـ لا داعي — قالت نوال.

ـ سليمة، هل يمكن أن تتركينا قليلاً، قال سليمان.

نظرت سليمة إلى نوال متسائلة، ولكن نوال أجابت.

ـ سليمان، أرجوك، دعنا الآن.

ـ سليمة، دقيقتان فقط — قال سليمان.

وتحركت سليمة في اتجاه باب المطبخ.

ـ سليمة، ابقي أرجوك، سليمان، الظرف لا يسمح بمحاورات من هذا النوع، أجّل الموضوع الآن.

ـ نوال، لا أريد أن أفقدك.

تحركت سليمة في مكانها في قلق محرجة من هذا الحوار يجري أمامها.

- سليمان، احتملتك كثيراً، ولم أكن أحتاج إلى أكثر من هذه الفرصة لإعادة التفكير واستعادة نفسي، سئمتك، وسئمت الرجال جميعاً، فهل يمكن أن تتركنا من فضلك؟

قالت الجملة الأخيرة في عصبية وبصوت مرتفع نسبياً جعل سليمان ينسحب.

- قسوت عليه — قالت سليمة.

أخذت تفتح العلب، وتفرغها في الأطباق دون أن تجيب.

وبعد الغداء، وحين حاولت سليمة غسل الصحون اكتشفت ألا ماء في الحنفية، نادت سليمان تستشيره في الأمر، أسرع إلى بقية الحنفيات لا فائدة، انقطع الماء عن الحنفيات، ما العمل؟ أصيب الجميع فجأة بالذعر، وأحسوا بالعطش، أسرعوا جميعاً يبحثون في كل مكان، البراد ولا زجاجات ماء فيه، فلقد شربت جميعاً، البراد الصغير، ولم يتبق فيه قطرة واحدة، المطبخ، الحمام، التراس، انتهى الماء.

- ما العمل؟

- كل شيء يهون إلى جانب نقص الماء — صرخ سعيد.

- يجب أن نطلب نجدة — قال نبيل.

- ولكن كيف؟ ومن؟ من سيستجيب لنا في هذا الظرف.

أخذت آخر أشعة الغروب تجلل المكان، وتتسلل إلى خفاياه لتحيل الوجوه إلى أشباح، وتزيل التفاصيل الصغيرة عن الوجوه فتتشكل كتلاً ضائعة الملامح مهمومة.

- لم يكن ينقصنا إلا هذا — قال نبيل.

- ستتوقف هذه الفوضى عاجلاً أم آجلاً، وسينتبهون إلينا.

ـ ما الذي سيجعلهم ينتبهون إلينا؟ قال سعيد.

انسحبت إلهام إلى التراس، صدمت حصاة بقدمها، ودفعتها بعيداً، النافورة ملقاة على الأرض، دفعتها بقدمها، لقد جفت، رفعتها قليلاً، حركتها، لعل فيها ماء، جفت منذ أمد، وكان يجب عليهم أن ينتبهوا إلى انقطاع الماء منذ أن انقطع عن النافورة، لعل هذا أفضل — قالت لنفسها — حياتهم وموتهم لن يغيّرا شيئاً.

نظرت إلى المدينة، لا يزال الجنون الحاكم الأوحد، شهب صغيرة طلقات خطاطة، اندلاعات مفاجئة، حرائق صغيرة هنا وهناك، واقيات النوافذ مغلقة جميعاً كمن ترتكب الخطايا أمامه فيغمض عينيه تقى، إنه لا يراها.

الأفق البعيد، الجبل العجوز يراقب المدينة والانفجارات، يرقب الحشرات الصغيرة تركض، تظن نفسها تصنع شيئاً، دمية شُدّ نابضها، تركض قليلاً، يتوقف النابض، تسقط، لا صراخ، لا أنين لا بقع دماء، إله صغير يرقب بتجرد، انتهى زمن العواطف، إنه زمن العنف والدماء، زمن الوحش يسيطر، يحكم بالقانون الذي نكّروه طويلاً، أحرقوا مكتباتكم، أغلقوا جامعاتكم، سخّفوا معارضكم وتفاهاتها، الحكم اليوم للعنف، العنف الذي يخرج من الأظافر التي لم تعد تقلّم، العنف الذي مُوّه طويلاً بالبنطلونات الأنيقة المستوردة، العنف الذي أخفي طويلاً تحت القمصان ذات الألوان الجميلة، العنف الذي خدعنا حين ظننا أنه انتهى مع القلادات الغريبة التي تعلق على الصدر قروناً صغيرة ومخالب، صلباناً بلا معنى وخواتم، أحذية صغيرة وتمائم، الوحش يعود إلى العالم.

ـ إلهام، ألن تدخلي، بدأ الجو يبرد.

التفتت، كان خليل، وكان واقفاً إلى جانب الباب.

ـ لا أحس بالبرد.

ـ منظر محزن، أليس كذلك؟ قال خليل وهو يقف إلى جوارها.

ـ رحلة الفئران الأخيرة.

ـ الرحلة الغريزية لإنهاء كل المشاكل مرة واحدة.

ـ ولكن الصقور تنجو.

ـ والفئران تموت.

التفّت المدينة بالجلباب الأسود، فلم يعد هناك من ضوء، اختفت الدمى والبيوت والسيارات والشوارع، الأشجار وظلالها، لم تعد ترى إلا بضع التماعات حرائق خفية متناثرة في أنحاء المدينة.

ـ دعينا ندخل – جذبها من ذراعها، أحس بليونة ذراعها الممتلئة قليلاً.

استكانت تحت وقع أصابعه قليلاً، ثم جذبت نفسها بعيداً متجهة إلى الغرفة، كانت هيلين الشمعة قد أشعلت ثانية فاختلط ضوؤها مع آخر أضواء النهار البائد، وكان دياب يملأ كأسه من العرق، ولم يكن هناك ماء ليخلطه، كما لم يكن هناك ثلج، وضع الكأس على فمه، وأخذ يجرع.

ـ دياب، ستحرق أمعاءك بهذه الطريقة – قال خليل.

والتفت إليه من مجلسه بنصف وجهه.

ـ ما الذي يهم بعد يا خليل، إنها محروقة محروقة.

ـ سنجد حلاً، لا تكن كثير التشاؤم.

ـ لست شديد التشاؤم يا خليل، ولكن، لم تعد لي رغبة في الاستمرار.

ـ هيه، دع هذه الكأس من يدك، وحدثنا، تكلم يا رجل.

ـ الحديث؟ صحيح، لم يبقَ لنا إلا الحديث.

ـ نحاول تناسي ما يجري هناك – وأشار خليل إلى الخارج.

ـ إننا جزء منه.

ـ كنا، ولكنا طردنا – قال سليمان.

ـ إنهم أبناؤنا، نحن الذين شحنَّاهم بما يقتتلون من أجله، أليست مقالاتك...؟ ومحاضراتك...؟ وطالباتك...؟ وكان يشير بإصبعه من واحد إلى آخر.

ـ دياب، هل أثقلت الشراب؟

ـ كلكم تتمنون هذا، تقولون أثقله الشراب، ولن يتحدث، لن يقول كل شيء، لن يفضح، ولكني سأقول، أتسمعون؟

ـ دياب، قل، أهناك ما يزعجك؟ قال سعيد بعطف.

ـ أنت إنسان آخر يا سعيد، أتتذكر؟

ـ أذكر ماذا؟ قال سعيد مدارياً.

ـ أتتذكر؟ لا، لا أظنك تذكر، قالها يائساً.

ـ أذكر ماذا يا دياب؟

ـ حين كنا ساهرين في الشانزيليزيه.

ـ منذ متى؟

ـ ألم أقل لك؟ إنك لا تذكر... لم أكن قد شربت في حينها غير كأس واحدة – أخذ يحدث الآن في وتيرة رتيبة كمن يحدث نفسه – وكنت قد سألتني فجأة عما أراه لترجمة كلمة الاكولتشريشن فقلت ساعتئذ: إني أرى أنها تعني التمازج الثقافي، أو التلاقح الثقافي.

ـ آه صحيح، الآن أذكر.

ولكن دياب تابع كمن لم يسمع مقاطعة سعيد.

ـ ولكنك اعترضت، وقلت إنك ابتكرت لها ترجمة جديدة هي المثاقفة.

ـ صحيح، صحيح.

ـ ودار النقاش قليلاً حول هذه النقطة، وكان يمكن أن ينسى كما تنسى كل النقاشات الصغيرة لو لم أدعَ في تلك الليلة إلى سهرة كان فيها شاب أقرب إلى الصبي في العشرين، أو حواليها، وكان وجهه أبيض بشكل غريب، احتفى بي كما احتفى الموجودون، ولكن كان في عينيه وفي شفتيه أسئلة كثيرة — رفع الكأس إلى شفتيه ليشرب، ولكنه كأنما قد غير رأيه إذ حينما اقترب الشراب من شفتيه أعاده مشمئزاً.

سأله واحد من الحاضرين: هل عانيت كثيراً؟ وكأنما بإضافة واحد إلى الحاضرين وجد فرصة أخرى للحديث، فأخذ يحدث عن التعذيب ويحدث.

كان فتى صغيراً بعينين بنيتين واسعتين، وشعر طويل قليلاً، حدَّث عن لحيته التي نتفت خصلة فخصلة، حدث عن وسائل وأشكال من التعذيب لم أتوقف عندها رغم توجهه إليَّ بالحديث، ورغم محاولته بهري بوصف تحمله، ولكني فجأة توقفت أمام شكل غريب من التعذيب كما سماه، حدث عن كيس أسود ألبسوه له عند التحقيق، كيس أسود؟ سألته، أجاب: نعم، وكأنما سعد لاهتمامي، فأخذ يمعن في الشرح والتفصيل: يدورون بك قليلاً حتى تضيع حس الاتجاه، ثم ينفجر فجأة سؤال ما من اليمين، فتلتفت لتجيب، ولكن كلمة كذاب تصفعك من اليسار، تلتفت لترد، فتجد السؤال الثاني ينتظرك من الخلف الذي كان أماماً، وتحس بالصغار، بالضياع، بالاضمحلال من أنت؟ ما أنت؟ ما يريدون؟ وكان هذا ما يريدونه فعلاً.

أنت حين تجيب فترى انعكاس جوابك على مخاطبك، فأنت تعرف في الوقت نفسه إن كان قد اقتنع أم لم يقتنع، فتقرر الاستمرار في الرواية، أو تغيير شكلها، وتعرف إن كان سيتحول للعنف فتستعد، لقد عُوِّدنا على التعامل مع حاسة البصر، ولكنهم يفقدونك إياها ليس عن طريق العصب، ففيه تحس بأن شيئاً خارجياً يمنعها من العمل، ولكن بهذا الكيس الأسود اللعين، الظلام الغريب، ضياع المكان، أنت في اللامكان، في

اللاواقع، وتضعف، ولكن شيئاً من الداخل يناديك، تكيَّس أيها الرجل، وضعوك في كيس لإضاعتك، ولم يبق لك إلا أن تحارب بنفس السلاح، تكيَّس كما تفعل الكائنات الأكثر ضآلة في الكون حين تدافع عن كينونتها ضد العدم، تكيَّس، وعند تكيُّسك ينهارون، يتحولون إلى الضرب المنظَّم وغير المنظم وترتاح، إنه تعامل المادة مع المادة، الجسد مع الجسد، تتوقع الضربة وتنالها، وتحس بالتماسك، فتقوى ثانية وتقرر الصمود.

حين كان يتحدث أحسست بدوار خفيف، أيعقل هذا؟ أيمكن؟ وكان في الحاضرين بعض من كان سجيناً سياسياً فيما مضى، فسألتهم إن عرفوا الكيس الأسود؟ وأجابوا بالنفي.

أنهى الصبي حديثه وأصبح الكيس الأسود همي، صار السجناء السابقون مطلبي، وكلما قابلت واحداً منه انفردت به وسألته عن الكيس الأسود، ولكنهم جميعاً نفوا معرفتهم به وأدركت الحقيقة التي كنت أخافها دائماً، ...نحن الذين أرشدناهم إلى الكيس الأسود.

- كيف؟ سأل سعيد مسحوراً.

- كان ذلك بعد عودتنا من فلسطين حينما اجتمعوا بنا وسألونا، وحدَّثناهم عن كل شيء، عن التعذيب، عن الضرب، عن الزنازين الصغيرة تبنى على قدر جسم الإنسان، فلا تمكنه من الوقوف لأنها أقصر من طوله، ولا تمكنه من الجلوس فذرعها لا يزيد عن نصف متر في نصف متر، وعن أرضها المفروشة حصى مدبباً مثبتاً بالاسمنت يجلد الأقدام العارية، ويعذبها، تبحث عن نقطة راحة فلا تجدها، تبحث عن متكأ يرتاح إليه الجسم العاري فلا تجده، تبحث عن صديق تحاوره، فلا تجد إلا النفس، تتذكر الحلم القديم، الرغبة في العودة إلى الرحم، ها هم قد أعادوك أخيراً كبيراً عارياً مشعر الجسم، مقبوض اليدين، مجبراً على الانحناء، وثني الركبتين تماماً كما لو كنت في الرحم، ولكنه الرحم الأسود، العتم، العذاب، الجلد، الصفع، التحقير.

- دياب، خذ سيكارة — قالت سليمة تناوله سيكارة مشعلة.

أخذها منها سحب منها نفساً عميقاً، أبقاه في صدره طويلاً، ثم قذفه كما لو كان يتمنى أن يقذف برئتيه معه.

ـ وحدثناهم عن الكيس اللعين الأسود يُفَصّل على قد الرأس بأنشوطة تشد على الرقبة فتعزل كل الحواس خارج العالم، وليس من صوت إلا هذا الصوت الغريب الذي يجرك وراءه يميناً - شمالاً، ثم يأتيك صوت آخر غريب، وتتقدم ليبدأ الاستجواب اليومي اللعين، ولكن الحيلة التي لجأ إليها الفتى فيما بعد كنت قد اكتشفتها من قبل، كانوا قد جرّبوا الضرب فتكيست مقنعاً نفسي أني لست المعني بالضرب، وجلادوا العالم جميعاً يعرفون، والمحترفون منهم خاصة يعرفون: متى تقرر الضحية احتقار هذا المنقض وحشاً والتكيس، وعند ذلك ينسحب الجلاد على الأغلب لأنه يعرف ألا فائدة من بعد.

وحينما جرّبوا الكيس الأسود ذعرت في البدء، أصابني الضياع، وحاولت إيجاد طريقة للتعامل معهم، ولم تكن هنالك من طريقة إلا التكيس، رفض الاستجابة، رفض العالم خارج الكيس، توقعت الضرب والتعذيب، ولكنهم لجأوا إلى الغرفة الرحم، وفيها - وهذا الطريف في الأمر - أتيحت لي الفرصة للتفكير، وتذكرت ما كنت أسمعه عن محاكم التفتيش في إسبانيا، والتي كان يمارس فيها الكهنة المحققون تعذيب الأندلسيين المسلمين واليهود، فكانوا يلبسونهم الكيس الأسود الذي بقي في ذاكرة اليهود يحملونه جيلاً بعد جيل، ولا شك أن الذي قدمه لمحاكم التفتيش الحديثة في فلسطين كان يهودياً أندلسياً.

ـ تسفارادي - قال سليمان.

ـ نعم، تسفارادي حمله في ذاكرته، ولكن ليمارسه ضد شركائه في العذاب، ضد العرب.

ـ ثم حملته لتنقله إلينا معك.

ـ نعم يا سيدي، وهذا هو التلاقح الثقافي الجديد.

قالها وهو يطفئ السيكارة في صحنه ويستند إلى الوراء في هدوء، ران الصمت على الجمع ثانية.

- جعت، قالت نوال.

- كلنا جعنا – قال سليمان – ولكن، ما العمل؟

- سأبحث عن شيء في المطبخ – قالت نوال وهي تقوم.

استرخى سليمان إلى الوراء بظهره يستسلم للراحة، لعله يوفر شيئاً من الجهد، من الطاقة.

- ألم تجوعوا؟ سأل سعيد... أعني في السجن.

- الجوع؟ أظن أني بعد ذلك الجوع بدأت أفهم الكهنة الهنود قليلاً.

- كيف؟

- بعد إضراب عن الطعام استمر أسبوعاً – وكنا أربعة في زنزانة واحدة – كانوا يأتوننا بالطعام الذي غيّروا نوعيته، وحسّنوا طعمه وزادوا من كمية التوابل والبهارات فيه بشكل غير معقول، كانوا يعرفون أن الحيوان إذا جاع نشطت حواسه، وخاصة الشمّ منها، كان الطعام على مبعدة مترين منا، ولكن الرائحة كانت تتسلل إلى الأنف، فالحلق، فالصدر فالنخاع الشوكي، كنت أحس الرائحة تداعب حواسي مداعبة أقرب إلى الجنس، تتسلل، تتحسس، تداعب، تدغدغ، تحرّك، تثير، تدفع بالعصارات الهاضمة إلى المعدة فتنفتح كالرحم ينتظر القذف ولكنه يتأخر فتصاب بالإحباط، فتنقبض، ثم هبة رائحة أخرى، ومداعبة وتسلل ودغدغة، وانفتاح ثم إحباط آخر.

وقررت أن ألعب اللعبة الأخرى، لعبة الوهم، استلقيت في السرير، أغمضت العينين، غطّيت الرأس بالبطانية، وبدأت أنسج الوهم، أنا الآن طفل صغير في المنزل، أصعد الدرج، الأم في غرفتها العلوية، أتسلل إليها أريد احتضانها وتقبيلها، إنها عودة الغائب، أدخل الغرفة، الأم تتحول إلى صينية من ورق العنب المحشو، أنفض الرأس، وأبتعد، وألعن الخيال

الفاشل، أقرر استدعاء صورة أخرى، المرأة، المعشوقة المحبوبة، جلسة إلى جانب النهر، أغصان الصفصاف المهتزة المتمايلة المرتعشة، وأركز على تفاصيل الوصف لأخلقه.

ونظرت إلهام إلى سليمة في إصرار، فالتفتت إليها، ثم غضت بصرها، بينما تابع دياب:

- وأرى الصفصاف والنهر والغيمة الصغيرة في آخر الأفق، بل أرى ورقة صفصاف صغيرة تتهاوى في هدوء، في اتجاه صفحة النهر، المجلس المستتر بين الصفصاف وأشجار الحور على مبعدة قليلاً، ضفدع تقفز إلى جانب النهر الطيني، العينان الواسعتان السوداوان، فقاعات ماء صفراء في جانب النهر الراكد، الحبيبة الجميلة مستلقية تنتظر التقبيل والعناق، أنظر في اتجاهها... مائدة طويلة انتشر عليها اللحم المشوي والسلطات والمتبلات والحمص والعرق والماء والثلج والنعنع ،...

رفعت سليمة رأسها لتواجه بنظرات إلهام المثبتة عليها، نظرت إلى دياب كان منهكاً تماماً، وأحست بالشفقة عليه، لقد قاسى المسكين كثيراً، كانت نظرة الطفل المنهك الذي ينتظر أن تربتي على رأسه، أو أن تداعبي رأسه بأظافرك، فيستسلم مسترخياً تحت يدك، وكانت تتمنى أن تفعل ذلك، ولكنها كبتت رغبتها وأنصتت له يكمل بصوت منهك.

- اللعنة، حتى الخيال يهاجمني... أمسك بأطباق الطعام المهاجمة فأرميها في سطل البول، عيون ترمقني في شبق وحقد، إنهم المتظاهرون بالنوم الثلاثة.

عادت نوال ومعها قطع من الخبز، إنها ما تبقى من الوجبة الأخيرة، لقد جمعت في صحن واحد كبير كل ما تبقى من الوجبة الأخيرة، بقايا سردين وبقايا طون وبولوبيف وضعتها أمامهم، نظروا مستغربين المنظر في البدء، ولكن عبود تناول أقرب قطعة خبز أمامه، وسرعان ما تلته يد نبيل، وغاب الطعام من أمامهم.

نظروا إلى الأطباق الفارغة، والعيون تسأل، ولكن الأفواه خجلة.

- أليس من شيء آخر؟

- كان هذا آخر ما وجدت.

استندوا إلى ظهور مقاعدهم يفكرون، وأحصى سليمان بناظريه الزجاجات الفارغة يخمّن كم بقي لديهم من الكحول، ولكنه اكتشف متأخراً أنهم شربوا كل شيء.

- أمعكم سكائر؟ كان هذا سعيد.

وأسرعت الأصابع تقبض على العلب، ولكنها كانت ترتفع في أيديهم خفيفة، لقد خلت أخيراً، وانقبضت الأصابع عليها تسحقها، وترميها إلى التراس إلا أن إلهام أخرجت من حقيبتها علبة، ناولت سعيد سيكارة منها، وامتدت الأيدي تتناول كل سيكارة فيها وتشعلها ثم يستندون إلى ظهور مقاعدهم، وانتبهوا بهدوء إلى أن الانفجارات لا تزال تلعلع، ولم يرغب أي منهم في التعليق.

التفت سليمان إلى خليل.

- ولكنك لم تحدثنا عن رحلتك إلى الريف تلك.

- لا أجد ضرورة لذلك.

- لا، بل ذلك ضروري — قال سليمان في إصرار.

- لماذا؟ سأل خليل مندهشاً من لهجة سليمان.

- أرجوك — قال سليمان.

- همم، - توقف خليل عند لهجة الرجاء لدى سليمان ودلّك رقبته قليلاً كمن يستحث الذكرى، وقال:

- خرجت من المعرض، نظرت إلى الناس من حولي، كلٌ يضع يديه في جيوبه ويسرع، غير عابئ بأحد، العيون ميتة النظرات إلا إذا وقعت على واجهة محل، فتنبعث فيها الحياة قليلاً، وتأخذ في الفرجة على الملابس

والأحذية وربطات العنق، ويأخذ العقل في الحساب في هذه الأثناء، كم سيكلفني هذا المعطف؟ وهذه الربطة؟ ثم يحزم أمره، ويتدحرج مكملاً مسيرته، وتعود النظرة الميتة المنغلقة إلى العيون.

وقررت أني يجب أن أنفض عن كاهلي هذه الطحالب التي غلفت روحي. يجب أن أصنع شيئاً، وراودتني الصور ثانية، الجبهة، الطائرات الصخور السوداء، وقررت أن أرحل.

- من أجل هذا فقط؟ قال سليمان.

- نعم، نظر خليل إليه بضعف.

- متأكد؟ أضاف سليمان.

- وتوزيع المنشورات، ومحو الأمية؟ قالت سليمة.

- كان ذلك مشروعاً قديم الفشل، ولم تلبث أن كرَّت وراءه السنين تحمل معها ثمار الفشل، ثماراً مرة جعلت تتراكم حتى لم أعد أحتمل، وبحثت عن مكان أفر إليه، مكان لا أعرف فيه أحداً، وكان لي صديق غريب الطباع ترك الدراسة الجامعية في منتصفها، وقرر أنه يجب أن يعود إلى قريته، وكان كثيراً ما يكتب لي يصفها، ويتمنى أن أمضي بضعة أيام عنده هناك، أو... ربما المدة التي أراها.

- النويصرية؟ سأل سليمان.

- نعم – قال خليل – فكتبت إليه أسأله إن كان يستطيع استقبالي وكنت أتحسس رسالته ترحب بي في جيبي حين خرجت من المعرض.

- ورحلت؟

- تعلم أني رحلت؟

- لماذا؟

- ألم أقل لك؟ لقد مللت من كل شيء.

- لا أصدق، فلمَ عدت؟

ـ لم عدنا؟ قال سعيد – كان يجب أن تغيرٌ صيغة السؤال.

والتفت سليمان إليه مندهشاً.

ـ عدتما؟ هل صحبته إلى هناك؟

ـ لا، لم أصحبه، ولكني تبعته.

ـ لماذا؟

ـ أنت تكثر من الأسئلة هذه الليلة يا سليمان – قال خليل وهو ينظر بجانب عينه إلى نوال.

ـ لا، ولكني أبحث عن حقيقة ما – قالها بحدة مرة.

ـ لقد أصبحتم مملِّين بهذا الحديث المتوتر – قالت سليمة – ألا يكفينا ما نحن فيه؟ سأذهب لأنام.

ـ وأنا أيضاً – قالت إلهام، وتابعتهما نوال بعينيها، ثم قامت دون أن تقول شيئاً، وأغلقت الباب من ورائهن.

ـ أف، أكاد أختنق – قالت سليمة وهي تخلع فستانها، فبدت كتفاها الجميلتان ممتلئتين، نظرت إليها إلهام طويلاً، ثم انثت على نفسها طاوية ركبتيها إلى صدرها، أخذت تتأمل أعقاب السكائر الكثيرة على السجاد والشراشف المنثورة.

ـ مسكين الإنسان – قالت إلهام بحسرة.

نظرت إليها نوال طويلاً بينما تناولت سليمة نصف سيكارة مطفأ، فأشعلته ثانية، وامتعض وجهها لطعم المجة الأولى ثم أطلقت الدخان من فمها، والتفتت إلى إلهام.

ـ وما الذي جعلك تتحسرين الآن؟

ـ من كان يصدق أن هذا البيت المعتنى به طويلاً، المكرس قطعة فقطعة والمنتقى أصيصاً فأصيصاً ينتهي إلى ما انتهى إليه الآن.

ـ أكنت تعرفينها جيداً؟ سألت نوال.

ـ طبعاً، كانت صديقتي منذ أمد طويل.

ـ أي نوع من النساء هي؟

ـ مسكينة، لا شيء غريب فيها سوى أنها كانت جميلة.

ـ جميلة؟

ـ جداً، كانت كملكة النحل أينما انتقلت وجدت اليعاسيب تلاحقها.

ـ ولكني رأيتها في إحدى المرات، لم تكن على هذه الدرجة من الجمال.

ـ ربما رأيتها في الأيام الأخيرة، امرأة مهزومة، مطفأة العينين غائرة الأمل.

ـ ولكن لماذا؟ قالت سليمة.

نظرت إليها إلهام دون أن تجيب.

ـ هل عرفتها قبل أن تتزوج.

ـ إنها صديقتي منذ زمن طويل.

ـ كيف تعرّف عليها؟

ـ لا أعرف بالضبط، ولكنها كانت محبوبة من الكثيرين، كنت ترينها دائماً، واثنان، أو ثلاثة يلاحقونها برسائلهم، بعواطفهم، وشهرتهم.

ـ وكانت تستجيب؟

ـ لو لم تكن تستجيب لانقطع سيل اليعاسيب.

ـ كانت غزلة إذاً؟ قالت سليمة.

ـ كانت تحب الرجال، والمشهورين منهم، لم تكن تهتم بثرائهم، أو جمالهم أو شبابهم، كانت تهتم بقوتهم، والقوة عندها احترام الناس، الشهرة، التفافهم من حوله.

ـ أكان سليمان من بينهم؟

ـ كان الأخير، وحينما تقدَّم إليها سخرت منه في البدء، فلقد كان لديها من هو أكثر شهرة ومكانة وموهبة.

ـ كان واعداً — قالت سليمة في استنكار.

ـ صحيح، ولكن شرخاً دقيقاً جداً وخفياً حتى عنه على ما أعتقد كان موجوداً في شخصيته، وهو الذي جعله يسقط درجة فدرجة ولا ينجز الوعد.

ـ أنت امرأة ذكية — قالت نوال في هدوء — احتجت إلى سنوات لأكتشف هذا، إلى كم احتجت حتى أدركت هذا عنه؟

ـ سنوات، سنوات أيضاً يا نوال.

ـ ولكنك أبداً لم تكوني على علاقة حميمة معه.

ـ صحيح، ولكني كنت أراقب.

ـ كيف قبلت به إذاً؟

ـ أعتقد أنها كانت قد سئمت العلاقات الخفيفة، الصحبة، المداعبة، وكانت قد تخرَّجت، وآن أوان أن تجد لنفسها خطاً واضحاً في الحياة، فلما تقدَّم إليها أدركت بحدسها أنه ليس فارسها، وفي حياتها مجدي.

ـ مجدي علاء الدين؟ قالت سليمة.

أطرقت إلهام برأسها — وتعرفينه؟

ـ ومن لم يعرفه؟ ومن لم تحلم به في صباها؟ إيه، لم تكن ساذجة هند هذه أبداً.

ـ لا، لم تكن ساذجة، ولكنها لم تعرف أبداً كيف تخلُّوا عنها جميعاً.

ـ جميعاً؟ ومن غير مجدي؟

ـ خليل الموازيني وإلياس المعلولي.

ـ هوهوهوه، كانت امرأة نشطة.

- كانت تقول أحياناً إنها لعنة ما، تلك التي أبعدتهم عنها فجأة، والواقع أنها هي الأخرى لم تسعَ وراءهم كثيراً بعد ابتعادهم عنها، وصدقْتُ معها أنهم ابتعدوا عنها احتراماً له، أو لأي شيء آخر، إلى أن كنا مرة في سهرة في البالميران هاوس، وكان هناك مجدي وكان السكر قد طوّح به.

- مسكين، لو لم يتحول مدمناً لكان من أكبر الشعراء.

- صحيح، ولما قام الجميع للرقص، وتعرفين أني لا أحبه، وكان قد أقعده السكر، فبقينا وحيدين، ولست أدري ما الذي أهاج سيرتها في ذهنه، أهو كوني صديقتها، أم أنها الذكرى؟ لا أدري، المهم أنه سألني فجأة:

- وما أخبار هند؟

- لا بأس.

- سمعت أنها لم تسعد تماماً في زواجها من سليمان.

- ليست شقية ولا سعيدة.

- مسكينة، هل تظنين أنها أخطأت في زواجها منه؟

- ولم أظن ذلك؟

- كانت تستحق زواجاً أفضل.

- لماذا؟ سألت متجاهلة.

- كانوا كثيرين أولئك الذين يحبونها.

- أكنت واحداً منهم؟ سألته في مباشرة.

- ربما — أجاب في غموض.

- ولَم تخليت عنها؟

- لم أكن الرجل الذي يبحث عن زواج في ذلك الحين، ثم... كان سليمان صديقي.

- وتترك لصديقك المرأة التي تحب؟

ـ قلت لك منذ قليل: لم تكن الحبيبة الوحيدة، بينما كانت كذلك لسليمان.

ـ أكان يحبها إلى هذه الدرجة؟

ـ جاءني والحزن في عينيه دموع، والارتباك في جبينه تثنيات، كان ما يزال يستخدم التعبيرات الضخمة المعروفة عنه — وتابعت — بكى بين يديَّ، وحدثني عن حب حياته، عن العاطفة تزرع في الصدر كالبذرة المباركة حدثني وحدثني، ووجدت نفسي في فروسية أعلن إليه ألا شيء بيننا على الإطلاق، وأنها حرة في الاختيار، ولكنه أمعن في رجائه، ورجاني أن ابتعد! فابتعدت، وبعد شهر علمت أنهما تزوجا.

ـ ولكني علمت أنه كان لها عاشقون آخرون.

ـ عرفت شيئاً من هذا، ولكنهم ابتعدوا أيضاً.

ـ وهكذا تزوجا؟ قالت نوال.

ـ ومضت سنوات كان يبدو لي أن كلاً منهم سعيد بالآخر، ولكني كنت أحس — لست أدري كيف — ولكني كنت أحس أن هناك جرحاً صغيراً، مندملاً ومغطى بالمراهم واللواصق؟ ربما، ولكنه كان موجوداً، وأنت تعرفين: الجراح القديمة ننساها، ولكنها لدى أول موجة برد تذكرنا بنفسها لذعاً ووخزاً وألماً.

ـ ونوال كانت موجة البرد!

نظرت نوال وإلهام إلى سليمة مفاجأتين من طريقة حديثها، ولكنهما عادتا إلى نفسيهما، بحثت نوال بعينيها على عادتها عن علبة السكائر على الكومودينو القريبة، ولكنها لم تجد شيئاً فسكتت.

ـ بدا لي كبيراً، كبيراً جداً، وظننت أني سأعثر لديه أخيراً على ما بحثت عنه طويلاً، وكانت تجربة حياتي مشبعة بكارثتين.

ـ بعد وفاة زوجك الأول.

ـ لا، كان زواجي الأول الكارثة الأولى، ولم يدخل حياتي بعده إلا خليل.

ـ خليل؟ قالت إلهام في غيرة، وحسد خفيف يتحسس جدار قلبها.

ـ نعم، كان حلماً عجيباً مرَّ في حياتي، رأيت فيه النقيض لكل ما كرهت. كان الصبا.

ـ الصبا؟ قالت سليمة مفاجأة.

ـ نعم، لا تنظري إلى لحيته الكبيرة هذه، ولا إلى رزانته وغليونه ولكنه في أعماقه صبي، ينظر إلى العالم بعيني صبي، وأعتقد أن هذا سبب عدم تأقلمه مع الحياة، فالناس ينظرون إليه كهلاً، ويرفضون قبوله إلا على أنه كهل، بينما يمور في أعماقه تيار من الولدنة والعفرتة والطفولة المكبوتة، أحببت فيه هذا، أحببت فيه نظراته الحالمة أحببت فيه كل ما كرهت في زوجي، وحينما عدت بعد وفاة زوجي، بحثت عنه طويلاً، ولكنه كان قد اختفى، فقد غيَّر منزله كما غيَّر أهلي منزلهم، وشطَّ البعد بيننا، وحصلت على الثانوية فقررت العمل.

ـ وهناك تعرفت على سليمان؟

ـ نعم.

ـ ولكن، لماذا تسمين تجربتك مع خليل كارثة؟

ـ كانت جرحاً مفتوحاً يأبى أن يندمل، ثم لقيت سليمان فظننت أني واجدة عنده ما أحببت في خليل.

ـ لدى سليمان قدرة عجيبة على أن يوحي بالتجربة والثقافة العميقة – قالت سليمة.

ـ لجلسات، أو لأيام فقط – قالت إلهام.

ـ ولكني احتجت إلى شهور حتى أعرفه، فقد كنت القطة العمياء بعد زواجي الأول.

ـ كنتما قد اتفقتما على الزواج.

ـ صحيح، تخليت عن كل شيء من أجله، السمعة، الأهل، العمل...

ـ ثم...

ـ بعد شهر في لندن فقط اكتشفت أنه لم يكن صادقاً معي أبداً، كان يريد التغيير في حياته فقط، وبدأ يحن إليها وإلى علاء.

ـ شعور طبيعي.

ـ صحيح، ولكنه لم يبد لي طبيعياً بعد كل هذه الوعود والأماني، فتركته وسافرت.

ـ سافرت؟ إلى أين؟ لم أكن أعلم هذا.

ـ لم أحدد لنفسي اتجاهاً، ولكني قضيت سنة اتسكع في أوروبة مستفيدة من بقايا ميراثي من زوجي الأول، أبحث عن نفسي، ولكن... كان لا بد أن أعود.

ـ والتقيتما ثانية؟

ـ نعم، ولكن ليس مع سليمان، بل مع خليل، وظننت أن القدر قد رضي بمصالحتي أخيراً، ولكن خليل الذي لقيته لم يكن أبداً خليل الذي عرفته فيما مضى، خليل الشرفة والموسيقى والكتاب، خليل الحنون الهادئ المحب.

ـ ما الذي غيَّره.

ـ جرح في قلبه أسود غار في النفس حتى تحول إلى كابوس مرهق.

ـ عمَّ تتحدثين؟

ـ سنوات مرت على عودته من الحرب، ولكنها أبداً لم تكن كافية لشفائه من تلك التجربة.

ـ أو لم تعودا إلى علاقتكما الماضية؟

ـ حاولنا، وأقول الحق، حاول كل منا من جهته، ولكنها كانت محاولة، فجرحه عميق، ولا أظنه يصلح للحب من بعد.

ـ قصة ميلودرامية — قالت سليمة.

ـ هكذا تبدو لمن لم يعشها، ولكنه أخيراً وقد أرهقته المحاولة وأرهقه الفشل، ودون أن يخبرني، ودون أن يبلغ أحداً حتى من أصدقائه خرج مرة من المعرض ولم يعد.

ـ ذهب إلى القرية؟ قالت إلهام.

وقامت سليمة فجأة: إني عطشى، يجب أن يجدوا لنا بعض الماء، لا يمكن.

لبست فستانها بسرعة، وخرجت إلى الصالون، كانوا متكئين إلى مقاعدهم يحاولون النوم.

ـ سليمان، أرجوك، دبِّر لنا بعض الماء.

ـ أليس لديك خزان للحمام؟ سأل سعيد.

ـ صحيح.

ـ ألا يوجد فيه ماء؟

ـ لا أدري — ورنَّت الفكرة في ذهنه — دعنا نبحث.

ـ اتجه إلى الحمام، فتح الحنفية، ولكن صفيراً خفيفاً جداً صدر عنها، وليس من نقطة ماء.

ـ يجب أن نعثر على بعض الماء.

ـ كم الساعة؟ سأل نبيل من مقعده.

ـ الواحدة تقريباً.

ـ دعونا ننم الليلة، وغداً مع الضوء سنحاول شيئاً ما، لا يمكنكم أن تبحثوا وتفتشوا في هذا الليل.

ـ ولكني عطشى.

ـ ألا يمكن أن تصبري حتى الغد؟

ـ ولماذا أصبر؟ إني عطشى.

ـ حسن، ابحثي — وأدار ظهره يحاول النوم على الديوان بينما خرجت نوال إلى التراس تحاول أن تبترد في هواء بعد منتصف الليل.

ليلةُ الخَيْبَةِ

تسللت نسمة خفيفة باردة من شق الباب، ويبدو أن أحدهم تركه مفتوحاً قليلاً، فلامست خدَّه في حدَّة، حاول أن يهرب منها، فتقلَّب في مرقده، ولكن النسمة تسللت إلى الجزء المكشوف من ظهره، فتجمع حول نفسه ولكن البرد لم يتركه يهنأ، وأحس أن النوم قد هرب منه أخيراً، فانسحب من مرقده، وتمطى قليلاً، فطقطقت أوتاره جميعاً في صوت صارخ، وأحس راحة عذبة لهذه الطقطقة، وإن لم يفهم سر هذه اللذة التي يحسها بعد كل طقطقة، اتجه إلى باب التراس، كان ضوء ما بعد الفجر وقبل الشروق رمادياً أزرق، نظر إلى بعيد، إلى الأفق، كان اللون الفيروزي الحلو آسراً، السماء النظيفة صارخة الفيروزي، تأملها طويلاً، وأحس أن العالم جميل، خطا خطوتين محاولاً تجنب كتل الركام المحطمة بقدميه العاريتين حين اكتشف أن صوت الانفجارات ما يزال يحكم المدينة، تطاول برقبته قليلاً يراقب، بدت المدينة نائمة، فلا سيارات، ولا دراجات، ولا مشاة، ولكن ساكناً واحداً كان يتحرك، ويتجول، وكان هو الحاكم الوحيد، كان يخبط بجناحيه الأسودين، فيغلف القلوب بالجلال، كان الرعب العظيم لتتقدس أسماؤه يداعب أحلام النائمين، ويمسح على وجوه القتلى، وينديّ قبور الشهداء، ليرتفع اسمك عالياً يا سيدي العظيم، ليدم ملكوتك، فأنت دليل البشرية الأبدي.

وكأن هذا التحرك القليل ذكره بأنه جائع، فتسلل إلى المطبخ، فتش بعينيه، بحث، لا شيء، يد ماهرة مرت، فقضت على كل شيء. فتح البراد، النملية.. الخزائن المعلقة، لا شيء، لا شيء مطلقاً، عثر على وعاء السكر، لا بأس بملعقة سكر، ابتلع ملعقة فثانية، ولكنه أحس أن عطشه قد ازداد، فتح الحنفية، وكانت خرساء تماماً، جرب أن يشرق الماء منها فلعله يرفع

بعض الماء، حاول ولكن الهواء تسرب إلى رئتيه ممتلئاً برائحة الصدأ، جرب ثانية وثالثة، ولكن عبثاً، وأحس قلبه ينبض بعنف، فتراجع، فتح البراد ثانية، لا شيء، فتح الفريزر، علبة جافة، أغلقه بعنف، وعاد، ولكن... ولكن... ما هذا؟ صوت مبارك، صوت النعمة، أسرع يبحث عنه، جرى إلى المطبخ، لا، كل شيء جاف، إلى دورة المياه، لا، لا شيء، إلى الحمام، ولكنه لا يزال عتماً، جاء بقداحته، أشعلها، كانت حنفية الحمام تقطر قطرات بطيئة، ولكنها قطرات ماء، أسرع يركع أمامها، وأخذت القطرات تداعب لسانه الجاف، تذوب عليه، تتسلل في شقوقه، وأحس بالراحة تداعب أعصاب قذاله، أحس شعيرات رأسه تسترخي، وأحس فجأة أن كل المشاكل قد انتهت أخيراً، فها هو الماء يعود، ولكن لم عاد إلى الحمام فقط؟ والآخرون؟ ألا يجب أن يشربوا؟ ولكن أي ماء، وضع فمه على الحنفية، وشرق بعنف، فتسللت قطرات كثيفة تجمعت في فمه، ثم توقف الماء، اللعنة، ألم يعد الماء؟ انتظر قليلاً، توقفت الحنفية ثانية شرق ثانية وبعنف أكثر، ولكن لا، لا استجابة، قام يلعن الحظ، لو تركها تقطر بهدوء أما كان أفضل؟ ضرب بيده على خزان الحمام، فعاد الصدى إليه غليظاً، أعاد الكرة، آه، إذاً فالماء ها هنا، في الخزان، وأعجبه الاكتشاف.

فتح باب الصالون، كانوا ما يزالون يتقلبون، يحاولون النوم، يهربون إليه مما سيواجههم، وقال خليل وهو يلوي رأسه بعيداً.

- لماذا تثير هذه الضجة؟

- قم، قم، ألا تريد أن تشرب؟

- هل أعادوا الماء؟

- هل أعادوا الماء؟

- الماء.

وتتالت الأسئلة، وقد انتصب المتناومون جميعاً.

- أين؟

أسرع عبود إلى المطبخ، وسمع صوته وهو يفتح الحنفية ويحاول، وكان يسمعه بنصف وعيه بينما يشرح لهم.

- اكتشفت مخزناً للماء في البيت.

- أين؟ سأل سليمان.

- خزان ماء الحمام.

- ولكننا حاولنا بالأمس.

- إنه مليء، وعلينا اكتشاف طريقة لتفريغه.

- لا بد من ضغط معاكس – قال دياب.

رجع عبود يبربر غاضباً – أين الماء؟ أهذا وقت المزاح؟

- لا ليس مزاحاً، لكن خزان الحمام مليء، وعلينا التفكير بطريقة انتزاع الماء منه.

شق الباب، وخرجت سليمة تتلوها نوال.

- أين الماء؟

- اهدأن، اهدأن.

- يجب أن نجد طريقة – قال سليمان.

- ولكن كيف شربت؟ سأل خليل.

- سمعت صوت الحنفية تقطر، فبحثت حتى عثرت عليها، ثم شربت.

اتجهوا إلى الحمام، وكانت الشمس وقد بدأت البزوغ ترسل بعض أشعتها المنكسرة إلى الحمام، فأضاءته بعض الشيء، لمحوا الحنفية، فانقض عبود عليها يشرق بعنف، وكافأته الحنفية ببعض الماء، فظل منثنياً عليها يرشف، وارتعاشة لذة تداعب ظهره، وأسرعت الأيدي تشده بعيداً عنها.

- ولكني لم أشرب.

انحنى سليمان فوق الحنفية، ولكنها جفت ثانية.

ـ لا بد من حل، لا يمكن — صرخ دياب.

عادت النساء بائسات إلى الصالون بينما بقي الرجال في الحمام يفكرون في حل.

ـ لنخلع الخزان من مكانه — قال عبود.

ـ فكرة معقولة — قال خليل — ولكن كيف؟

ـ صحيح، كيف؟ قال سليمان بحسرة.

ـ أليس لديك مفتاح إنكليزي، أو شيء من هذا القبيل؟ قال دياب.

ـ عندي، ولكنه مع أجهزة السيارة تحت.

ـ تحت؟ وضحكوا في خيبة.

ـ دعنا نبحث، لا بد أن لديك شيئاً ما.

تفرقوا في البيت يبحثون، وأخيراً علا صوت سليمان فرحاً، وأسرعوا إليه كان قد عثر على نوع من الكماشات صغير بعض الشيء.

ـ لا بأس، هاتها — قال خليل.

انحنى فوق البرميل يعالجه، ولكنه كان قاسياً، تعاونوا طويلاً، وكان عليه أخيراً أن يستجيب.

أسرعت النسوة يحضرن الأواني العجيبة، الطناجر، الحلل، الأباريق، الكؤوس، وأميل الخزان ليسكب ما فيه، ولكنه خيبهم، لم يكن ما فيه كثيراً، ملأ طنجرتين، وانتهى ما فيه، وحينما زادوا في إمالته تحرك الصدأ في أسفله، فنزل ماء أحمر قذر سرعان ما استغنوا عنه.

حاولت النسوة الشرب، ولكن دياب منعهن.

ـ هاتوا كأساً — وجيء بكأس.

ـ سنقنن، لا فائدة، سيشرب كل منا كأساً واحدة في اليوم.

ـ كأساً واحدة؟ لا

ـ اسمعوا، ربما مكثنا طويلاً في هذا المكان، وعلينا أن نحسب حساباً للعطش القادم.

أخذ كل واحد كأسه، وانسحب عائداً إلى مجلسه من الصالون، شرب عبود كأسه بسرعة، وتلاه نبيل، أما سليمان وخليل ودياب فقد شرب كلٌ نصف كأسه تاركاً الباقي جانباً.

ـ سأموت من الجوع — قالت سليمة.

ـ يستطيع الإنسان صيام أربعين يوماً دون طعام، لا تخافي.

ـ أربعين يوماً؟ هل جننت؟

ـ أنا لم أجنّ، ولكني أطمئنكم فقط — قالها دياب وهو يتمدد مسترخياً في مقعده.

صمتوا جميعاً، طفت على بحيرة السكون أصوات الانفجارات ثانية، كان الآخرون قد صحوا ليبدأ نهارهم الجديد.

ـ وبعد؟ هل سنظل ننتظر نهايتنا مستسلمين؟ سأل نبيل.

ـ هل من حل آخر؟ سأل سليمان مجيباً.

ـ يجب أن نصنع شيئاً ما، أن نحاول.

ـ حاول — قال سليمان.

انحنى عبود فجأة على عقب سيكارة ضائع إلى جانب رجل المقعد فنفضه قليلاً بين إصبعيه، ثم أشعله والجميع يراقبونه، احتفظ بالدخان طويلاً في صدره، ثم نفثه أبيض متماوجاً، لم يلبث نبيل أن قام من مجلسه وأخذ يطوف في المكان باحثاً عن شيء، وكان واضحاً أن ما يبحث عنه كان عقب سيكارة، ولكنه لم يعثر على أي منها.

اتجهت إلهام إلى غرفة النوم، فقد كانت تعرف أن هناك بعض أعقاب منثورة ما بين الكومودينو ورف النافذة والأرض، ولكن الغرفة كانت نظيفة، لا أعقاب، ترى من نظف الغرفة؟ من جمع الأعقاب؟

لحقت بها سليمة ونوال، ولكنهما لاحظتنا الخيبة على وجهها.

ـ لقد جمعها – قالت نوال.

ـ من؟ سألت سليمة.

ـ عبود.

ـ متى؟

ـ منذ ساعة بينما كانوا يسعون لإخراج الماء من خزان الحمام، كان يسعى في المكان، ويجمعها، ولكني لم أقدّر أنه سيجمعها كلها.

عادت سليمة مسرعة إلى الصالون، واتجهت مباشرة إلى عبود.

ـ أين وضعتها؟

ـ ماذا؟ سأل في براءة كاملة.

ـ الأعقاب.

ـ أية أعقاب؟

ـ أقول: أين الأعقاب؟

وهجمت عليه تشده من صدر قميصه، وتهزه في عنف.

ـ الأعقاب، أتسمع؟

ـ لا، لن أعطيها لك.

ـ بل ستعطيها الآن.

مدت يدها بقوة إلى جيوبه، ولكنها لم تعثر إلا على عقبين.

ـ أين الباقي؟

ـ هذه هي كلها.

ـ كاذب.

قالتها وهي تنسحب بالعقبين إلى مجلسها، أعطت واحداً إلى إلهام، وأشعلت الثاني.

- أين الأعقاب يا عبود؟ قال سليمان في برود.

- لا أعرف.

- لم يجمعها أحد غيرك.

- نعم، جمعتها، وماذا في ذلك؟ أنا في حاجة إليها.

- كلنا في حاجة إليها.

- ولكني أنا أول من جمعها.

- اسمع، هذه الشقة ليست البلد تستطيع أن تنهب فيه ما تشاء بحجة أنك أول من حصل على هذا الشيء أو ذاك، أتسمع؟

- لا، لم أسمع.

- بل ستسمع، ورغماً عنك.... وانقض عليه بعنف مكبوت طويلاً.

- ولكن، سليمان، هذا غير معقول، وأسرعوا يفصلون بينهما.

- الكلب، الوغد، لم يكفه ما فعل طيلة عمره حتى يريد أن يجعل قانونه سارياً هنا، وفي بيتي.

- ولكنه صديقك يا سليمان.

- أبداً، أبداً، ليس صديقي.

- وهل أصادق وغداً شيوعياً مثلك — عوى من مكانه ككلب جريح.

انقضَّ سليمان عليه ثانية، واستطاع في هذه المرة أن يلطم وجهه، وبدا السرور على وجهه، فلقد أحرز شيئاً.

- تلطمني يا سليمان؟ تلطمني؟ حسن، سترى نهايتك.

- فلتبلط الزرقاء، لا تساوي قرشاً عندي.

- هاه، الآن لم أعد أساوي قرشاً؟ أنسيت المقالات التي كتبتها عني وعن مشاريعي؟

- أنا؟

ـ ماذا؟ سأل خليل.

ـ اسألوه، ألم يكتبها، ويوقعها بأسماء مستعارة، اسألوه عن الدراسات والمقالات التي باعها من أجل بضع مئات من الليرات، اسألوه، ولنعرف من الوغد فينا الآن؟

ـ أصبح عبود فصيحاً — قال نبيل.

ـ أنا أبيع وأشتري ما يباع ويشترى، إنه قانون السوق، قانون البلد، ولكن أنت، أنت الذي كان يقول دائماً: الفكر أثمن شيء، الفكر كريستال الإنسان، طز فيك وفي فكرك.

كان سليمان يتجمع على نفسه مهزوماً حسيراً لا يقوى على شيء، وكانت نوال ترمقه من مجلسها في تشفٍ وشماتة: سقط سترك الأخير، لست نادمة على شيء أبداً.

ـ يا جماعة، يا جماعة، أرجوكم — قال نبيل.

ـ اسكت قليلاً يا نبيل — قال عبود.

ـ لا، لن أسكت، بل ستسكتان كلاكما، أنا أعرف أن الوضع قاس علينا جميعاً، ولكن يجب أن نقاوم، أيها السادة إن حياتنا جميعاً مرتبطة بشكل ما، كل مواقفكم ونرفزاتكم هذه لا معنى لها، لقد حكم علينا أن نصبح شركاء في هذا المكان، فإما أن نحيا معاً، وإما أن نموت معاً، إن أعداءنا ليسوا في هذا المكان، أعداؤنا هناك في الخارج، تحت.

ـ لا، ليسوا أعداءنا يا نبيل — قال دياب.

ـ ألم يطلقوا علينا النار؟ ألم يمنعوا عنا الإنقاذ؟ أم يمنعوا عنا الطعام والماء؟

ـ ولكنهم ليسوا أعداءنا، إنهم أبناؤنا، طلابنا، جيراننا، علّمناهم وشحنّاهم، السنوات الطوال، أقنعناهم بأفكارنا التي لم نمارسها، والتي جبنّا عنها طويلاً، وهاك النتيجة.

- أنحن المسؤولون عما يجري من هذا الاقتتال؟

- طبعاً، إنها مسؤوليتنا الأولى.

- ولكنا لا نملك السلطة.

- بل ملكناها أحياناً، أليس كذلك؟ قال خليل وهو ينظر إلى دياب وسليمان بجانب عينه — ولكنا جبنًا كما قال دياب عن القيام بدورنا، وملكناها دائماً كتاباً وشعراء ورسامين ومعلمين، وجبنًا دائماً إلا عن سوقهم إلى هذا المصير البائس.

- والنتيجة؟

- لا أعرف إنها الأمة تفتصد، تقذف بدمها الفاسد إلى الخارج.

- للأسف ليسوا هؤلاء الدم الفاسد، إنهم الوقود المجاني — قال سعيد.

- أوه، هذه الثرثرة المجانية، أنا لا أحتمل — صرخت سليمة في عصبية.

- ليست ثرثرة مجانية، ثم يجب أن تعتادي على أشياء جديدة منذ اليوم.

- أولها أن عبود لن يخدعنا بعد الآن — قال سليمان.

- أنا لم أخدعكم، كنتم تعرفونني دائماً، ولم أحاول أبداً أن أنكّر هويتي، ولكنكم كنتم تعجبون ببلاغتي، وببلاغة ما أجلبه معي إلى سهراتكم.

خرسوا جميعاً تحت وقع كلامه الأخير، وبدأ الصمت المخيّم على الصالون يتغلغل إلى داخل النفوس.

- إيه.. وحّدوه، صرخت نوال — ألا تكفينا المحنة المحاصرة في الخارج حتى ننقلها معنا إلى هنا، حدثونا، قولوا أي شيء.

ولكن أحداً لم يلتفت إليها، كان كل منهم يمضغ أفكاره وأحقاده الخاصة مع الجوع والأحزان الطافية حتى الحلقوم.

- ألن تقولوا شيئاً؟ ألن يفتح الله عليكم بشيء؟

انتفض عبود من مقعده، واتجه إلى التراس.

- ما بكم؟ أجِّلوا هذه المشاجرات حتى نخرج من هذا الوكر، سليمان لَم ثرت عليه هذه الثورة؟

رمقها سليمان في غضب، ثم انكفأ على نفسه.

- خليل، حدثنا عن رحلتك إلى القرية.

نظر إليها بعينيه نصف المغمضتين، ومن وراء غليونه المطفأ، ولكنه لم يتكلم، عاد عبود يحمل في يده كيساً ورقياً ألقاه على المنضدة أمامهم.

- تفضلوا، هذه أعقابكم، وحتى لا تقولوا إني أناني خسيس.

لم يحرك أحد ساكناً، وإن تحركت الرغبة في أعماقهم لمداعبة سيكارة ما.

- دخنوا، ما بكم؟ ما زلتم زعلانين؟

- ها هو يأتيكم معتذراً، أنهوا هذا الخصام أرجوكم – قالت إلهام – هه – ونشرت الكيس على الطاولة، ثم تناولت عقباً، فأشعلته، وسرعان ما تناول نبيل عقباً آخر، ثم تلاه دياب الذي انتقى عقباً طويلاً بعض الشيء.

- سأحاول تخمين من دخنه – تفحصه قليلاً – عليه آثار أحمر شفاه هاه – وأطلقها ضحكة خفيفة – سيكارة نسائية. لنحاول معرفة صاحبتها.

واهتم الجميع بمحاولته.

- إنها معضوضة الفلتر، لا بد أن من دخنتها عصبية الطبع، إنها أنت يا إلهام – وناولها العقب – أليس كذلك؟

ضحكت وهي تتناولها.

- صحيح، إنه لي، وسأكمله إذاً.

- لا، إنه من نصيبي، ويكفيه ما ناله منك من عض.

ضحك الجميع، وبدا أن المشاجرة قد نسيت مع أنفاس السكائر التي انطلقت تعبق الغرفة.

- ولكنك — واتجهت إلى دياب - حدثتنا عن سجنك في فلسطين، ولم تحدثنا عن سببه، ما الذي أوصلك إلى هناك؟

- هوه هو هوه، تلك قصة طويلة.

- حدثنا عنها أرجوك.

- متعب وجائع، ومشتاق لدخان كثير.

- لا بأس.... حدثنا.

نظر دياب إليهم طويلاً، وكأنما قرر أخيراً أن يتحدث، فقد نفخ صدره بالهواء، ثم تنهد وقال:

- كانت مهمة من المهام التي طالما قمت بها.

- أي نوع من المهام؟

- تعرفين، بعد أن حطَّ طائر الهزيمة على القلوب، وأخذ كل منا يراجع نفسه، ويبحث عن الثغرة التي تسللت منها الهزيمة تقدمت الحركة الفدائية تطرح نفسها حلاً أوحد، ووجد الجميع مهديَّهم المنتظر، فلحق بها البعض، وأحبَّها البعض من بعيد، وتضخمت بسرعة لتصبح مشجباً كبيراً علقت عليه الآمال والخيبات جميعها، آمال أولئك الذين يريدون أن يفعلوا، وخيبات أولئك الذين لا يريدون أن يفعلوا، ويكتفون بأن يجعلوا غيرهم يفعلون، وهكذا تحوَّل عدد ممن لم يتطوع للعمل إلى أبواق تضخِّم كل عمل مهما صغر.

- كان ذلك مبرَّراً في حينها، فقد كان المطمئن الوحيد للقلوب القلقة — قال سليمان.

ـ ولكن، حتى الحركات السياسية كائن حي يا سليمان، وككل الكائنات الأخرى تحتاج إلى فترة طفولة وصبا وشباب، لا بد من هذه المراحل جميعها، ولكن أن تكلف الطفل بأن يقوم بمهام الرجل فجأة، فشيء مريع، وإما أن يكون حمقاً من الرجل الذي تنازل للطفل عن مهامه، أو حمقاً من الطفل طبعاً، أو أنها توريط من الرجل للطفل أراد به إحراق الطفل قبل أن ينضج.

ـ لم أفهم شيئاً حتى الآن، كيف قبض عليك؟

ـ لا تتعجلي — قلت لك — كانت منظمتنا تعد لعملية كبيرة، كبيرة جداً، وكنا نجمع المعلومات الضرورية لهذه العملية، وكانت مهمتي الاتصال بصديق لنا هناك.

ـ في فلسطين؟

ـ نعم، في فلسطين.

ـ ولكن، كيف كانت مشاعرك، وأنت تدخل فلسطين؟

ـ لم تكن المرة الأولى، ولكنها كانت نفس المشاعر دائماً، القلق والحنين، الرهبة والشوق، المرأة الخطرة تنيل وتميت، تعطي وتمحق.

كانت أنظارهم قد تركزت عليه في اهتمام حاد.

ـ كان واحداً من تلك البيوت الطينية المنتشرة على طول شرق المتوسط، ولكنه لم يبد لي بيتاً طينياً، كان الملجأ ونهاية الرحلة، وقفت قليلاً في نهاية الحارة أراقب وأرصد، فمن يدري، ولكن كل شيء كان هادئاً، قرعت الباب قرعتنا المعهودة، ولم يطل انتظاري حتى فتح الباب، وتسللت بسرعة إلى الداخل، الشيخ الودود، صورة المسجد الأقصى، قبة الصخرة، الحرم الخليلي، الفرش المصفوفة في وضع عمودي في الزاوية، أطباق النحاس... الريف الجميل، الريف الذي كنت وما أزال أحلم به.

ـ كل شيء جاهز؟

ـ كل شيء جاهز — أجابني.

قام إلى الرف المختبئ وراء الراديو القديم، أخرج رزمة رسائل قديمة انتزع عدة ظروف لا تختلف عنها في شيء إلا بما يعرفه هو.

ـ الغزاوي.

وضعتها في صدري دون ملاحظة.

ـ الجبلاوي.

ضممتها إليه.

ـ الطيبراوي.

نظرت إليها قليلاً، ثم أضفتها إليهما، وانتظرت.

ـ وشلومو؟

ـ قادم الآن.

ـ أليس من خطر؟

ـ لا أعتقد.

طرق الباب ودخل، شاب أشقر في أواخر الثلاثينات.

ـ الميجور شلومو — قال المضيف.

ـ تقابلنا قبل الآن — وقمت أصافحه، كان من أهم مصادر معلوماتنا، وكنا جربناه طويلاً... شربنا الشاي، كنت أريده أن يسلم حمولته، ولكنه كان يتلكأ، شيء غريب أحسست به في صدري، ولكني أخمدته، يجب على الشاعر ألا يخاف حدسه أبداً، إن فيه شيئاً من النبوة.

ـ أكمل الآن — قال نبيل، ونظر دياب إليه ببرودة.

ـ أخذ يتحدث عن أشياء كثيرة، عن الغلاء، عن صعوبة الحصول على أشياء كثيرة، وأحسست بالراحة، إذاً فهذا ما كان يوتره، إنه يريد زيادة الثمن، بسيطة، سنتحدث في هذا، وأخيراً سألته في مباشرة:

- الرسالة جاهزة؟

- طبعاً – وأشار إلى صدره في غموض.

- أريد أن أراها.

- حالاً، ما بك مستعجل؟

ورفع كأس الشاي يشربه، غزاني الشك ثانية، ولكني أخمدته.

- كم تريد؟

- لا، لا أريد شيئاً – قال مدافعاً.

- كم تريد؟ قلت في إصرار.

- المبلغ المعهود.

أخرجت المبلغ من جيبي، ولكن ضجة بسيطة لفتت انتباهي.

- ما هذا؟

- سأرى.

قال الشيخ المضيف، ومضى، حركة بسيطة في وجه شلومو، لم أدركها في حينها، أهو بريق في العين، تثنٍ في الجبين، ومضة بسمة على الشفاه؟ لا أدري، ولكني عرفت أني وقعت، فقفزت إلى الباب، ولكني سمعت صوت شلومو يصرخ من الخلف.

- نقيب دياب.

التفت إليه، كان مسدسه القبيح مشرعاً في وجهي، فكرت بسرعة، انكشف كل شيء، هل أنقض عليه؟ سيطلق النار، ولكن، ربما لن يصيبني، وقبل أن أتخذ القرار، وربما لو اتخذته في حينه لتغير كل شيء، سمعت صوت مضخم الصوت من الخارج يصرخ:

- نقيب دياب الحمود سلِّم نفسك.

- ولكن كيف؟ لماذا؟ كيف عرفوا بوجودك هنا؟ أهو الشيخ؟

ـ لا، المسكين، كان موثقاً مع أطفاله وزوجته ملقين جميعاً في أرض السيارة، وقبل أن تتحرك السيارة بنا كانت فرقة التفجير تعمل لهدم البيت كالعادة.

ـ ولكن من؟ كيف؟

ـ كانت الأسئلة نفسها تهاجمني طيلة إقامتي في السجن، ولم أتوصل إلى قناعة داخل السجن أبداً، كنت أرفض أن أصدق أن نقطة سوداء يمكن أن تصيب الرداء الأبيض العظيم، ولكن، وحينما عدت إليهم اكتشفت أن الطفل لم تتح له الفرصة ليكبر، لينضج، وليغدو رجلاً يستطيع اتخاذ قرارات حكيمة ومناسبة بنفسه فانشقت جماعات وجماعات، واستغلت بعض الأنظمة جماعات ضد جماعات حتى أصبح الشقاق في بعض الأحيان أكبر من العمل، واستخدمت في تلك الصراعات كافة الأسلحة.

ـ مثل ماذا؟

ـ كل الأسلحة، كلها بما فيها تصفية الخصوم من الجماعات المناوئة لهذه المجموعة، أو لهذا النظام.

ـ ودفعت الثمن؟

ـ دفعته كاملاً.

انحنى على الكيس الورقي يعبث في الأعقاب بينما تسلطت عيونهم ترقبه، عثر على عقب طويل بعض الشيء، ضربه بمقدمة سبابته، فرمى الرماد المتصلب عنه، وضعه في فمه، أشعله، احمرّت جميرة نارية تحت وقع الشهقة التي شهقها، ثم تناول العقب بإصبعيه محاذراً إحراقها، ثم أطلق الدخان من فمه وأنفه معاً.

ـ أعذبوك كثيراً؟ سألت نوال.

نظر إليها طويلاً، وأطفأ العقب في عصبية.

ـ لا، لم يعذبوني — قال ساخراً.

ـ كيف؟

ـ لم يكن التعذيب هناك لأنه كان متوقعاً، وكان مفترضاً، وكان محتملاً، ولكن التعذيب كان بعد العودة، بعد الفرحة، بعد طنطنة البطولة.

ـ لم أفهم شيئاً.

ـ كان ذلك بعد تركي العمل الفدائي، وحين كثر اللغظ حولي وحول شعري ومواقفي الشريرة فاستدعيت إلى أحد مراكز البوليس السري.

ـ هه.

ـ وهناك استقبلني ضابط نظر إليَّ طويلاً بعينيه الباردتين.

ـ أنت الشاعر دياب الحمود؟

ـ نعم.

ـ أنت ذلك الذي سموه بطلاً فيما مضى؟

ـ يقولون.

ـ أنت الذي ادَّعيت أن الصهاينة لم يستطيعوا أن ينتزعوا منك اعترافاً؟

ـ ربما.

ـ هه ـ وأطلق تنفسة سخرية – حمقى، مجانين.

ـ من؟

ـ الصهاينة.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم لا يعرفون كيف يعاملون الناس، أتعرف؟ كنت أتمنى لو أعلمهم بعض التقنيات التي تجعل الحجر يعترف بأنه فيل.

ـ إنكم قادرون – قلتها ساخراً – ولكنهم لم يكن لديهم تلك التقنيات

أبداً، كانوا يملكون القسوة والعنف فقط، متخلفون حتى في تعذيبهم.

- دياب، لا تكن متحاملاً — قالت سليمة.

نظر إليها طويلاً دون أن يتكلم بينما غاص في أفكاره الخاصة، كؤوس الماء فارغة، والجوع يعبث في حقد في أمعدتهم.

- لا، لا أعتقد أن دياب متحامل أبداً — قال سعيد.

- ولكن كيف؟

- هيه، كيف؟ أتسمحون لي أن أشرب قليلاً قبل أن أتكلم.

- لا بأس، ولكن اسقنا أيضاً.

ملئت أنصاف الكؤوس، ووزعت عليهم، وقرقرت المياه في معداتهم الفارغة، بل أن إلهام أحست برغبة في القيء كتمتها.

مسح سعيد شفتيه، وأحس معدته تنبض تحاول استقبال الوافد الجديد إليها، ولكنها بعد قليل تلوّت منزعجة، فلم يكن إلا الماء، حاول أن يتشاغل عن المغص الخفيف، فتناول عقباً قريباً أشعله، وامتص منه نفساً عميقاً، ثم قال:

- كانت قطرات المطر تتسلل بين ثنايا قماش القلوع المنشور فوق سيارة الجيب بينما أخذت الحقول تتراكض بعيداً متخلية عنا، كانت النويصرية تتحول إلى شبح، وأخذت أشجارها القليلة تسودُّ وتبهت بينما أخذت الحقول الجرداء إلا من بعض النباتات تتناثر من حولنا، وبدا طير ضخم يحوّم في الأفق قبيحاً عدوانياً شامتاً، وكنا نتحاشى الحديث، كل منا معزول داخل جلده، اليدان مشدودتان بحبل قذر إلى الخلف، والقيدان مربوطان إلى بعض.

كنا مندهشين حتى العظم، فكيف حدث هذا؟ كيف حدث هذا كله؟ لم نصنع شيئاً، لم نجرم، لم نرتكب خطيئة، كنا نحاول منع سرقة الآثار، كنا نحاول إضافة لمسة جديدة إلى مكتشفات تاريخنا، ولكن، ما الجريمة التي ستوجه إلينا؟

أهي التسلل إلى منطقة المجابهة مع العدو، خاصة وأنني لا أحمل تصريحاً بل ذهبت إلى النويصرية مستجيباً إلى دعوة خليل؟ كان الأمر متسامحاً فيه كما فهمت ليوم، أو اثنين، ولكني كنت هناك، ويبدو أن لأنانيتي ضلعاً في الأمر، فلقد بدا لي الأمر وكأن نجاحاً عظيماً في الطريق إلي، وبدا الأمر وكأني سأضيف اسمي أخيراً إلى قائمة المكتشفين العظام، سأضيف باسمي مدينة جديدة ترفع عنها الأنقاض من مدن الأجداد.

أخذت أتذكر الأمر بهدوء، أسترجعه شيئاً فشيئاً، وتحرك خليل في جلسته، كانت الجلسة غير مريحة أبداً في أرض الجيب، الظهر للظهر، والأيدي الأربعة مشدودة إلى بعضها في قسوة حاولت أن أتناساها رغم شعوري بالبرودة تنسل إلى أصابعي، أهي برودة الموت؟ أم هي برودة انقطاع الدم عنها؟

ألن نتوقف قليلاً؟ سأل خليل، ولم يردَّ العسكري، أقول: ألن نتوقف قليلاً؟ كرر خليل، لا تتكلم بأمر ضابط النقطة، ممنوع الكلام، ولكني لست جاسوساً – قال خليل في ضعف – ألم تسأل أهل القرية عني؟ لم اسأل أحداً، ثم أقول لك اسكت، لئلا أضطرك إلى السكوت.

صمت خليل وربتُّ على كفِّه بأصابعي الباردة طالباً منه عدم استثارته.

- أتعرف؟ لقد أعادت ربتتك الهدوء إلي – قال خليل.

- وهذا ما تمنيته، ولو قليلاً، أتكمل؟

- لا، أكمل أنت.

أخذت أحاول استرجاع الحكاية كلها منذ البداية. كانت واحدة من رسائله الكثيرة والتي دأب على إرسالها إليَّ بين الحين والآخر، وكنت أعرف أنه يحتاج إلى هذه العزلة لاسترجاع توازنه النفسي، وخليل صديق قديم وعزيز وموهوب، ولكنه كان يعاني من عدة مشاكل، الهزة التي أصابته في حرب يونيه، والشرخ الذي أصابه في كل معتقداته بعدئذ،

ثم توتر علاقته مع صديقة يبدو أنها كانت مقربة إليه جداً.

ـ ورمقت سليمة وإلهام نوال بنظراتهما التحتية، ولكنها صمدت لهما — كان يريد الحب وكان يتمناه، ويبدو أن لصديقته تلك مكانة هامة في حياته، كان يجرحه ويؤلمه أنه لم يعد يستطيع أن يحب.

ـ اعذرني يا خليل لجرأتي، ولكن تجربتك كانت قاسية جداً — ثم أضاف موجّهاً الحديث إلى الآخرين ـ لقد عايشت فترة توتره معايشة كاملة، التسكع في الشوارع على غير هدى، الشراب حتى مطلع الفجر، ومع كافة الشاربين، الرسوم الشيطانية التي لا يعلم إلا الشيطان نفسه من أين ابتدعها.

ـ بالمناسبة، ماذا فعلت بتلك الرسومات؟ اتجه إلى خليل بالسؤال.

ـ مزقتها جميعاً.

ـ خسارة، كان يمكن الإبقاء عليها، ولو للدلالة على مرحلة من مراحل تطورك.

عاد خليل إلى صمته دون أن يرد، وتابع سعيد.

ـ وأخذت أخاف عليه فعلاً، وكنت أتساءل عن الطريقة التي يمكن لنا بها مساعدته، ولكن كان من الواضح أن أحداً لن يستطيع مساعدته إلا إذا قرر هو بنفسه أن يخرج من الحمأة التي سقط فيها، ثم — هل أقولها يا خليل؟ ـ وأشاح خليل بيده أنه لم يعد يبالي — كانت هناك المشكلة الأساسية، والتي كان معظم مثقفينا يعانون منها، وخاصة أولئك الذين تعلموا في الغرب، أعني الاستلاب أمام الغرب، فمن الغرب أتتنا الفنون جميعاً، الشعر الحديث، القصة، الرواية، المسرحية، وقد يستطيع أحد الباحثين بعد العناء أن يجد لهذه الفنون جذوراً، أو شبه جذور في تاريخنا، ولكن الرسم، وهذه مشكلة مشاكل فنانينا المعاصرين، فإنه منعدم الجذور.

ـ ولكن، هل نسيت الواسطي؟ قالت نوال.

ـ ورسامي المنمنمات؟ قال دياب.

ـ لا، لم أنسهم، ولكن التاريخ المستمر بيننا وبينهم مبتوت، فلن تستطيع أنت، أو أنا، أو أي من الباحثين أن يقيم صلة حقيقية أو استمرارية بين الواسطي ورسامي المنمنمات، فعشر أو ستة قرون تفصل بين فنانين دون أي استمرار، بل دون أيّ اطلاع من الآخرين على أعمال الأولين تعني أن كلاً منهم جزيرة خاصة منفصلة في ذاتها، وتعني في الوقت نفسه أن ليس من رسام من معاصرينا يستطيع أن يدعي ما يدعيه رسام فرنسي معاصر من أنه استفاد من دافنشي ورمبرانت وروبنز وغويا إلى آخر السلسلة المستمرة.

توقف قليلاً، ونبش بأصابعه بين الأعقاب حتى عثر على واحد منها معقول، فأشعله وبدا أنه قد اعتاد طعم الشهقة الأولى الكريهة، فلم يتقزز، بل تابع التدخين، ولما لم يتحدث أحد منهم أكمل.

ـ لذلك فإني أعتقد أن المأزق الذي وقع فيه رسامونا كان صعباً فالنموذج الذي يجب أن يقارنوا به أعمالهم غربي – ولكن الغربي يظل غربياً – إذاً كيف يمكنهم أن يدعوا أنهم يخلقون فنهم الخاص؟ إذا أطاعوا حسهم الفني ورغبتهم الشخصية ودراستهم وتأثرهم بأساتذتهم، وتوجهوا إلى الغرب انفصلوا عن وطنهم، وكان لا بد لهم من أن يغادروا ليلتحقوا بالأوطان الجديدة التي التصقوا بها روحياً، وإن حاولوا أن يوفقوا بين اندفاعهم الفني ومعطياتهم المحلية من زخرفة وخط ورسم ومعمار خرج فنهم هجيناً لا أصالة فيه، ولذلك فإني حين علمت بسفره إلى تلك القرية أحسست بأنه عرف أخيراً طريقه، وهناك، ولدى الطبيعة شديدة المحلية والبعيدة عن كل مؤثر غربي سيكتشف ولا شك ذاته ثانية، ومن يدري فلربما استطاع أن يصوغ نفسه ثانية.

ـ حينما رأيت تلك المنحوتات النافرة – قال خليل فجأة – أحسستني كما يقول سعيد فعلاً كاليتيم الذي عثر فجأة على قريب له، اكتشف فجأة أنه ليس ابن سفاح... ليس شيئاً طارئاً على الدنيا.

ـ كانت مغالطة غريبة تلك التي وقعنا فيها — قاطع سعيد.

ـ ماذا تعني — سأل دياب.

ـ أن نعتبر مفتتح وجودنا دخول خالد وعمرو بن العاص إلى بلادنا مع الفتح العربي، نحن أصلاء في هذه البلاد، لسنا طارئين عليها، نحن الذين بنينا الأهرام وتدمر وبعلبك ونينوى.

ـ وهل من يشك في هذا؟

ـ طبعاً تلك الأطروحات التي تحاول أن تلغي كل تاريخ لنا قبل خالد وعمرو، في المحصلة الأخيرة، من خالد وعمرو؟ إنهما واحد من هجرات كثيرة، واحد من محاولات كثيرة للتنقل في أرض هذا الوطن.

ـ ولكن، ما علاقة هذا كله بخليل وسفره وسجنكما و.. و... — صاحت سليمة.

ـ علاقته أني اكتشفت فجأة أني لست فناناً طارئاً، لست بلا جذور، ليس الواسطي ورسامو المنمنمات أجدادي الفنيين فقط، اكتشفت أن ورائي تاريخاً طويلاً، فنانين كثيرين، وملاحم رائعة، اكتشفت أني يمكن أن أبدأ من ها هنا. من....

ـ ولكنهم فجأة جاءوا وحملونا في الجيب.

ـ وكانت المرارة.

ـ ولكن لم لا تعودون بنا إلى السيارة؟ لقد شطحتما كثيراً — قال دياب.

ـ صحيح، لقد شطحت كثيراً، ولكني لن أعود إلى السيارة، سأعود إلى الرسالة التي وردتني منه، كانت رسائله تصف لي النويصرية وجمالها وواديها الرهيب الجمال والمتوحد في العزلة، غابات الشوح والدفلى والزيتون والتين البري والطيور العجيبة هناك، والحيوانات المعزولة في الوادي...

كان يطلب مني من حين لآخر أن أرسل له ألواناً، أو أنبوبة غاز، أو كتباً، ولكن رسالته الأخيرة بدت غريبة، فلقد كانت ظرفاً كبير الحجم فتحته لأفاجأ ضمن الرسالة بنص مكتوب بالخط الآرامي القديم، وكان فيه بعض الأخطاء الإملائية، ورغم أن كاتبه رسام جيد إلا أنه أخطأ في الإملاء، ولكن النص كان مفهوماً مع ذلك، وكان يقول كما أذكر:

أيل أيها العظيم ليتمجد اسمك العظيم، أيل أيها القوي ليكن اسمك مباركاً في كل العصور، ايل أيها العظيم في سمائه يا قاتل التنين ومهدئ البراكين لتكن بركتك حالّة علينا في كل آن.

ووقفت مذهولاً تماماً، فما الذي جعل فناناً كخليل يهتم بالآثار بل ما الذي يجعله ينسخ نصاً كهذا؟، وقلبت الورقة أبحث عن الرسالة الأصلية، ولكني وجدت رسالة أخرى مشوشة قليلاً، ولكن ما فهمته منها كان غريباً جداً، كان جزء من النص ممسوحاً، وكان الجزء الآخر مشوشاً، ولكن ما استطعت قراءته كان يقول:

... جميعاً بمذاريهم ورماحهم ومقاليعهم وسيوفهم، ولكن النصر بعيد.. يا أبناءنا.. إن... إن اضطررتم... لا تلجؤوا إلى التلال، انزلوا إلى العوام.. لم يبق إلا الانتحار... أسرى... وتقطع أباهمنا... آبقون... إياكم أن تلجؤوا إلى التلال... إياكم....

كانت رسالة عجيبة مذهلة، ولو لم أكن أعرف خليل جيداً، وأعرف أنه لا يتقن الآرامية، بل ولا يعرفها، وأن لا اهتمامات أثرية لديه أبداً لظننتها إحدى المزح يريد أن يشغلني بها، ولكن معرفتي هذه جعلتني أحزم أمتعتي وأطير إليه.

- إذاً فقد كان هذا سبب القبض عليكما؟ قال دياب.

- تقريباً.

- وعثرتم على أشياء مهمة؟

- جداً، ملحمة كاملة.

ـ ولم تخبرنا بشيء عنها قبل الآن؟

ـ وما الفائدة؟ سرقت كامل لوحاتها، كامل رقمها، كل ما عثرنا عليه واكتشفناه اختفى.

ـ كيف؟

ـ لا أدري، أعتقد أن المختار متعاوناً مع انطون تاجر الآثار قد هرّبا كل شيء.

ـ وأبلغت مصلحة الآثار؟

ـ ومن كان سيخرجنا من السجن لو لم يتدخل مدير مصلحة الآثار ويعرُف بي، ويزكيني، ويتدخل الأصدقاء من أجل خليل ليطلق سراحه؟

ـ ولِمَ لم تخبرني بشيء عن كل هذه التجربة قبل الآن؟

ـ لم أجد المناسبة، كما احترمت رغبة خليل.

ـ كنت أريد أن أنسى التجربة بكاملها، بحلوها ومرها.

ـ ولكنك تعرف اهتماماتي، تعرف غرامي بالتاريخ ولحظاته المجيدة.

ـ واتجه إلى سعيد — هل تذكر شيئاً عنها؟ أعني عن الملحمة التي تحدثت عنها.

ـ طبعاً، ترجمت أكثرها في مذكراتي التي لم تصادر لحسن الحظ.

ـ موجودة هي إذاً؟

ـ عندي في البيت، ولكن من يقبلها منك نصاً أثرياً دون الوثيقة الأصلية، قد تقبل نصاً أدبياً، ومن بنات الخيال، أما التاريخ فعلم يحتاج إلى الوثائق.

ـ ولكن، ألا تستطيع تلخيصها لي؟ تذكر.

حك سعيد جانب فوده بأظفره قليلاً.

ـ كانت شيئاً غريباً تتحدث عن ثورة غامضة، عن حركة شعبية قادها

مجموعة من المثقفين كما يبدو ضد الملك رصين ملك ديون، ولكنها لسبب ما فشلت، فهربوا كما أعتقد إلى قمة جبل حوصروا فيه، وقاوموا طويلاً، ولكن الملك تعاون أخيراً حتى مع عدوهم يهو شافاط ملك السامرة، فاستطاع كما يبدو أن يهزمهم حتى في معقلهم، فقتل من قتل، وفر من فر، وأسر من أسر، فقصعوا أيديهم وأرجلهم على عادتهم في ذلك الوقت، ويبدو أن واحداً منهم وقد تقدمت به السن ولم يعد يخاف الموت أملى ذكرياته على ولد له فكتبها.

- غير معقول، غير معقول يا سعيد، أيعقل أن ملحمة كهذه وجدت؟

- أقول لك إن ترجمتها موجودة عندي.

- أستطيع الاطلاع عليها، أليس كذلك؟ أرجوك.

- طبعاً تستطيع — وأضاف بمرارة — ولكن حينما تخرج من محبسنا هذا.

عاد الجميع إلى أنفسهم، وتذكروا فجأة المأزق الذي تورطوا فيه، وبدأ هياج دياب يخمد شيئاً فشيئاً.

خبا الحماس الذي التهمهم لدقائق مع القصة المثيرة التي رواها سعيد، وتذكروا المشكلة التي يعيشونها الآن، وهي نقص الماء والطعام.

- جائعة جداً — صاحت سليمة.

- كلنا جائع، ولا مبرر لتذكيرنا بهذا — قال عبود — لم أكن أعتقد أن الجوع مشكلة. كانت مشكلتي الدائمة هي التخلص من أطر الشحم التي تحيط بي.

- ستنفعك الآن — قال نبيل.

- معنى ذلك أنه سيعيش حتى يرانا وقد نفقنا جميعاً من الجوع.

- أعوذ بالله، أعوذ بالله، ما هذا الكلام يا رجل؟ - تألم عبود

- لنكن واقعيين، هذه المجزرة التي تجري في الخارج لن تتوقف الآن ولا غداً، ولا بعد غد.

ـ ومتى إذاً؟ سألت نوال.

ـ لا أعرف، ولا هم يعرفون، إنها حركة الطبيعة تتحرك عشوائياً وتتوقف عشوائياً.

ـ لا، اسمح لي، الطبيعة لا تتحرك عشوائياً – قال سليمان – إن لها نظامها الخاص، ونحن الجزء المهم من الطبيعة، وإذا عرفنا القوانين سيَّرناها.

ـ الجزء المهم من الطبيعة؟ ـ علق دياب ساخراً – وهل تظن الإنسان؟ هذا الكائن الطارئ على الأرض الجزء المهم من الطبيعة؟

ـ إنه حين يكتشف الطبيعة يكتشف نفسه، وحين يكتشف نفسه يسود الطبيعة ثم لا أتفق معك في استهانتك بدور الإنسان، ما جدوى الأرض والطبيعة وكل شيء ولا إنسان؟

ـ أراك تتحول ميتافيزيقياً – قال سعيد من مجلسه المسترخي.

ـ وكيف لا يتحول ميتافيزيقياً من يرى القوانين التي تسيِّر كل بلاد الدنيا تفشل عندنا وتتحول إلى شيء آخر نقيض لكل ما وضع له.

ـ لا تغرقونا في هذه السفسطات إكراماً لله – صاحت سليمة، حدثونا عن شيء مفرح.

ـ مفرح؟ قال سليمان – لا أعتقد، ولكن بعد ما قاله عبود، وبعدما لمح إليه البعض – وكان مفهوماً أنه يعني نوال وإن لم ينظر في اتجاهها – فإنكم مدينون لي بتفسير بعض المواقف.

ـ أرجوكم، أرجوكم – قال نبيل – لا تزيدوا في إحساسنا بالضياع.

ـ لا، دعوه يتحدث، عمَّ ستحدثنا يا سليمان؟ قال سعيد.

ـ سأحدثكم عن التجربة الأولى والكبرى التي عشتها، والتي جعلتني أشك في كل ما آمنت به أيام الشباب.

ـ متى حدث ذلك؟ سأل سعيد.

- كان ذلك بعد استيلائنا على السلطة بمدة قصيرة حينما قررنا أن نحقق العدالة ونحطم الملكيات الزراعية الكبيرة لبناء عدالة اجتماعية، واشتراكية جديدة يكون الجميع فيها حاكمين، فكلِّفت فيمن كلف في التوجه إلى أقصى الشمال للاستيلاء على ملكية زراعية كبيرة هناك والتحرز عليها ريثما تأتي الجهات المسؤولة وتقرر توزيع هذه الملكية على من يستحقها.

تنفَّس عميقاً يستعيد التجربة، ثم... قال:

أخذت السيارة تتقلقل وتئز مفاصلها كلما ارتطمت عجلاتها بصخرة أو بمنخفض صغير فتقفز فتنتزعنا القفزة من أفكارنا، نظرت إلى اليسار كان السائق قد عصب رأسه بكوفية، وثبَّت عينيه إلى الأمام، وخرج من عالم الحوار، نظرت في المرآة، كان الكاتب والجنديان قد تناثروا متكئين على جوانب السيارة وتاهوا في أحلامهم الخاصة يتمايلون ويهتزون معها، ولكن واحداً منهم لم يكن يشعر بأهمية تلك اللحظة، وتخيلت نفسي واحداً من المصلحين العظام، من القادة التاريخيين الذين يغيِّرون مصائر الأمم، فها أنا ولأول مرة في تاريخ هذا الوطن أتقدم لأنزع ملكية الكبار، وأوزعها على الصغار، على هؤلاء الفلاحين الفقراء البسطاء المساكين، وتخيلتهم يقفزون على جانبي الطريق، ينتظرون محررهم، يستقبلونني بالهتاف والتصفيق والتهليل، ومن يدري، ربما حملوني على الأكتاف، ألست ناقلهم من القنانة إلى الملكية؟

لم أكن قد رأيت واحداً من فلاحي تلك المناطق من قبل، كان الفلاح في نظري دائماً إنساناً يغدو إلى عمله صباحاً فرحاً، فيعمد إلى الأشجار يقلم وينظم — أو يقطف ويملأ الصناديق، وإلى الأرض يعزق ويسمِّد، ثم يحصد، ولكن خيرات تعبه كلها تذهب إلى الآغا، أو الشلبي، أو صاحب العزبة.

كان هذا كل ما أعرفه عن الفلاح، أما ذلك البدوي الذي لم ينتقل من مرحلة الرعي والبداوة إلى الزراعة إلا مؤخراً، والذي لا يزال يعتقد

في قرارة نفسه أن الزراعة حقيرة، ومُحطَّة للكرامة، وأن العنز والناقة والنعجة أشرف المخلوقات، فلم أكن أعرفه بعد، وكان عليَّ أن أعيش تلك التجربة القاسية جداً حتى أعرفه.

ألقيت بنظري من النافذة، مساحات بنية ورمادية، صخور سوداء انتثر فيها قليل من الشوك والأعشاب البرية رفعت رأسها، وما لبثت الريح الصحراوية القاسية أن أجبرتها على الانحناء، على الاختفاء وراء الصخور، لا شجر، لا حور، لا جميز، لا صفصاف، انسياحات ومساحات متمايزة الألوان الكئيبة فقط.

لاحت على البعد غابة صغيرة امتدت أشجارها في تناسق، تناولت منظاراً من الكاتب، وأخذت أتأمل أشجار الكازورينا والكينا الطويلة الباسقة شديدة الخضرة، شديدة التمايز عن الأرض السمراء البنية الجافة المتشققة.

اندفعت السيارة تهاجم المكان، ولم أرَ واحداً من الفلاحين، ترى ألم يعلموا بقدومنا؟ هل أخفى المالك عنهم خبر قدومنا؟

ارتفعت عاصفة الغبار من خلفنا، ولا بد أنها لفتت أنظارهم إذ ما إن اقتربت من قصر المالك حتى لاحظت عدداً من الرجال يقفون أمام القصر، توقفت السيارة في حدة، وقفزت منها في فتوة مرحة.

- مرحباً.

- أهلاً وسهلاً – قالها كهل أشيب في تثاقل.

- أظن المكالمة الهاتفية قد وصلتكم؟

- نعم وصلت.

- أكل شيء جاهز؟

- نعم.

أجرينا تفتيشاً سريعاً في المكان، كانت الآليات الضخمة قد اختفت،

الحراثات، الحصادات، البذارات، قاطفات القطن، كلها قد اختفت، كانت لعبة التخريب قد بدأت، وسجلت ذلك كله في تقريري، ولكني لم أرَ فلاحاً واحداً، بحثت عن أي منهم دون جدوى وأخيراً اتجهت إلى المالك نفسه أسأله، فأخبرني أنهم رحلوا.

- إلى أين؟

- إلى القرية التي أبقيتموها لي.

- أيمكن أن أجتمع بهم؟

- طبعاً ممكن.

أرسل معي واحداً من رجاله قادني إلى القرية الثانية الصغيرة، والواقعة على النهر، كانت هناك بيوت طينية صغيرة جلسوا أمامها، سلمت عليهم، فردوا السلام ببرود.

راجعت الخطبة التي حفظتها، والتي كنت قد قررت إلقاءها أمامهم أشرح لهم مزايا الثورة ومنجزاتها، وكيف أنها ستعطيهم الأرض، ستهبها لهم، ستجعل منهم أنداداً للمالك الكبير، لن يكون هناك من تمايز بين رجل ورجل بعد الآن، كل ما عليكم صنعه هو أن تعملوا من أجل أنفسكم أولاً، ثم من أجل الوطن ثانياً، كل هذا كان ما يزال يدور في خاطري، وكانت الصور التي جعلوني أحفظها حلوة الرنين — الأرض لمن يعمل بها — لكل حسب احتياجه — لكل حسب جهده — الأرض هي أمنا المعطاء — الأرض منبع الأصالة — الفلاحة سيدة المهن.

كانت وجوههم بلا تعبير في البدء، ثم وشيئاً فشيئاً بدأت تدب فيها الحياة، خاصة حينما سمعوا أنهم سيصبحون مالكين، وأخذت الأسئلة تنهال علي: كم فداناً لكل فلاح؟ كم ستعطوننا قرضاً؟ هل ستعطوننا أبقاراً؟ وماذا عن الآلات الزراعية؟

عبثاً حاولت أن أشرح لهم مزايا التعاون، وأنهم يجب أن ينشئوا جمعياتهم التعاونية، فبها سيستطيعون شراء الآلات الزراعية والأبقار،

وبها سينشؤون جنانهم الخاصة، .. و.. ولكنهم لم يصغوا إلي، لقد تعلقوا بالفكرة الأولى، الحكومة ستعطيهم الأرض، الحكومة ستؤمن لهم كل شيء، وما عليهم إلا أن يصبحوا آغوات جداً.

انقضت الخطبة والنقاش الطويل، وأنا أحس أني قد أنجزت إنجازي العظيم، وأني أخيراً سأدخل التاريخ واحداً من محرري الفلاح العربي.

أتممنا إجراءات الحجز، وتركنا حارساً على الأرض المستولى عليها، وعدنا إلى المدينة، وما لبثت إجراءات التمليك الجديدة أن أجريت في حفل ضخم اجتمع فيه أصدقاؤنا الجدد، ووزعت الأرض على الفلاحين وأنصاف الفلاحين، على الرعاة، وعلى البدو.

ـ على البدو؟ سأل نبيل.

ـ كانت أمنيتنا أن نجعلهم يستقرون ويصبحون مزارعين منتجين ولكن...

ـ ولكن ماذا؟ سأل دياب.

انحنى على كيس الأعقاب، ولكن لم يكن قد بقي منها إلا أعقاب الأعقاب، فجمع عقبين منها، ولفهما في ورقة أشعلها، وأخذ يدخن مشمئزاً.

ـ ولكني لم أفهم حتى الآن سبب شعورك بالخيبة.

ـ كان يجب أن تنتظر سنتين، وتذهب في بعثة تفقدية لإنجازات الثورة، ولنرى ما تم من ذلك الإصلاح الزراعي.

ـ ما الذي تم؟

ـ كانت الإرادة طيبة ولكنها قاصرة، أردنا الإصلاح، فنزعنا الملكيات الكبيرة، ووزعناها على أنصاف الفلاحين من بداة وأنصاف بداة، وعلى فلاحين فقراء لا يعرفون التعاون، ولا يستطيعونه.

ـ ولكن الدولة أنشأت المصارف الزراعية!

ـ حتى المصارف الزراعية تحولت إلى أسلحة ضد إصلاحنا الزراعي.

ـ كيف؟ لم أعد أفهم.

ـ تمزقت الملكية إلى أجزاء صغيرة، وكان كثير ممن انتفعوا بملكية الأراضي الجديدة بداة وأنصاف بداة يقيمون بعيداً، وأحياناً بعيداً جداً عن تلك الأراضي، فعمد المالك القديم، أو واحد من تجار المدن الأذكياء إلى أولئك المالكين الصغار، فاستأجر منهم الأراضي ليجمعها في كتلة زراعية واحدة، ولما كان لا يملك على الأكثر ما يكفي لشراء آلات وبذار لخدمتها، فقد كان يتجه إلى المصرف الزراعي فيستلف منه باسم الأرض المستأجرة ما يغطي مصاريفها، وهكذا كان على الدولة هذه المرة أن تمول الإقطاعي الجديد الذي لا يملك شيئاً رسمياً، ويملك كل شيء فعلياً.

ـ غير معقول. كيف تم هذا؟

ـ هذا ما تم في كل مكان.

ـ ولكن لماذا؟

ـ ألم أقل لك؟ حينما فكرنا في مشروع الإصلاح لم نفكر في نوعية الفلاح الذي سنملّكه، بل قررنا أنه يستحق.

ولكنه غير مستقر، وجاء القرار خطابياً: يجب أن يستقر!

ولكنه لا يعرف الزراعة، : يجب أن يتعلم الزراعة!

ولكنه لا يحب الزراعة، : يجب أن يحب الزراعة!

وهكذا كان، خلقنا طبقة من المنتفعين المؤلفة قلوبهم، وبدلاً من ذلك المالك الكبير الذي كان يستثمر الأرض، وينمّي استثماره يوماً بعد يوم، أو يستهلك جزءاً منه سلمنا الأرض إلى مستثمر لا يملك الأرض، ولا يشعر بأية صلة بها، ولا يهمه صلحت أو تلفت.

ـ وما كان الحل الأصوب في نظرك؟

ـ لم أكن أعرفه في حينه، ولكني أعتقد أنه كان يجب أن تنقل الأرض

بكامل جهازها من فلاح وآليات إلى التعاونيات مباشرة دون المرور بهذه الطريق الصعبة، طريق التفتيت، وانشاء طبقة المنتفعين والمتمولين.

ـ ولكن، لَم لم تفعل ذلك في حينه، وحين كان صوتك مسموعاً؟

ـ لم تكن الصورة واضحة تماماً أمامنا، كما أني...

وأخذ يعبث ببقايا الفلترات ورماد السكائر أمامه في عصبية

ـ حينما تسعى وراء فكرة ما زمناً طويلاً، وتظن أنها مفتاح كل المشاكل، ثم تكتشف أنها كانت خواء في خواء، وتكون نتيجتها خراب القرى التي هجرها الفلاح ليتحول إلى ساكن مدن التنك على ضفاف المدن، فتلك نهاية المرارة، وقمة الخيبة.

ـ كانت خطيئة كبيرة منذ البداية — قال عبود.

ـ لا، لم تكن خطيئة — أجاب سليمان في حدة — ولكنا أخطأنا في التنفيذ فقط.

ـ لا، بل كانت الخطوة كلها خاطئة منذ البداية.

ـ عبود، أرجوك، لا تحاول أن تفهم من كلامي أني ضد الإصلاح الزراعي. أنا لم أكن ضده أبداً، ولكني ضد الطريقة التي نفذ بها، والتي حولت بلاداً زراعية إلى بلاد تستورد طعامها.

ـ لا، بل أنا أصر على أن كل ما قمتم به كان خاطئاً، وسأبرهن لك.

ـ تبرهن؟

ـ نعم.

ـ لقد أصبح عبود فصيحاً اليوم — علَّق نبيل ثانية — يبدو أن الجوع يناسبك يا عبود، فكلما ازددت جوعاً ازدادت فصاحتك.

لم يضحك أحد من الحاضرين، بينما نظر إليه سعيد.

ـ نبيل، أرجوك، أرى الموضوع جدياً، ومن الأفضل أن يأخذ حده.

ـ حسن، صمتت، هه — وأغلق فمه في حركة تهريجية.

لم ينتظر عبود طلباً من أحد للكلام، بل تابع وكأنه لم يقاطع:

ـ لا أزال أذكر منظرهم في تلك الأيام، كانوا بائسين خائفين غاضبين حائرين، لم يقبلوا، ولا يستطيعون أن يقبلوا، ولكنهم لا يجرؤون على الرفض وكثير منهم، أولئك الذين أصيبوا بالذبحة الصدرية، وبالاختناق المفاجئ، كان الواحد منهم يجلس إلى مائدته، وأمامه أطايب الطعام والشراب التي اعتاد أن يجعل منها لذته الأبدية، ولكنه ما إن يضع اللقمة الأولى في فمه، ويتذكر الأرض التي أخذت منه — لا — واتجه بكلامه إلى سليمان — لا أستطيع أن أصدق الصورة التي حدثتنا بها عن ذلك المالك المسكين يقف أمام بيته ليسلمك أرضه ودمه وعرقه وماله وتاريخه وتراثه وأجداده وأحفاده بهذه البساطة.

نظر إليه الجميع مذهولين تماماً، فكيف جاءته هذه القدرة العجيبة على التعبير.

ـ إني أنتظر معجزة — صاح نبيل.

ـ ستقابلها محمولة على قنابل الآن — قال عبود في مرارة، وفغر نبيل فاه غير مصدق.

ـ عبود، ما الذي يجري؟

ـ ولكن هذا ما حصل — قال سليمان.

ـ ربما كان فرداً، وربما كانت حالة شاذة، ولكنهم قاتلوا بكافة الطرق حاولوا بكافة الوسائل، وكان كل ما يفعلونه مشروعاً، وأنا أقول وأكرر: كانت جريمة، وأستند إلى كلامك — خرّبتم فيها الاقتصاد.

ـ أنا لم أقل هذا — صرخ سليمان.

ـ بل قلته، ولكنك تخجل من التصريح به.

ـ عبود. رجاء لم تقل شيئاً بعد — قال سعيد.

ـ صحيح – تابع عبود – لا أزال أذكر منظرهم، كان الواحد منهم يغص فترى عروقه تنتفض، وأصابعه ترتجف، فيقوم عن الطعام الذي تعبت الزوج والخادم المسكينتان ساعات في إعداده، ويخرج إلى الشرفة، فيأخذ نفساً عميقاً يهدئ به أعصابه، ولكنه لا يلبث أن يضرب حديد الشرفة بكفه في حسرة، اللعنة، لا أستطيع أن أعيش من بعد، ويهرع إلى الهاتف، كثيرون كانوا على الهاتف في تلك الأيام، لا يملكون إلا الشكوى المرة المتألمة المحترقة زرافات، زرافات، أفراداً وأزواجاً، اتجهوا إلى الأطباء والشكوى كانت واحدة، اختناق في الحلق، رجفة في الأعصاب، إحساس بالأشياء تنهار من حولهم، وكانت النصيحة واحدة! عليكم بالمشي الطويل، وتعاطي الفاليوم، وإلا فالذبحة الصدرية والجلطة وانسداد الشرايين.

وعلى الطريق الجبلي الطويل كنت تراهم يمشون في طوابير طويلة في بذلهم الكاملة، ربطات محلولة، والعرق يتصبب وئيداً من الجباه الصلعاء والكروش الممتلئة تهتز من أمامهم، وسائقوهم يمشون من ورائهم في سيارات ينتظرون تعبهم ليحملوهم عائدين إلى بيوتهم، ولكنهم يمشون ويمشون، يحاولون أن ينسوا الفكرة، وكيف ينسونها؟ والمثل يقول: من أخذ مالك خذ روحه، ولكنهم لا يملكون أن يأخذوا الأرواح، بل ولا يملكون حتى أخذ المال عوضاً عن المال، كان عليهم أن ينظروا إلى أموالهم تنتزع منهم وعليهم أن يضحكوا ويبتسموا، بل عليهم أن يعلنوا فرحهم، فهذا هو يوم فرح الأمة.

نظر إليهم طويلاً، وانتزع عقباً أمسكه برؤوس أصابعه، فأشعله وأخذ نفساً عميقاً.

ـ كانت أياماً كئيبة يا سليمان، أيام خيبة ومرارة.

ـ لكم فقط، ولكنها لم تكن كذلك للفلاحين.

ـ أي فلاحين؟ لقد أنطقك الله فقلتها منذ هنيهة، كانت غلطة.

ـ غلطتنا أنَّا لم نكمل.

ـ بل غلطتكم أنكم فعلتم.

ـ بل غلطتنا أنّا لم ننقضّ على أعداء الثورة مرة واحدة.

ـ سليمان، عبود، أوقفا هذا الحوار غير المجدي — قالت سليمة.

ـ هل أصبح حوارنا هذا غير مجدٍ؟ قال سليمان عاتباً.

ـ طبعاً، فلن تستطيع تغيير موقفه، ولن يستطيع تغيير موقفك، فلماذا تزيدون من تعذيبنا؟

ـ لا، بل أستطيع — صاح عبود.

ـ ماذا؟ قال دياب فاغر الفم.

ـ طبعاً، وقد غيَّره كثيراً.

ـ عبود ستقودني إلى الجنون أو إلى القتل.

ـ إنك أعجز من كليهما.

ـ عبود، صرخ سليمان من مجلسه.

ـ الأفضل أن تظل جالساً وتنصت.

ـ غير معقول، غير معقول، لم أعد أفهم شيئاً — قال سليمان وهو ينظر إلى وجوههم واحداً واحداً ينتظر عوناً، ولكنهم جميعاً حدَّقوا فيه في هدوء ينتظرون منه رداً.

ـ ولكني لا أفهم تغيرك يا عبود — قال سعيد.

ـ بل أظنكم تفهمون، هؤلاء الشبان الرائعون هناك، إنهم يصنعون كل شيء، وسيعيدون الأمور أخيراً إلى نصابها.

ـ ماذا؟ صرخ سليمان.

ـ ماذا؟ صرخ دياب ونبيل وسعيد.

ـ غير معقول، أتظنهم يقاتلون من أجلك؟ قالت نوال.

ـ ليس من أجلي تحديداً، ولكن من أجل الصالح العام، من أجل طرد

الفساد.

ـ لا بد أنك جننت — قالت سليمة.

ـ لا، لم أجنَّ أبداً، لا تخافي، ولكني أقرأ الأحداث كما تقرؤونها.

ـ وهل تظن أنهم يموتون، ويقاتلون من أجل أن يعود التاريخ إلى الوراء.

ـ إنه أنتم من يسميها رجعة إلى الوراء، ولكنها الحركة الطبيعية، عودة الأمور إلى نصابها.

ـ لقد أصبحت مخرفاً — قال نبيل وهو يخرج من الغرفة إلى التراس.

كانت الشمس عمودية، وكتل الإسمنت والرمل تملأ المكان قذارة، فنباتات الزينة الجميلة اصفرت، ومالت إلى الأرض، انحنى على واحدة من الزنابق رفعها عن الأرض، كتلة رخوة تثير الاشمئزاز ألقاها جانباً وقام، اللعنة، لقد تغيَّر كل شيء، من كنا نظن أنا نسخر منه يتكشف عن ساخر كبير كبير منا، إنه من يقود اللعبة الآن.

تسلل إلى جانب السور، تطاول برأسه قليلاً، الحياة صامتة ولكن الطلقات لم تصمت، بحث بعينيه، لا إنسان، لا سيارات، وإنما صوت الآلة الضخمة المتناثر هنا وهناك، انفجارات وأنيناً وجراحاً لا تجد من يضمدها.

بحث بعينيه جاهداً أن يرى واحداً منهم، ولكنهم اختفوا جميعاً، أيعقل أن هؤلاء المساكين، هؤلاء المغرر بهم يقاتلون من أجل هذا المسخ؟ لكن، من يدري — ربما كنا مخطئين طيلة هذا العمر! ولكن، لا اللعنة، لا يمكن أن نكون مخطئين، التاريخ لا يرجع إلى الوراء أبداً.

اندفع بعصبية إلى الغرفة.

ـ عبود، أيها الأحمق، عليك اللعنة، إنهم يقاتلون ليكملوا ما بدأناه، أفهمت أيها الأحمق؟

ـ مجانين.

ـ لا، لسنا مجانين، بل أنت المجنون — قال سليمان — إنهم يكملون ما جبنّا عن إكماله.

ـ هاه، هاه هاه، حمقى، أسمعنا قصيدة النواب يا دياب.

ـ ماذا؟ ـ قال دياب — لماذا؟

ـ ذكّرهم بالبيت الجميل الذي قاله، قالوا شارك في الحل السلمي قليلاً، كيف قليلاً، نصف لواط يعني؟ هذا ما حلمتم به دائماً، تضاجعون المرأة وتخافون على بكارتها، تقاربون ما تظنون أنه المشاكل دون أن تكملوا، نصف لواط هذه هي حياتكم جميعاً، وتظنون الآن أنهم سيكملون المهمة عنكم؟ هه هه هه حمقى.

أقسم بكل ذهب العالم أنكم حمقى.

ـ صار يتكلم كشكسبير — صرخت نوال.

ـ إني أتعلم منكن يا سيدتي، أتعلم متواضعاً.

ـ أف، أحس أني أموت، ألا بد أن تزيدوا من عذابنا؟ قالت إلهام.

ـ ألا يكفينا الحصار والجوع والعطش؟ صاحت سليمة.

ـ يكفي وزيادة، ولكن أوان المكاشفة قد آن، سقوط الأقنعة حان موعدها، ولا مبرر للتأخير، لقد بعث المسيح ثانية، جاء المهدي المنتظر، وها هو يطهر الأرض ليعيدها جنة دون شياطين — صاح عبود.

ـ يجب أن نقر أن شيئاً قد تغيّر في هذا العالم ما دام عبود أصبح يستطيع أن يقول كل هذا الكلام.

صمت الجميع يحدقون إلى دواخلهم، يحاولون فهم أو تفسير أو إدراك ما يجري، ولكن الصمت سيطر حتى لم يعد واحد يجرؤ على خرقه.

ـ لم يسألني واحد منكم لماذا تركت القرية، ونزلت إلى المدينة — قال عبود، نظروا إليه جميعاً فرحين بالنجدة من الصمت على يديه.

ـ هـه، صحيح، كيف تركت الأغوية والأرض، وأخت الآغا وفتيات القرية، ونزلت إلى المدينة؟ قالت سليمة.

ـ فعلاً، هناك صفحة بيضاء لم نعرفها عنك – قال خليل.

ـ إنها التكنولوجيا يا صديقي – قال عبود.

كانوا قد تأقلموا وبسرعة مع فكرة أن عبود قد أصبح قادراً على الحديث وعلى أن رأيه جدير بأن يسمع.

ـ أية تكنولوجيا؟ قال سعيد.

ـ دعني أتذكر يا صديقي، وستعرف كل شيء.

جمع خليل بقايا أعقاب الأعقاب، وفرطها، ثم ملأ غليونه منها، ونظر إليه الجميع في حسد، فلقد استطاع حل مشكلته، أما هم.

نظر عبود إلى بعيد كمن يقرأ شيئاً.

ـ كان يوماً مشهوداً للقرية حينما علموا أن محطة للبنزين ستفتتح قريباً من حدود القرية، وفرح القرويون، فها هم سيستطيعون أخيراً أن يستفيدوا من هذا الاختراع الجديد – الوابور – وها هم سيجدون مكاناً مضاء يلجؤون إليه في ليالي الشتاء الطويلة، وها هي قريتهم ستدخل الجغرافيا أخيراً.

تبسم سعيد لتعبيره – دخول الجغرافيا – لقد أصبح عبود واثقاً من نفسه ويلقي النكات أيضاً – همس لنفسه – وأكمل عبود:

ـ كانت السيارات تنطلق دون توقف دائماً، ودون إلقاء ولو نظرة سريعة على هذه القرية المنفية عن المعارف والذاكرة والكتب، ولكن، ها هي محطة البنزين التي ستجبر السيارات على الوقوف، والناس على النظر، ومصلحة الطرق على وضع اسم القرية على الشارع العام.

لم يكن ابن الوكيل – الآغا الجديد...

ـ تكلم مباشرة، ويكفينا هذا اللف، أصبح كل شيء مكشوفاً فلمَ التنكر؟ قال دياب.

- حسن - قال عبود مرتاحاً - لم أكن قد أدركت خطورة التطور الجديد الذي ألمّ بالقرية بعد دخولها عصر محطة البنزين إلى أن اكتشفت فائدة الآلات الزراعية، الحراثة، والحصّادة، والتراكس، والقطافة، وكان اكتشافي هذا في إحدى الليالي التي أحسست فيها بالملل من القرية ورجالها، بل وفتياتها، وملاحقة المجنونة - أخت الآغا القديم - والتي لم يتبق لها إلا دار صغيرة في القرية وبضعة أفدنة تؤجرها للفلاحين، ومراقبتي أروح وأغدو في طرقات القرية، وكانت كثيراً ما تعترض طريقي في الليالي التي أعود فيها إلى البيت سكراناً أو متعباً، فتتوسل إلي، وترجو، وتلحف، ولكني كنت قد نسيت، فلقد غدت ذكرى ميتة.

المهم، قذف بي الملل في إحدى الليالي إلى محطة البنزين، ولم أكن أعرف صاحبها إلا لماماً، السلام عليكم - عليكم السلام.

شاب مليء طويل القامة يلفُّ رأسه بالكوفية في الأصابيح الباردة فيبدو كأهل القرية، ولم يكن أبداً مثلهم، كان رأسه مليئاً بالأحلام والآمال والأفكار، وها هي الفرصة تتاح له أخيراً ليعرض فيها أحلامه وآماله على من يستطيع أن ينفذها، ومن يستطيع في تلك القرية غيري؟

بعد كأسين ونارجيلتين وحديث طويل عن المدن التي زارها قبل أن ينشئ هذه المحطة، حديث عن بيروت وشوارعها وواجهاتها، باريس وشوارعها وأنفاقها، وقطاراتها التي تسير تحت الأرض وكابريهاتها، لندن و.... إيه... حديث طويل ممتع.

نظرت إلى الخارج، كانت الليلة عتمة والريح الباردة تعصف بالوجوه، فارتددت إليه ليكمل حديثه.

وأخيراً حط الحديث بنا عند البساتين والزراعة، وتبدى لي الشاب معجزة قذفتها لنا المدينة لطفاً في الحديث ولباقة وخبرة.

قال:

ـ نحن العرب أغبياء، لا نعرف استخدام الثروات التي وهبها الله لنا.

ـ كيف.

ـ انظر إلى هذه الأرض السوداء المترفة، هذه التلال الحلوة في كل مكان من حولنا... انظر، إنها للأسف مهملة.

ـ مهملة؟ كيف؟ إني أزرعها سنوياً.

ـ تزرعها موسماً، وتنتظر الموسم القادم، تزرعها عاماً، وتريحها آخر.

ـ هذا قانون الزراع.

ـ لا يا صديقي، إنهم الآن في أوروبة يفعلون شيئاً مغايراً، يجلبون آلات عظيمة، ماكينة واحدة تحرث في يوم واحد ما لا يحرثه خمسون من الفلاحين.

ـ ماكينة تحرث؟

ـ نعم، ويديرها رجل واحد، وماكينة تحصد أرضك كلها في يومين اثنين.

ـ هل جننت؟ أتعرف مساحة أرضي؟

ـ أعرفها، ولكن أوروبة انتصرت علينا بهذا، إنها لا تضيع وقتها في العمل الكئيب الذي يضيعه خمسون فلاحاً يدفعون أمامهم مئة ثور، حاه، حاه، حاه، ويرجعون إلى بيوتهم وأوساطهم مخلوعة، وحلوقهم جافة، ويظنون أنهم عمروا الدنيا.

وأخذت أضحك حتى استلقيت على قفاي.

ـ أيعقل هذا؟

ـ تستطيع أن تجربه.

ـ أيكلف الكثير؟

ـ آه، لا أعرف بالضبط ولكن يمكننا أن نسأل.

- متى؟

- غداً نسافر إلى شئت وتسأل وتعرف.

ودون نقاش طويل، أو استعداد كبير سافرنا معاً إلى باريس، وهناك اكتشفت فجأة أن النساء لسن فقط هؤلاء الفتيات لابسات السواد ورائحة الجلة تفوح منهن، اكتشفت أن النساء لسن فقط أخت الآغا، النساء شيء آخر، بسكوت، شوكولاه، بونبون.

- دعنا من تشبيهاتك السخيفة، ومن تظرفك الأسخف — قالت سليمة.

- لماذا؟ ألا يحق لي أن أستخدم التشبيهات التي أحبها؟

- ليس المجال مجال حق، ولكنها سخيفة، أكمل، أكمل.

- وأحببت البونبون والشوكولاه، وكان كل ما علي لأتذوق الزبدة والشوكولاه هو أن أدفع لصديقي الدليل الشاب، وتورطت، وكان يجب أن أتورط مع واحدة منهن — وحتى الآن، وبعد مضي السنين لست متأكداً إن كان تورطي بالمصادفة أم أنه كان مدبراً، المهم أن تورطي مع واحدة منهن كان متأخراً، وحين قاربت اكتشاف أن نقودي نفدت، طلبت من صديقي — وكان عند حسن ظني — ولكنه طلب مني ضماناً صغيراً، سنداً، شيكاً، أي شيء، فالدنيا تحمل معها الموت، ومن يدري — والحقوق واجبة السداد، ووافقت، وبدأت اللعبة التي كان الأب قد لعبها لسنوات قليلة مضت تلعب هذه المرة ضد الابن، وحين ارتفع رقم السندات أصرَّ الدليل الشاب على العودة.

و... تذكرنا أنا لم نشاهد، ولم نشتر تلك الآلات العجيبة التي تحرث وتحصد، فذهبنا لزيارتها، وأعجبت بها كثيراً، كانت شيئاً مهيباً ضخماً ذا أذرع عملاقة تفعل الكثير، ولكني لم أكن أبداً أملك مالاً، فعرض الشاب أن يشتريها من ماله على أن نشغلها في أرضي مناصفة، ووافقت فقد سحرتني التجربة.

منظر وصول الآلتين إلى القرية كان شيئاً مخيفاً وبهيجاً، تحلَّق الفلاحون من حولها، تفحصوها طويلاً، تلمسوا الأذرع الجبارة، ربتوا عليها، ولكن لم يخطر على بالهم قط أنها عدوهم المميت.

وسئموا منها أخيراً، فانصرفوا إلى شؤونهم، ولكن كان عليهم أن ينتظروا بعض الوقت حتى تمارسا عملهما، وحتى تطرداهم من القرية لتبتلعهم المدينة فيمن ابتلعت من وافدي القرى.

ـ ولكن، كيف استطعت وفاء ديونك لصاحب المحطة؟ سأل سعيد.

ـ ومن قال إني استطعت وفاءها – أبداً، فلم تلبث الديون أن تراكمت وازدادت، وكان عليَّ أن أدفع نصف الثمن، ولم يكن لديَّ، خاصة وقد تكاثرت زياراتي لبيروت، وكان عليَّ أن أفي ما سبق استدانته ولم أكن أملك، ولم تلبث العاصفة أن ابتلعت ما ذرته الريح بالتدريج.

ـ كيف؟

ـ أخذت قطع الأرض الصغيرة والبعيدة هنا وهناك تنتقل إلى صاحب المحطة وفاء لهذا الصك وسداداً لهذا السند.

ـ فلم تستفد من التكنولوجيا إذاً؟ سألت نوال.

لم يرد عبود على السؤال بل تابع.

ـ استفدت شيئاً واحداً، تعلمت أصول اللعبة، فرحلت إلى المدينة كما رحل الآغا السابق، ولكن لأبدأ رحلة جديدة.

ـ ولنكون ميدان اللعب الجديد – قال نبيل.

ـ كانت لعبة ممتعة على أية حال، لولا أنهم أفسدوها – قالها وهو ينظر إلى دياب وسليمان اللذين لم يجيبا.

ـ ولكن اللعبة التي لُعِبت معي لم تكن حلوة أبداً – قالت نوال.

والتفتوا إليها جميعاً.

ـ ماذا تعنين؟ سأل سليمان.

ـ لا، أنا ما عنيتك فقط، بل عنيتكم جميعاً، ربما لم يكن لفلان أو فلان يد، ولكنها لعبتكم.

ـ كيف؟ سألت سليمة.

ـ كان يمكن لحياتي أن تستمر هادئة، وكان يمكن لي أن أرضى بما قسم لي كما رضيت ملايين النسوة الشرقيات عبر آلاف السنين لو لم تتدخل أختي فتكشف المنديل عن وجهي، وتريني أي شيء قد فقدت في هذه الحياة، وكان يمكن لي ألا أستجيب لكل تداخلاتها، وأن أستمر في الحياة الرخية الناعمة جارية ناعمة حلوة تنفّذ كل رغباتها، ولا شيء يطلب منها، إلا أن تستلقي مغمضة العينين بين الحين والآخر، ولو لم يكن خليل يسكن في البيت المقابل، ولم لم تكن لديه عادة القراءة ليلاً، ولو لم يكن يحيط نفسه بكل هذا الجو العجيب من الرومانسية والسمو، ولو، ولو، ولو...

صمتت قليلاً، ولكن أحداً لم يتدخل في الحديث، لا ليحثها على الاستمرار، ولا ليحتج على ما قالت، حتى عيون دياب ونبيل اللتين اعتادتا تفحص الوجوه لقراءة الانعكاسات لم تحاولا شيئاً، فقد مال النهار إلى نهاياته ولم يحاول واحد منهم أن يحتجّ على الظلمة القادمة، أو يطلب إضاءة تصدها بل بدا وكأنهم تأقلموا حتى مع الجوع الهادئ المسيطر، والظلمة وطلقات الرصاص.

ولكن حدث أني فتحت عيني، ورأيته، وأحسست أي ضياع أعيش، وفي إحدى الليالي، وكانت ليلة قمراء، ولم يكن في البيت سواي، فلقد خرج الجميع للاحتفال بختان غلام لأخي زوجي، ولم أرغب في مراقبتهم، ولماذا أعرض نفسي لنظراتهم الساخرة واللائمة والشاكية والمتعاطفة والمنافقة؟ وكلها يعجب لعدم إنجابي، ولعدم إنجابي غلاماً، يكمل السلسلة النبيلة للزوج العظيم، ادعيت المرض، ولم أبال إن كانوا قد أدركوا السبب أو لم يدركوه.

حين خلا البيت تماماً، وكانت هذه من المرات القليلة النادرة التي

يخلو فيها البيت، تنقلت بين الغرف، السجاد الفارسي، الستائر البروكار، المكتبات الماهوجنا والموصى عليها خصيصاً من لندن مع كتبها المجلدة المذهبة طبعاً، والتي لم تفتح قط، ولكن مكتبة دون كتب؟ شيء قبيح.

الثريات الكريستال، الفوضى في كل مكان، قبائل من الأطفال والعفاريت تحمل كل شيء، وتحطم كل شيء، وتحس أن الأشياء لا أهمية لها إلا في قيمتها المادية فقط، لا قيمة للجمال، للاتزان، للإنسان، لأي شيء، المهم أنك إذا فتحت مجلة البيوت السعيدة، وقارنتها مع أي من هذه الغرف، فستجد أنها منسوخة عنها نسخاً — هذا طبعاً قبل أن تعدو عليها يد الأطفال تحطيماً وتمزيقاً وتقذيراً.

البار! وتوقفت أمامه طويلاً، أحسست بشهوة غريبة مدمرة لتناول كأس، قلبت الزجاجات، كانت فارغة كلها إلا من صبغة جافة داخلية تعطيها اللون المناسب لنوع المشروب المفترض وجوده فيها — لا بد أن يكتمل الديكور — فالغرفة مصممة ليكون فيها بار — وكنت أعرف أن لديه عدداً من صناديق الويسكي، ولكنه يخفيها بعيداً إلا عنه وعن الأصدقاء، صعدت إلى السطح، وقد تعذرونني لكل هذه التفاصيل، ولكن الذكرى مسجلة تماماً بتفاصيلها الدقيقة، وكأنها كانت بالأمس، الليلة قمراء دافئة، خيمة سوداء تغطي المكان، دنانير ذهبية تحلي هذه الخيمة — لا بد أنها دنانير ذهبية، فبم يُحلَّى مكان لا قيمة فيه إلا للذهب؟ ـ دفء غريب، إنه ليس قيظ الصيف، ولكنه دفء الربيع الذي ينتشر في الأوصال فيبعث الاسترخاء، ويحرك النسغ في عروق الشجر الدافئة، وتحسين فجأة بأن الطبيعة كلها مستعدة للوصال.

كان بيتاً منعزلاً ضمن حديقته، فلا تسمع إلا أصوات الجنادب تصر، أو حشرات سام أبرص تصيء من مكانها، وحفيف نسمات خفيفة تنتقل في هدوء بين أوراق شجرة التفاح اليتيمة، والتي نقلت منذ سنوات إلى حديقتنا، ولكنها أبداً لم تثمر، كانت تزهر فيفرح الجميع لإزهارها، ولكنها بعد أيام تذبل أزهارها، ثم ترميها أمامنا على البلاط، فيحزن

الجميع، أما هي فتستمر في الارتفاع والسموق، ترتفع وتعلو، ولا أحد يفهم سر طولها هذا، ولكني أعتقد أنها كانت تريد أن تعلو فوق مستوى البيت، لعلها تبحث عن أليف قديم لها.

أشجار النخيل اللعينة لم تكن تبالي أبداً، كانت أقراط بلحها الحمراء المتدلية منها مثيرة للحسد والشهوة، وكنت كثيراً ما أعمل على قطف أقراط كاملة منها أنقلها إلى غرفتي أتفرج على جلدها الأحمر المشدود واللامع وهو يسود شيئاً فشيئاً، ثم يرتخي ويذبل، حتى إذا ما لانت الثمار جميعاً، وبدا وكأنها نضجت رميتها، فلم أحب البلح أبداً.

استندت إلى السطح، ونظرت في اتجاه الشمال، لا شيء، سدف فوق سدف، وظلمات فوق ظلمات، وأحسست أني ملعونة وحيدة وحدة لا نهاية لها.

أحسست بحركة في الحديقة، التفتُّ، انشق باب كوخ البواب، واندفعت موجة من ضوء غمرت جزءاً من الحديقة، ثم... خرجت، حددت النظر أرقبها، كان منظرها غريباً، وللمرة الأولى أراها على هذه الهيئة — كانت كما يبدو مطمئنة مثلي إلى خلو المنزل، فخرجت إلى الحديقة عارية إلا من فوطة شدَّتها إلى خصرها، فغطَّت نصفها الأسفل على عادة أهل الجنوب، وكان شعرها الذي ما رأيته إلا مضفوراً، أو مغموساً بالزيت منشوراً على كتفيها ولم أصدق عيني، عاتكة هذه التي ما رأيتها إلا ويداها غارقتان في الغسيل والعجين وتنظيف الأطفال، ألها مثل هذا الصدر الفتي، وهذا الشعر الناعم المنشور؟

أشعلت سيكارة ثم نفثت من فيها نفثة غلَّلتها قليلاً، فبدت وكأنها تجسيد لهالة السعادة التي كان واضحاً أنها تحسها، سمعت دندنة منخفضة، وشككت في سمعي، ولكنها كانت فعلاً تغني، وسمعت ضحكة من الداخل، الضحك الخشن المستمتع المسترخي، والذي أنهى لتوه المهمة التي يعتقدون جميعاً أنها أكثر المهمات أهمية في العالم.

التفتت ناحية الغرفة، ثم رجعت بنظرها إلى حيث كانت تنظر، أسندت

قدمها اليمنى إلى صخرة جانبية، ومجّت نفساً آخر من سيكارتها، ثم طوّحت بها بعيداً، كنت أراقبها في نهم متسائلة عن سر هذه الشخصية الجديدة التي ما عرفتها بها حتى الآن.

تمطّت قليلاً، وكدت أسمع صوت طقطقة عظامها، وحتى كدت أحس برائحة اللذة تنتشر فتملأ المكان.

ويبدو أنه لم يعد يحتمل، فقد سمعت صوته ينادي ثانية، ولكنها لم تستجب، صبر قليلاً وكانت تمسح على ذراعيها وبطنها بكفها كمن تدفئ جسدها، أو تمسح عنه غباراً غير مرئي، وانشق الباب، وخرج بصدره الأسود المعروق ورأسه يناديها، وقالت شيئاً لم أفهمه، ولكنه اندفع من غرفته كالمجنون، ولم تحاول أن تفر، فحملها، وعاد بها إلى غرفته.

أغلق الباب، وساد الظلام ثانية، حاولت أن أسمع شيئاً، أن أرى شيئاً، ولكنه كان الحلم الذي انتهى.

عدت إلى غرفتي، أشعلت سيكارة لم أدخنها، أعملت المكيف فدوى صوته في أذني كالرعد، لم أحتمله، أطفأته، وأعملت التلفزيون، كانت واحدة من التمثيليات المحلية الكريهة، فأطفأته، وأعملت الراديو أبحث عن مدينتي بين آلاف المدن، وجدتها وكان صوتها مشوشاً، ضائعاً، خافتاً، ولكنه كان نداء القلب.

وتذكرت أشياء كثيرة، تذكرت شرفة بعيدة وليلة عتمة إلا من مضيئة يجلس تحتها رجل غارق في كتاب، وموسيقى عجيبة تغلله وتغلل المكان، وأحسست بغصة حارقة، ودموع تختنق في زوايا العين.

وقررت أن أعود، أن أعود وأجد عملاً، أن أعود وأحاول أن أعيش قبل فوات الأوان، اللعنة، عاتكة تعيش حياتها الخاصة، والتي ما ظننت قط أنها تعيشها حتى رأيتها بعيني، وأنا أقدم نفسي جارية رخيصة يدفع ثمنها بالتقسيط إلى الأهل المقيمين بعيداً.

تناولت حبتي منوم مصممة على قرار واحد، أن أعود بأي ثمن.

ـ ولكن كيف تركوك تعودين؟

ـ كان القدر الغريب أقوى منهم إذ لم يحتمل قلبه العجوز كثرة الشراب مع أخيه في حفلتهم تلك، فأصابته جلطة عجّلت بسفري.

ـ وانتهت مسألتك.

ـ لا، لم تنته، بل بدأت، عدت إلى مدينتي، وكان الأهل قد انتقلوا من البيت القديم، بحثت عن رجل الشرفة القديمة، تشممت أخباره، ولكن كل شيء كان قد تغير.

وعدت إلى البيت لتستمر الحياة بي جارية متقاعدة، ولم أحتمل الفكرة فحصلت على الشهادة الثانوية، وعملت.

ـ وهناك قابلت سليمان — قالت سليمة، ونظر إليها الجميع في دهشة لتدخلها الفظ، ولكن نوال تابعت.

ـ نعم، قابلته وأدهشني في البدء بثقافته وتجربته، ولكن — أنا آسفة يا سليمان، ولكنها الحقيقة كما تعرف — لأصدم الصدمة العنيفة حينما اكتشفت زيف ما قاله وعرضه عن نفسه، فلم يكن غير واحد آخر من أولئك الرجال الشرقيين مع تغير في نوع السلاح الذي يحاولون به العودة بالمرأة إلى الجارية، أصبحوا الآن يستخدمون لغة العصر، الحرية واختيار المصير، ولكن، وما إن تجابههم بطلب دفع الثمن لما يريدون شراءه حتى ينكصوا عائدين إلى القوقعة القديمة الهادئة التي اعتادوا عليها.

ـ تظلمينني يا نوال — قال سليمان في عتب خائف.

ـ أظلمك؟ ألم نتفق على اختيار المصير، فلماذا أحجمت حين أقدمت؟

دلك سليمان جبينه بكفه كمن يفكر، أو يعتصر الذهن لإيجاد فكرة، ثم قال:

ـ كانت المرأة الجميلة، الخفيفة الظل، الفراشة تطير ويطير الكل من حولها، ولكنها كانت تهوى الثمار الناضجة، ولم أكن غير ثمرة غضة صغيرة لم أكن أعرف إن كانت ستحلو، أم ستسقط فجة، ولكني أحببتها، اشتهيتها، تمنيت أن أعطي كل شيء، أهب كل شيء من أجل أن أحصل عليها، ولكنها كانت متأبية بعيدة، تعد ولا تصل، تبتسم ولا تضحك، تسقي ولا تسكر، كانت الأمنية البعيدة، وضاقت الدنيا كلها من حولي، فلم يتبق لي إلا نافذة مضيئة واحدة، هي، وغدوت ولا هم لي إلا الإطلال على العالم من خلالها، ولكني كلما اقتربت ابتعد بها الآخرون، وبدأت الدنيا تسودُّ من حولي لتتحول الرؤى كلها إلى سواد، وكان يجب أن أصنع شيئاً، وفي سهرة من تلك السهرات قال لي مجدي:

ـ مجدي علاء الدين؟ قال سعيد.

ـ نعم، سألني عن سر هذا الحزن الذي يغطيني، هذا الأسى الذي بدأ يشمل كتاباتي، وكنت أعرف أنه واحد من أهم أحزاني، ولكني لم أجرؤ على فتح قلبي أمامه، فقد كان بشكل ما أستاذاً من أساتذتي، وألح، فاعترفت له بكل شيء.

ـ بحبك لها، وتأبيها عليك، وبرغبتك في ابتعاده؟ قالت سليمة.

ـ نعم – قالها – وهو ينحني برأسه تعباً.

ـ ولكنه لم يكن الوحيد الذي تحوم من حولهم.

ـ ابتعدوا جميعاً.

ـ كيف؟ قال عبود.

ـ القلب مختنق بالحزن، فلا تزيدوا في اعتصاره، واسمعوا ما أريد قوله فقط.

ـ حسن – قال سعيد.

ـ وتلفتت من حولها لتجد أنها لم يبق لها غيري.

- ألم تندهش لابتعادهم جميعاً فجأة؟

- أظنها اندهشت، ولكنها لم تكتشف السبب.

- ربما اكتشفته فيما بعد؟ قالت إلهام في لطف.

- صحيح، وكان هذا الجرح الذي لم يندمل فيَّ أبداً، كنت كلما خرجت بها إلى مكان عام خفت أن يتقدم واحد من العشاق القدامى، وخفت أن تكتشف فعلتي، ويبدأ العالم يتحول إلى كابوس، فأخذت أقلُّ من خروجنا.

- في ذلك الوقت أنجبتم علاء؟

- نعم، وحينما أنجبته أحسست أني أمسكت بها، فلم أعد أخافها، وغيرت ثلة الأصدقاء حتى لا نلتقي بأي منهم، ولو صدفة، ولكن القلب برد، والدماء هدأت، وبدأت أراها على حقيقتها، امرأة كانت جميلة، وصارت عادية، هادئة الخواطر والعواطف، أهملت القراءة، ولم يعد لها من هم إلا طفلها تعتني به، وأطفالاً تطالبني بهم دائماً وتنظر إلى المستقبل من خلالهم.

- وأنت؟

- عدت اللاشيء في حياتها، غطاءاً اجتماعياً، وممولاً، وصديق سهرات.

- كل الزيجات تنتهي هكذا – قال سعيد.

- صحيح، ولكني لم أكن أعتقد هذا، كنت أظن أني وقد بذلت من أجلها كرامتي واحترامي لنفسي أنا سنظل العاشقين الأبديين.

- ثم دخلت نوال في حياتك – قال نبيل هذه المرة.

- دخلت، وكانت امرأة عجيبة، كتلة براءة وسذاجة، وانبهار بالعالم، نهماً غريباً للمعرفة، للفكر، للرجل، للحياة، لكل شيء، وأحسستني أنجذب إليها، ووجدتها تستجيب في براءة، وأحسست العالم يستقر ثانية،

أحسست بالالتواءات تستقيم، وبالظلال تمّحي من المرآة، وعدت الواثق من نفسه المحبوب، المرغوب، الجدير بأن يؤمن به، وأحسستني أكبر إلى جانبها، وأكبر حتى غدت كل شيء في حياتي.

- ولكنك تخليت عنها في لندن؟ قالت سليمة.

- من قال هذا؟ كذب، لم أتخلَّ عنها، بل هي من تخلى عني.

- سليمان، إهدأ، نحن في جلسة مصارحة ومكاشفة، لندع الصدق يسودنا مرة في العمر، هه — قالت نوال في لطف.

أطرق قليلاً، ثم قال في صوت منهك.

- لم أتخلَّ عنك يا نوال، فقد كنت ولا زلت النجم الوحيد المضيء في حياتي.

- ولكنك حننت إليها.

- العادة.

- وحينما طالبتك بالزواج كما وعدت جبنت.

- لم أجبن، ولكني لا أعرف السبب، كنت كما قلت منذ قليل ولا زلت النجم المضي في حياتي.

- لا، لقد أحسست أن كل ما قلته كان تمثيلاً.

- لم يكن تمثيلاً، أقسم — صاح في غضب.

- ربما لم تكن تحس أنه تمثيل، ولكنه كان تمثيلاً بدليل تكوصك لحظة دفع الثمن.

- أكان لا بد من دفع الثمن؟ أما كان بالإمكان أن يحيا اثنان يحب كل منهما الآخر حياة حبيّة دون إخضاعها لمنطق التجارة، بيع وشراء دفع واستلام.

- إنه منطقكم التاريخي، أتذكر؟

صمت سليمان، فلم يعد يستطيع الردّ، تحرك في مجلسه قليلاً، ثم مضى إلى التراس، استند بمرفقيه إلى سور التراس، ونظر إلى المدينة العتمة المهاجمة، لم يخش رصاصة طائشة، فلم يفكر فيها أبداً، أحس عالمه كله يصبح بلا معنى، ارتجف قليلاً كمن أحسّ بالبرد، ولم يكن الجو بارداً ولكنه أحسّ نفسه عارياً دون ساتر على الإطلاق، وأحس يد خليل على ذراعه.

- تعال يا سليمان.

- اتركني قليلاً يا خليل.

- تعال، لا تصبك رصاصة طائشة.

- لن تصيبني، لا تخف.

سحبه من ذراعه في لطف، فاستجاب له ودخلا.

أشعلت بقايا هيلين الشمعة، وكان دياب قد أعطى كلا منهم قدراً من الماء في كأسه، فلم يتجرعوها جميعاً، وكان كأس سليمان وخليل أمام مجلسيهما، واتجه كل منهم إلى مجلسه فجلس بهدوء.

- أما لهذا الحبس من آخر - صرخت سليمة.

لم يردّ أحد، ولكن السؤال كان على فم كل منهم.

- لو كانت هند تحب التموين — قالت سليمة.

- من سوء حظنا أنها لا تحبه — قال نبيل.

- ولكني خائفة — قالت سليمة.

- كفاك صراخاً كالأطفال. كلنا جائع، ولكن ما العمل؟ قال دياب.

- أحس أني سأنهار، سأبحث عن كسرة خبز، أو شيء ما هنا أو هناك.

- لن تعثري على شيء، فلقد فتشت المطبخ جيداً — قالت نوال.

وكأن مجرد ذكر الجوع حرّك قرصاته فيهم، فلقد أحسوا جميعاً

وبتوقيت واحد تقريباً آلام الجوع في معداتهم التي أخذت تنبض تحت جلودهم كطفل صغير لا يملك غير احتجاج الرفس.

ـ دعونا ننسى الجوع – قال سعيد – أرجوكم، حاولوا شيئاً، إن تذكره والضعف أمامه لن يزيدنا إلا إحساساً بالخور.

ـ ولكني جائعة وكلكم جائع، فلمَ المكابرة؟ قالت سليمة.

ـ ليست المكابرة، ولكن، ما الفائدة؟ الأفضل أن ننسي أنفسنا الجوع فنستطيع الصبر عليه لفترة طويلة.

ـ حتى متى؟

ـ قلت لكم نستطيع أن نعيش حتى أربعين يوماً – قال دياب.

ـ نصبر أربعين يوماً؟

ـ كثيراً ما يصوم الأنبياء وحتى قديسو الهند أكثر من أربعين يوماً – تابع دياب.

ـ أولئك أنبياء وقديسون، لن أصبر.

ـ لن يفيدك احتجاجك شيئاً.

ـ أقول، دعونا نكمل لعبة الاعترافات – ورنت كلمة الاعترافات غريبة، فلقد تحاشوها طويلاً، وحتى سعيد أحس بالحرج، فتابع:

ـ أعني دعونا نكمل لعبة الحكي، فبها نستطيع أن ننسى وضعنا، ما رأيك يا نبيل؟

ـ تعني أن أبدأ الحديث.

ـ إن كان لديك شيء تريد أن تقوله.

أطرق نبيل طويلاً كمن يحاول شيئاً صعباً.

ـ تعرفون؟ الجوع حالة عجيبة، ورغم ما بها من إحساس بالضعف والألم إلا أنها حالة عجيبة، فمنذ الصباح، وأنا أحس خفة في جسمي.

ـ ليس في جسمك فحسب – علق خليل مازحاً.

ـ قل، هذه حالة قديمة، ولكن لا أدري، ألا تحسون الإحساس نفسه؟

ـ ماذا تعني؟

ـ هذا الإحساس بالخفة الذي يتنامى مع طول فترة الجوع، تحس أن ضعف الجسد يجر معه الإحساس بالتحرر منه.

ـ دعنا من الفلسفة الآن، وتحدث

أطرق نبيل ثانية، ثم كمن حزم أمره قال:

ـ حاولت الفرار من حصارها طويلاً، ولكنها كانت دائماً أقوى مني.

ـ من؟

ـ ذكراها – ونظر بطرف عينيه محاذراً نحو إلهام، وانتبهوا جميعاً، فلقد بدا صوته متحشرجاً وهو يقولها، وبدا وجهه الشاحب تحت الضوء العتم معذباً، وبصوت ثقيل قال:

ـ أجمل ما فيها عيناها، عينان سوداوان واسعتان عميقتان، وبشرة خمرية السمرة تنضح بالحيوية والفتاءة، وكانوا جميعهم يحومون من حولها متيّمين بها، ولكن كانت لي ميزة أني معلمها.

ـ أكنت معلماً؟ سأل دياب في دهشة، ولكن نبيل لم يرد، بينما انتفضت إلهام في عصبية خفيفة لم يحسها إلا خليل، ولكنها كانت انتفاضة خفيفة جداً بحيث ظنَّ أنه كان واهماً، وتابع نبيل دون أن يرد.

ـ كانوا قد أسموها عشتار، لماذا؟ لا أدري، ولكنها قطعاً لو وجدت في عصر آخر لأسميت عشتار، طويلة ممتلئة قليلاً، ولكنه الامتلاء الذي يغري بالضم والتجميش وإيداعها طفلاً، دعوة مستمرة للحياة، تتقافز فيتناثر شعرها الأسود حول كتفيها عقباناً سوداً، محمومة تحاول الحط فتشدها العفرتة إلى فوق، الكتفان المستديرتان، الذراعان العبلتان السمراوان العاريتان تبرزان من ثوبها الجابونيز، رائحة العرق الخفيفة

تنبعث مسكرة من الآباط فتدور بك قليلاً، وتحس بأنك لا بد أن ترضخ، دعوة مستمرة ويعاسيب كثيرون يدورون في فلكها، آه، عشتار عشتار.

لم يشكّ خليل هذه المرة، فقد كانت انتفاضتها واضحة، ولكنها تماسكت ثانية، ولم يبد خليل ما يكشف أنه أحس بارتعادتها، وإن ظل يراقبها بجانب أحاسيسه.

كانت أمها قد جاءت بها، حاولت في البدء أن أعاملها معاملتي لها في المدرسة، مجرد طالبة، ولكن ذلك كان مستحيلاً، فلقد غيَّرت زيها، وعادت المرأة، وكنت أعرف عنها، أعرف عن ملاحقة الشبان لها، أعرف عن شهوات الرجال تلاحقها في كل مكان، وحاولت ألا أرى فيها إلا الابنة التي لم نرزق بها، ولكن ذلك كان مستحيلاً، فلقد كانت مخلوقاً غريباً، كانت تنشر من حولها غلالة غريبة من رغبة، و.... كانت دعوة مستمرة.

أحس خليل بنهنهة مكتومة إلى جانبه، فالتفت بهدوء، ولكنه لم يستطع التأكد في نصف الظلمة المسيطر إن كان رأسها المرفوع إلى الأمام هو ما ينهنه ويتظاهر بالتماسك، وكأنها أحست بالتفاتته، فلم تلتفت وظلت تنظر إلى الأمام في صمود، وإن أخذ كتفاها يهتزان، حاول نبيل جعل لهجته محايدة، ولكنه لم يستطع، فقد كان العذاب يتسرب من ثنايا صوته، و... لم يحاول النظر إلى إلهام، و.. تابع:

حاولت أن أقاوم، ولم أستطع، فضعفت... كانت شيئاً عجيباً.. مخلوقاً ينحدر ولا شك من الشهوات الصافية قبل معرفة الإثم والخطيئة.. و... كان إصرارها البريء على المضي في كل تجربة لها في الحياة حتى نهاياته أكبر مني، و... لكني ضعفت... كنت أعرف أنها منذورة لشيء يكبرني، ولم أستطع أن أحدس كنه ذلك الشيء، ولكن كان عليَّ أن أعيش حتى أشهده، فقد كانت من تلك المخلوقات النادرة التي لم تكن تقبل بأنصاف الحلول، فإما الحياة بأبعادها الثلاثة، وإما على الحياة نفسها السلام... وكنت إنساناً عادياً ـ وتهدج صوته بينما أصيبت إلهام بالخرس ـ كنت مستعداً لأنصاف، بل لأرباع، وربما لأثمان الحلول.

المهم أن أعيش.. أي عيش؟.. لا يهم... المهم أن أستمر... إلى أية نهاية.. لا يهم... المهم أن أستمر.

تنهدت إلهام فجأة تنهدة مرة حاولت أن تكتمها، فلم تستطع وأحس خليل أنه شم رائحة شيء يحترق، وحين التفت إليها كانت ما تزال منتصبة الرأس عالية الكتفين تنظر إلى الأمام دون التفاتة، أو حركة، نظر إليها الجميع يحاولون فهم تنهدتها، ولكنها لم ترد، ولم تنفعل، ولم تتحرك، فاستداروا بأبصارهم عائدين إلى نبيل الذي اتجه إليها.

ـ سامحيني يا إلهام، كان لا بد أن أقولها أخيراً – كان لا بد أن أبعد هذا الهم عن صدري.

ـ إلهام، أعرف أن جرحك عميق، وأن الألم الذي أسببه لك لا يحتمل، ولكن اغفري لي أرجوك، لأول مرة أحس شبحاً غريباً يضرب بأجنحته في هذا المكان، وأحس أنه يدعوني وأحس أني أخافه، أنا أعرف أنها هي.

ـ أحمق، أناني – قالت في مرارة تنز من بين أضراسها.

ـ أعرف، أعرف، وآسف لذلك، ولكني لا أستطيع شيئاً آخر.

صمتت، وصمت، وصمتوا، وتتالت الطلقات والأصوات تنبههم إلى أنهم ليسوا وحيدين، واندلعت فجأة قنبلة مضيئة على مقربة من البناية، لتنير المكان عبر باب التراس، بدت الوجوه المتطاولة الملتحية بلحى خفيفة عجيبة القسوة والمرارة تحت وقع القنبلة المضيئة التي لم تلبث أن تلاشت ليتلوها طلقات، ورشاشات، وانفجارات، كانوا متشوقين لسماع تتمة القصة، ولكنهم خجلوا أن يطلبوا منه تعرية نفسه أكثر مما فعل، ولكنه مسوقاً بإرادة أقوى منه تابع:

ـ عرفت السعادة، سعادة الاتصال بالآلهة، ربما صدقت أنها عشتار فعلاً كما كانوا يسمونها، حاولت أن أتجاهل كل شيء، ماضيَّ، حياتي الأخرى، علاقاتي الأخرى بالمجتمع، ولكني لم أستطع، واستطاعت، أهي قلة التجربة؟ أهي البراءة؟ لا أعرف، ولكنها اندفعت وتبعتها.

ـ كنت أحس أحياناً بعينيها تلاحقانني، تراقب، تحاول أن تفهم، ولكني كنت أهرب، فقد كنت أخشى المواجهة.

أحس خليل ثانية بالارتعادة واحتار في الضمير (هي) على من يعود في جملة نبيل الأخيرة، خطر له لثانية واحدة فقط أن يسأل، ولكنه في الثانية التالية تماماً أحس بمدى فظاظة سؤال كهذا، فصمت.

ـ وعشت التمزق، كنت أتمنى أن تطالبني بشيء، ولكنها أبداً لم تطالب كانت مخلوقاً عجيباً منتزعاً من كتلة البراءة الأولى، وأخذت أفهم لماذا أسموها عشتار.

ـ كنت متزوجاً حينذاك؟ سألت سليمة فجأة ليرن سؤالها النشاز ضمن تناغم الصمت والحزن، ولم يرد، وفوجئ بالسؤال، ونظر إليها طويلاً.

ـ لم تطالب بشيء، وكان هذا أقسى ما في الأمر، أنا مدين، مدين بأشياء كثيرة، ولكلتيهما، ولكني لم أكن أملك ما أدفع، فتجاهلت، وصمتت.

ـ أيها الأناني، أيها الأناني الوضيع — صرخت في حقد عجيب — أنت السبب، أنت السبب، أنت السبب في كل شيء.

انقضت عليه تشده من ياقة قميصه.

ـ أيها الحقير الوضيع المجرم، إذاً فقد كنت السبب؟

لم يحاول أن يقاوم، بل استسلم لضرباتها وصفعاتها تماماً، جمدوا جميعاً أمام المشهد، وبدا لخليل، وكأن نبيل يلتذ بضرباتها.

ـ إلهام، أنا آسف، فقط أنا آسف، اغفري لي، اغفري لي.

ـ أيها الوغد، الوغد، الوغد، الحقير.

انتصبوا جميعاً يحولون بينهما.

ـ دعوني، دعوني، دعوني.

جروها بعيداً عنه.

ـ آسف جداً يا إلهام، أعرف أن الجرح عميق، ولكني آسف.

كانت تنتفض بين أيديهم كسمكة تناضل صياديها.

- دعوني، دعوني.

وخفت صوتها حتى تحول إلى همس منهك.

- دعوني، الوغد، الوغد.

- دعوها، أستحق كل ما تفعل.

- قتلتها أيها المجرم.

- لم أقتلها، أقسم إني لم أقتلها، قتلتها براءتها.

- قتلتها خستك أيها اللعين.

كان خليل يراقب ما يجري مشدوهاً، إلهام المهذبة الناعمة الحزينة أبداً تتحول إلى هذا الوحش المهاجم، ولكنهم كانوا قد أوثقوها بينهم، ولم يستطع واحد منهم أن يتخيل أنه سيتابع.

- لم أستطع مجاراة اندفاعاتها، فتراجعت.

- فاجأتها بقذارة العالم أيها الوغد.

- انتحرت.

- دفعتها بأنانيتك وخستك.

- انتحرت.

- قتلتها بيديك الخصيتين أيها الوغد.

- إلهام – صرخ مجروحاً.

- ألقت بنفسها إلى النهر – قالها في صوت ذبيح، تشبثت بأرضيته بالحجارة في قاعه، وحينما انتشلوها كانت في ثيابها البيض عروساً.

- آه أيها الوغد المجرم الأناني.

انتفضت من بين أيديهم تريد أن تهاجمه، ولكنهم حالوا بينها وبينه وجرّها سعيد وخليل معهما إلى التراس.

- اهدأي قليلاً إكراماً للنبي، ما مضى قد مضى.

- إنه ليس رجلاً، ليس رجلاً على الإطلاق.

- لا بأس.. لا بأس.. اهدأي.

- قتلها بوحشيته، وحينما رأى جثتها – ولم أكن أعرف حقيقة العلاقة بينهما، وإن خمنته لفترة – أخذ يصرخ كالمجنون.

- إلهام – صرخ نبيل من الداخل.

- لم تعد رجلاً أيها الوغد – كانت هذه عقوبة الله لك.

- إلهام.

انفلتت من بين أيديهما فجأة، ولكنهما أسرعا إلى الباب يسدانه حتى لا تدخل فتهاجمه ثانية، ركضت قليلاً في المكان كغزال وقع في شرك ارتطمت بالحجارة الصغيرة، سقطت على وجهها، قامت، جرت إلى باب التراس، ضربته بيديها حتى أحسوا بالألم على أكفهم، ولكن الصدى كان مكتوماً بالرمال.

- إلهام.

وأسرع خليل ليبعدها عن الباب، ولكنها اندفعت تجري في المكان، تتخبط، تقع، تقوم، كان السور أمامها، ولم يخطر ببال خليل أو سعيد أنها ستفعلها، ولكنها فجأة بدت لهما بشبحها الظليل فوق السور شيئاً خرافياً، نشرت ذراعيها في الهواء، وفي اللحظة التالية، وقبل أن يدرك خليل ما ستفعل، وقبل أن يحاول إيقافها كانت قد قفزت في الهواء دون أن تصدر صرخة واحدة، أسرعا إلى السور ينظران، ولكن العتمة الغلاف حجبت كل شيء، أسرع الجميع وراءهما، ولكن كل شيء كان قد انتهى.

- إلهام، إلهام.

- إلهام، صرخ نبيل وكأن سكيناً يشق أعلى بطنه حاول أن يلحق بها، ولكنهم جروه بعيداً، ركض قليلاً في المكان كأنه يبحث عن شيء، عن أحد،

ولحق به دياب وخليل، كانا قد أحسا بما يريد أن يفعل، ولكنه لم يفعل، بل جرى قليلاً.

أمسكا به من كتفيه، وعادا به إلى الصالون نصف المضاء ببقايا هيلين الشمعة – جلس في مكانه، وشيء خرافي يحيط بهم، يسيطر، يغطيهم، إنه المأتم الحي.

علت سيمفونية الصمت، الصمت التام، إلا من بقايا طلقات ورشاشات وشهب تندفع في السماء قليلاً، ثم تنطفئ.

لم يجرؤ أي منهم على خرق حرمة الصمت، كانت المفاجأة أكبر والحزن أعمق.

أخذ خليل يستعرض الأيام الثلاثة كلها، كانت شيئاً خارجاً عن كل منطق، بعيداً عن كل معقولية، شيئاً أقوى من الحلم، وأبعد من الهستيريا.

استعرض الوجوه القلقة الخائفة المرعوبة المعذبة غير المصدقة، ملامح ممسوحة، وظلال رمادية، أنوف ضخمة، وعيون اختفت شرطاتها.

أهؤلاء هم؟ أيعقل هذا؟ أهؤلاء من فعلوا وسيّروا وغيّروا ونظّروا؟ أهؤلاء من حلموا الدهر بتغيير العالم، فلما اتصلوا به حولهم إلى هذه الدمى الفاشلة المذعورة؟

انطلق الضوء مفزعاً فغمر المكان، أحسوا بالرعب جميعاً، كان الضوء عندهم هذه المرة، فوق البناء تماماً، هاجمهم بقسوة، فبدت الوجوه المذعورة ذات العيون المتسعة رعباً، والأنوف المتطاولة، والبشرات الصفراء، والشعور المنفوشة، أسرع كل منهم ليخبئ وجهه رعباً، خجلاً، خوفاً، جبناً؟

كان دياب أول من أدرك ما يجري.

ـ أنصتوا.

أنصتوا جميعاً، رفعوا وجوههم من تحت أذرعهم والرعب على وجوههم.

- ماذا؟ - قال سعيد.

- ماذا؟ - قال سليمان.

لم يسمع أحد منهم شيئاً.

- أنصتوا، أسمع حركة عند الباب.

- ماذا؟

جرى عبود نحو الباب فرحاً، ولكنه ما إن اقترب منه حتى أحس برعب يتسلل إليه — ماذا لو لم يكونوا هم؟

كان الصوت قد اتضح الآن فعلاً، إنه صوت مجارف ومعاول.

أسرع سليمان يتبعه سعيد ودياب إلى الباب، حاولوا أن يطرقوا الباب، ينبهوا القادمين إلى وجودهم ليسرعوا إلى نجدتهم، ولكن خاطراً شريراً ثقب مخيلاتهم فجأة، ماذا لو لم يكونوا هم؟

تراجعوا قليلاً، وبسرعة عادوا إلى مجالسهم ليفاجؤوا بعبود في مكانه متقوقعاً على نفسه مرعوباً.

- من؟ من هم؟ همس عبود.

- لا أدري.

علا صوت ضربات المعاول والمجارف، كان واضحاً أن لحظة المواجهة قادمة، علت نبضات قلوبهم، أضناهم الرعب، حاول سليمان أن يصرخ، أن يقول، أن يسمع نفسه صوته، ولكن لسانه خانه.

واستسلم كما استسلموا جميعاً للملك القادم، للذعر القادم، للأمل القادم.

وبهدوء، وكأنهم على اتفاق ركعوا جميعاً على ركبهم وثنيين مذعورين أمام ذلك القادم.

ركعوا جميعاً، سليمان وعبود، سعيد وخليل، دياب ونبيل، نوال وسليمة، ركعوا جميعاً في ذعر.

تباركت أيها القادم، ليعل اسمك عالياً، من أنت؟

ليتمجد اسمك، من أنت؟

طمئن قلوبنا المذعورة، وأخبرنا من أنت؟

قلوبنا تهفو وعيوننا ترنو، وآذاننا تتطاول وتحاول معرفة كنهك أيها العظيم، تعطّف وأخبرنا، من أنت؟

وبهدوء أخذت ضربات المعاول تعلو، وأكوام الرمال تمّحي والصلوات تضج، والخوف يرعش ضربات القلب المذعورة.

خيري الذهبي

- مواليد دمشق **1946**
- خريج القاهرة **1968**

صدر له

- ملكوت البسطاء رواية - دمشق 1975
- طائر الأيام العجيبة رواية – دمشق 1977
- ليالٍ عربية رواية – بيروت 1980
- المدينة الأخرى رواية – دمشق 1985
- **«التحولات»**
- حسيبة رواية – دمشق ط3 2003
- فياض رواية – دمشق 1991
- هشام أو الدوران في المكان رواية – بيروت ط2 2003
- الجد المحمول قصص – دمشق 1993
- فخ الأسماء رواية – بيروت 2003
- التدريب على الرعب مقالات - دمشق 2003
- لو لم يكن اسمها فاطمة رواية – القاهرة 2005
- صبوات ياسين رواية – بيروت 2006
- رقصة البهلوان رواية – بيروت 2006



ركعوا جميعاً على ركبهم... وثنيين مذعورين أمام ذلك القادم لا

يعرفونه

ركعوا جميعاً في ذعر...

تباركت أيها القادم.. ليعل اسمك عالياً.. من أنت؟